

ستريتش

رواية

نضال كرم



ليلين للنشر
والتوزيع

نضال كرم

ستريتش

رقم الإيداع / ١٠٨٠١ / ٢٠١٤ ط١

الترقيم الدولى / ٤ - ٧٦ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

غلاف الفنان / رائد خليل

حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

هيئة تحرير ومراجعة

د / سالم ابراهيم سالم

أ / رشا زقيرق

أ / محمود السيد

المراسلات : ٦٠ ش سكنية بنت الحسين

كفر عبده - الإسكندرية

ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

: ٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧

Dar.lilite@gmail.com

lilitepublishing@gmail.com

www.lilithpublishinghouse.com

إلى المستائين
إنظروا إلى مراياكم ..
الغضب وحده لا يكفي

obeikandi.com

(١)

بريقٌ في عينيها، جذبني، على نحوٍ لم أعهده، عطُرُ روحها الأخاذ، أتاح
لحواسي أن تتجاوز المرئي، لتروي تربةً إحساسي، بعدما انفلت غيمُ الفرح
وتاهَ بعيداً عن سمائي، بثُ مُهتماً لوجودها، وحريصاً على تبادلِ أطرافِ
الحديث معها، رغم ضيقِ الوقتِ الذي يسمح لي بذلك، بُعيدَ انتهائي من
تقديم محاضراتي في التقديم الإذاعي .

سحرٌ خاص تمتلكه، أضفى على روحي بريقاً أسراً جذب أحدنا للآخر،
الوقت الذي أمضيه معها قصير، لكن شيء ما استرعى انتباهنا، بتنا نتقصّد
الجلوس بضع دقائق في غرفة المحاضرين، وفي وقفةٍ قصيرةٍ أمام سيارتها بعد
محاضرة اليوم الأخير من الدورة، بُحثُ لها بما أكابده في حياتي، لا أدري
كيف حدّثتها عن زواجي التّعس .

” عِش الحياة كما تريدها أنت أن تكون، لا كما تُفرض عليك ”

عبارتها تلك جعلتني أفكّر ملياً بما تقوم عليه حياتي، تَنبَت لي أيُّ حماقةٍ
ارتكبتُ بزواجي من روزالين، سوءٌ في الاختيار وفشلٌ في وضع الثقة بغير
محلّها . يبدو واهماً من يعتقد أنه قادر على إحداث تغيير ما في إنسان يريد
أن يقترب به .

سنة أشهر مرث، بدت خلالها كدجاجة تُعَفَّرُ برجليها الرماد المتجمّع بعد حفلة شواء قديمة لتسكن إليه وتضع بيضة مشوّهة، سرعان ما ينقضّ الديك على من يحاول الدنو من البيضة ليسرقها، فيما الدجاجات تقترب الواحدة تلو الأخرى لترى الديك وقد انفرد بصياح وكأنه على مزبلة .

كنتُ أخفقتُ في اتخاذ قرارٍ بتبتي عنوانٍ برّاقٍ في الحياة، يدعو إلى الفرح، فيما كان مَنْ يُوَدِّي الدورَ يحاول إغراقي في أتون الوهم زاحفاً في سرايب الخديعة والغش .

سنة أشهر تَكشَّفَ لي خلالها الزيف والكذب، وما أمرُّهما حين يُكشِفان من زوجٍ مخدوع .

أيُّ غشٍ وقعتُ في جِبِّه المظلم بعدما بانَ الفراغ العقلي كشمسٍ مُمتلئةٍ بعمِّ مفضوح، بدا الحوار مع روزالين أشبه بصياح الديك، خواءً فكريٍّ أملس، وصمتٌ أخرقٌ يجعل من عينيها مغارتين يطفح منهما رماد الغباء بعد ثلاثين عاماً من عمرها، لتذره في عينيّ في اليوم الخامس بعد الزفاف، ورغم ذلك ما استكنتُ أو استسلمتُ، حاولتُ مراراً أن أكتشفَ نقطةً مُضيئةً أستطيعُ من خلالها إحداثَ تغييرٍ ما وسط الظلام العميم، أو أن أدعوها إلى الإنصات لي لنكتشفَ معاً سبيلاً نلُمُّ فيه نثارَ ما يُدعى "العقل" لكن محاولاتي تبوءُ بالفشل على الدوام لعدم استجابتها حيناً، ولخضوعها لسطوة الفراغ الفكري القاتل أحياناً أخرى، تأكَّد لي أنها كثيراً ما استنفرت لتجالسَ الجدّات وتُنصِتَ لوصفاتهنّ الخائبة في حكاياتهنّ

التي لم تكن لتتوافق مع عالمي .

الانطباع الأول هو الأصدق دوماً، فلماذا كذبتُ على نفسي وأنكرته ؟

سؤالٌ بَرَقَ كنصلِ السكين تحت الشمس لحظةً ودَّعتني ألما ملوِّحةً بيدها .

استدرتُ لأستقلَّ سيارتي، ثَمَّةَ كلماتٍ ارتسمتُ على زجاجها الأمامي لحظةً اتخذتُ مكاني وراء المقود، في الوقت الذي تنهتُ فيه إلى ما أحدثتهُ صحَّب من في الشارع برأسي من تشويش، وتساءلتُ هل الضجيج ما عكَّر صفوي أم تلك الصور المتقدِّمة نحو مركز الطمانينة في فأنتجتُ نقطة ضعف استقرَّت قبل أن يُعطي الغبارُ ذاكرتي؟!

” إن لم ينتج عن الكذب ضررٌ .. كان مقبولاً ” جملة كثيراً ما ردَّدها صديقي ” شهيد ” .. ولماذا أتذكَّر مقولته تلك الآن؟! .

أبقيتُ صورته ماثلة أمامي، واتجهتُ صوب بيته، شهيد .. درس الفنون الجميلة وعشقَّ الفن بعدما اكتشف المحيطون به جمال صوته وعمق إحساسه، لكنه اضطرَّ لوقف نشاطاته الفنية وإجهاض تجربته الغنائية بعد عدة محاولات منه لثني والده عن قراره بتحريم الغناء عليه، فاستسلم لثلا يمسه العُصَب .

رضخ شهيد لهذا القرار رغماً عنه، امتن العمل في تجارة السيارات، وابتعد عن مجال دراسته وعشقه للفن .

رَدَدْتُ الجملةَ لأحفظها من لعنة النسيان، فما يعتبره الآخرون نعمة
أجده نعمة، والنسيان لعنة ما فارقنتي يوماً، لدى توقفي أمام حاجز تفتيش
دَوْنُهَا في جهازِي المحمول : ” جَمِيلٌ أَنْ تَغْسَلَ ضميرَكَ بدمعة، لكن الأجل
أَنْ تتوقى هَذَرَ دموعك ” .

نظرتُ إليه بعتبٍ مُفْتَعِلٍ عندما فتح لي الباب بعد طرقٍ عنيفٍ
مُتَلَحِّقٍ أيقظه، رمقني وهو يعرك عينيه وبالكاد همس بصوت خفيض :
” أنت ؟!! ” مشى أمامي متباطئاً، تمطى، كمن يحاول استعادة وعيه، بعد
رحلة شاقة في أغوار روح شَرَّدها شريط إخباري في مسالك ما يراه النَّائم
المتهاك، اتجهتُ صوب المطبخ لأعدَّ فنجانين من القهوة ريثما ينتهي من
رشق وجهه بقطراتٍ تُضَيِّعُ غفلتهُ عن واقع سقيم، سرعان ما بادلني نظرة
العتب، لكن بجديّة مُفرطة بعد نُطقي بما أردتُ صوته من النسيان، زفر
بعمق مُعَبِّراً كعادته عن رأيه بإجادتي صوغ الحِكم دون الأخذ بها أو العمل
بمضمونها، بالكاد استطاع صوته الانفلات من جوف بئرٍ فه : ” أسرع
وانشرها في صفحتك على Facebook قبل أن يتلقَّها النسيان ” .

كانت عبارته تلك مُحَرِّضاً له لقول المزيد مما لم أكن مُستَعِدّاً لسماعه الآن،
حسبتُ أَنَّ ماءَ البئرِ مُحَمَّلٌ بفيضِ الغاز .. فلمِ الإِدعاءُ بأني أستوعبُ منه
ما يريد ؟! .

بدا وكأنه قرأ فكرةً دَهمتني، كان واقفاً على بُعْدِ خطوة من الشرفة، وقد
أخفى وهج الشمسِ المقتحِمِ في خطِّ ثابتِ الصالون .. وجهه، أتبعُ بالقول :

لست كما تظن، يأخذني ظنُّك في دربٍ وعرة أدركُ خطورتها، لذا تراني
أبتعدُ عنها لأؤكد لك أني لست مَمسوساً ولا السحرُ بقادرٍ على جعلي
مجنوناً، بل أنا مَفْتونٌ بما يجعلني أؤكدُ إنسانيَّتي وتوقِّي لفعل الخير، وإن لم
يفهمني ذاك الذي أحبه، سوف يُثَمِّنُ وقوفي إلى جانبه في وقتٍ لاحقٍ،
عاوِدِ التفكير فيما تبني عليه ظنُّك يا قيصر .

استجَدتُهُ دمعة ذَرَفَتْها عيني، كلام روجه يؤثر في أيا تأثير، وما الدمعة
إلا من فرط تأثري بما يقاسيه، تسلَّلَ سهمٌ من الوهج المتنامي ليصيب الدمع
لحظة أمسك بمرآة صغيرة ليرنو إلى وجهه، بصعوبة قلتُ له :

• هذا ما لم يستطع أحد تحقيقه لاختلاف أهداف كل واحد منكم،
حتى لو غسل ضميره مرات ومرات، لن يتقي هَدَرَ دموعه، أما
دمعي ..

قاطعني قائلاً بنديَّة واضحة :

• أدرك ما تقصد .

• قلتُ عبارتي تلك لأسقطها عليه وحده، ولتُخرج بعدها من
حساباتي لتدخل حساباتك الراجحة دوماً لخير ما ترمي إليه،
حساباتي المتألّفة مع ما أتوقعه من الآخرين تجاهك يا شهيد .

استرخى على الكرسي الهزاز، نفث دخان سيجارته وهو يقول :

• الكثير مما تُفْلِحُ في قوله وكتابته عن غيرك، تراهم لا ينتفعون منه، وأنت تدرك يا قيصر، كثيراً ما أغوتني درّاجة العمر، وبدوتُ طيلة مكوثي على خشبة مسرح الحياة، مُترعاً بغناء أنشودتي المشعّة، تجوّلتُ بدراجتي مُسدلاً ستائر الحية المعقودة على الجدران البلّورية المذهّبة الأطراف، كنتُ الحارس الأمين لشيخوخة الممارسات اليومية باهظة الملل .

انتفض واقفاً بحركة سريعة ليتجه نحو مكتبته، تناول كتاباً من أحد رفوفها، قلب صفحاته ليستقرّ على مقطعٍ أراد أن يُسمعه لي، كان من رواية غابرييل غارسيا ماركيز ” ذاكرة غانياتي الحزينات ” :

” اكتشفتُ أنني لستُ مُنضبطاً بدافع الفضيلة وإنما كردّ فعلٍ على تهاوني وتقصيري، وأني أبدو سخياً لكي أوارى خسّتي، وأني أظاهر بالتعقّل والحذر لأنني سيء الظنون، وأني أميل إلى المصالحة كيلا أنقاد لنوبات غضبي المكبوحه، وأني دقيق في مواعيدي لمجرد ألا يُعرف مدى استهانتني بوقت الآخرين، واكتشفتُ أخيراً أنّ الحبّ ليس حالة روح وإنما هو علاقة بروج فلكية ” .

أردف بسؤال بدا وكأنه تتمه لما قرأه لي :

• ” إلى أي حدٍ يُشبهنا هذا القول ؟ ”

دُهلتُ، وخرجتُ من بيت شهيد مُرتدياً صمّتي .

ما يهزُّ العرشُ سيأتي عليه يوماً، ويُحطِّمه .

أوضحت ذلك لروزالين مراراً، بعد تفاقم المشكلات فيما بيننا، خاصة بعد المشاجرة الأعنف التي حدثت مؤخراً، إذ هبَّت على إثرها عاصفةٌ أطاحت بما تبقي من سكينه في روحي .. فتشظَّت، ما استدعى مني أن أطلب من أبيها وأخيها أن ترافقهما، لأتمكَّن من ترميم ما تصدَّع في روحي .

حينما رافقتهم إلى الباب مُودِّعاً، صوّبت نحوها سهمَ نظري القاسية مُسائلاً روحي عما إذا كانت اطمأنت يوماً معها، بكتِ الرُّوحُ وأبث أن تسلمَ بديمومة الحياة معها، تفوّه الأُخُّ بجملة تردَّدت مُدويّة في أذني : ” اعتبرها خادمة لديك وأبقها في بيتك ” .

أطبقتُ الباب حين كانت تُنهي عبارتها الممجوجة التي تُحمَل فيها قادمات الأيام ما عجّزت عن تحقيقه خلال ستة أشهر، حتى ما ذرفته من دمع لحظة خروجها اكتسى بالإثم والزيغ، لم يعد هذا المكان يخصُّها في شيء، بعدما غدث أكثر بُعداً عني وأقبَح صورة لما آلت إليه حياتنا معاً، لم يكن الحب ما جمعنا، بل رغبة في الزواج لا أكثر، أرادت بزواجها مني

مستقبلها، وأردتُ بانفصالي عنها .. الحياة .

في كل مرة، أصلُ معها إلى نقطة النهاية، تُعيدني إلى نقطة البدء، كأني لم أنطق بحرف، وم كما كان الصمت لغة أتقنتها لكي تُداري ما برعْتُ به، كأنما يَمسُّها الشيطان إذا ما نطقْتُ بصدق، وإذا تحدَّثْتُ إليها في أي أمر، كان الإيجاب منها دونما صوت، في كل صغيرة أكتشفُ الكذب تاجاً فوق رأسها، يُطلُّ برأسه بغتةً ليسترخي ويتمدّد في مكان لا إرثَ له فيه، وما كان كذبها إلا حُبّاً به، لا لمازقُ وُضِعَتْ فيه، ولا لظرفِ فُرْصٍ عليها، بل هذا ما كانت قد جُبلت عليه وقد سرى مع الدم في عروقها، ومن يكذب في صغائر الأمور يكذب في كبائرهما، وقد ارتكبتُ الكثير .. فُقبل الزواج .

أمسى القرارُ نتيجة منطقية بعد كلِّ ما حُضتُهُ مُحاولاً إحياء ما وُلِدَ مَيِّتاً، زادهُ قُبْحاً ما تفوّه به الأخ الصنديد، كانت عبارته كنصلٍ سكينٍ قطعَ بها حبْلُ الوريدِ لما سُمِّيت مجازاً ” الحياة الزوجية ” .

روزالين .. رنوتُ إلى صورة جمعتنا يوم الزفاف، وتساءلتُ بحرقه :

أي روحٍ خاوية كَوْنَتْ ما بداخلك فصاعثُ نفسك من العدم !؟

حاولتُ مراراً أن أتجاوزَ نقائص ما ادَّعت في فترة الخطبة كالأله، لكنها أسكتتُ روحَ المرح فيّ وأماطت اللثام عن وجه النكد والبؤس .

اعتلَّ فرحي واضمحلت طمأنينتي، وم حسبتُ نفسي أتعامل مع طفلةٍ لم تتجاوز ربيعها السادس، خاصة فيما تجهدُ في إتيانه من مُمزحةٍ تحاول عبرها

إشاعة الضحك لتؤكد لي استعدادها التام لبدء حياةٍ مُشرقةٍ معي، لكن .. كنتُ أحارُّ من أين تأتي بروح النكتة، وكيف تستطيع أن تفتعل ببلاهةٍ واضحةٍ المواقفَ لتضحك عليها بمفردها؟! كما حدث غير مرة عند عودتي من عملي، ولدى اجتيازي العتبةَ أجدها واقفة خلف الباب وفي يدها سكين المطبخ الكبيرة، لتفزعني، مُتوقِّعةً أن أضُمَّها إلى صدري وأضحك على حُقمها، وكثيراً ما كانت تسارع نحوي حين تكون في المطبخ تُعدُّ الطعام وتفرم البصل لتُدني أصابعها من أنفي وتجعلني أشمُّ رائحة العطر البَصَلِيّ الأخاذ .

يمكن أن يُظهِر المرء أفضل ما لديه ليكسب محبة الآخرين وثقتهم به، لكن الأمرَ يَتطلَّبُ الصدق شرطاً أساسياً لتدوم المحبة وإلا انهارت وانقلبت إلى الصد، يجب تلمُّس جمال الروح في التعامل وفي أسلوب الحياة لكي يكون هناك بُعداً آخر أكثر حُمقاً من ترك انطباعٍ إيجابي لدى الآخر، فإن انعدم الصدق وانحصر الهدف في الوصول إلى الغاية فقط، كانت النتيجة موتاً مُحتملاً لكل ما يُقدَّمُ ويُطرح، حتى لو تحققت الغاية كلياً أو جزئياً، لا بد أن يشيع الخواء كاشفاً المستور بأقبح صورة .

الكذب استعمر مكان روزالين في الصورة فاستحال سواداً، سَكَنَ في بؤرةٍ أتت على تفاصيلها، فأحلَّها مِرْقاً بين يدي .

في اللحظة التي توارثت روزالين خلف ستارته، ومن نبض إحساسي .. كتبتُ :

لن أدعَكَ تُشاركني الحزنَ هذه المرة، رُوْحَكَ لَنْ تَحْتَمِل .

الكذبُ أفرغَ حولتهُ على مدخلِ بيتي، اقتحمَ غُرفَ جسدي، شاركني
عنوةً طاولةَ طعامي، وجدتهُ مادّاً قدميه على أريكتي، مُفاجِراً بجسدهِ فوقَ
سريري، باسطاً يديهِ فوقَ مكتبي يلهو بأصابعه النحيله والطويلة، يقهقهُ
لحظةً لا أحتملُ فيها مزاحاً سَجِجاً، يَسْتَفْزِنِي والصفاءُ أنشودة لروحي،
يحاولُ تثبي عنه، يتسلَّلُ مُتغَلِغلاً بنسيجِ النورِ ليطفئهُ، لكن .. عَبَثاً يحاولُ
إيقاعي في شركه .

حدثَ ما حدث في لحظةٍ شاردةٍ عن عيني الزمان، لكن ما هو غريبُ
يجبُ استئصاله، لستُ أنا مَنْ يكون محلَّ عَبَثٍ، وعباءةُ صِدْقِي أَطهرُ مِنْ
أَنْ تُدَسَّسَ، ببساطة، أحسَّ الكذبُ بغربةٍ ووحشة، جُلَّ اهتامي كان فيما
أقدمهُ ويشغلني، لغةٌ لم يكن بقادرٍ على قراءتها، ولا تقبلها، غادرَ المكانَ
وشظايا صِدْقِي تعصفُ بسخطه، تفتكُ بسُحبه، وتزرع الطمانينة في نفسي،
اختنق، غَصَّ بدمعه، اكتشفَ مُتأخراً أن لا مكانَ له هنا فاضمحل .

دائرةُ نُوري كَوْنٌ فسيح، مدى صِدْقِي مُتدداً حتى بساطِ العرش، صَبَقُ
هذا العدم الذي حاولَ اختراقَ صفحاتِ الأشياءِ مِنْ حولي، وَ نَفْسِي .

غاب .. كأنْ لم يكن .

بغياب روزالين عني، ابتدأتُ فصلاً جديداً من فصول الحياة، وحيداً من دونها، لم أفكّر في مسألة إيجاد السعادة، بربح أو خسارة، كنتُ مُمعناً في التركيز على أن أعود كما كنتُ، حقيقياً مع نفسي .

تقرّرَ سفري إلى اللاذقية بمهمة عمل، سأكون مع الأزرق لأرّم موج قلبي، سأكون مع نفسي، نفسي التي تُصرُّ على مواجهة التحديات في الحياة لتصنع السعادة وتتجاوز ما يمكن أن يعيقها، كنتُ أدركُ تماماً أنّ تغيير المكان لا يؤدّي إلى بلوغي الراحة إنّ لم أكن قادراً على تغيير فضائي الداخلي، لتتوافق إرادة الحياة مع رغبتني في أن أكون مُحبّاً حتى لو لم أكن في علاقة حب .

وقفتُ فور وصولي الشاطئ الأزرق لأحاطبَ البحرَ بلغةٍ شفيفةٍ لروح تستعيدُ موجاً سلبً منه هديره بعض الوقت، خطُّ الأفقِ مدىّ مُقفلٌ على سماء اللّهفة والانتظار، مُعدّلُ الرطوبة مرتفعٌ يكاد يؤثّرُ على حماستي ويبعث في شعوراً بالحمول، إلا أن اشتياقي لملاقة الأزرق كان طاغياً ومُسيطرًا على كل ما يمكن أن يغيّرَ من هدوئي الداخلي، البحر صديقٌ قديم، لكن من هم

قريبون منه أهملوا شاطئه، اللاجئون إليه هرباً من الأحداث الدامية التي ضربت عنق المدن التي أتوا منها، بعثروا قاذوراتهم لتتقاذفها الأمواج ومن ثم تُبعدها عن ملامسة جسد البحر، كما هو قلبي حين تتجاذبه حروف الكذب فيصمت أمام لوثة تستبدُ بناطقها ومن ثم أشطبه فأخفيه عن دائرة الوجود .

فنجان قهوة مُرّة، ولفافة تبغ، والبحر من أمامي .

شَفْتُ رُوحِي، حسبْتُ لبرهةٍ أني أكتبُ حروفَ الشوقِ على الموجِ الرقيقِ، من نبضِ البحرِ سَطَّرْتُ غَزْلاً شفيفاً، رأيتُه كيفَ يُسَرِّبُ لي نَزْفَهُ، شَوْقَهُ، اختلاجيَّه، وكيفَ يُسَرِّبُني إلى عمرٍ مضى كأني الحاضرُ في ماضي الدمعِ، كأني الكلمة تفيضُ بما لن ينتهي يوماً من إطلاقِ ما بداخلي من نوارس تهوى الحرية .

عدتُ إلى طفولةِ حزني، على امتدادِ عمرِ بكلِ لحظاته، ساعاته، نهاراته ولياليه، وجدتُ طفلاً ندياً ما إن تَفَتَّحتْ عيناه على نورِ الحياةِ حتى أحرقَ الراشدونَ أجنحةَ فراشاته، ولج سكونِ العتمة، والصمت لغته، أُرهِقَتِ الطفولةُ بعضيَّانٍ حسبته أهرقَ البياضَ جاعلاً من السوادِ لوئناً وحيداً لفضاءاتي، احتكمتُ إلى من يسكن ذاتي، وقبعْتُ في السوادِ المحيطِ ببياضِ رُوحِ تنوُّقٍ إلى نورٍ بهي، لم أكن لأرضي يوماً عما يعتمل في داخلي، صوراً مُشوَّهةً و وجعٍ يخيِّطُ من الآهةِ حكايةَ رفضِ لمصيرِ بحيمي، كومةٌ من التناقضاتِ في عقلٍ يأبى التسليمَ لأفتقالِ تمنعُه عن محاولةِ التخلُّصِ من

خيوط أحزانٍ تكاثفت عليّ فتلبّستني ومنعت عني إحساسي بالطفولة، ما كنتُ أحسبُ أنّ العُمرَ محدودٌ بما هو آني، بل كنتُ توّاقاً للحظاتِ الانفرادِ بنفسِي لأحلِّقُ في حيواتٍ لي مضت، جائحةُ الهوى مُدرةً لولاداتٍ عسيرة تفيضُ معها أطيافُ أحلامٍ كانت المخلصَ لما تشكّلت بذرته مُبكرًا، كبحثها إرادةٌ صلبةٌ من الظهور، لامسها فقرٌ جعلَ من اليابس وجبة يومية، أبٌ غائبٌ عن أولاده، أمٌ قوية، قادرة على مسك زمام الأمور، والطفلُ البكرُ يستسلمُ لتراكيب صورٍ يُبدعها خياله الخصب، يرتكب بها ما يجعله ثابتاً تطيعه الحياة المتحوّلة، كثيراً ما كان يُتممُ حين يختلي بنفسه بماءٍ يسفح الجنون ليحيا اليقين، يحيا في مرتع الظنون ليكتشف ذاته والكون .

لم يكن مقبولاً أنّ أنصت لبكائي، لا بد من عمل أوديه، لأشبع الأفواه المفتوحة، اشتغلت في فرن، وتلوّث جسدي بطحين وقلبات لم يتبعها صراخ، وكما لم أحدث أحداً عما كنتُ أعرّضُ له، ما كنتُ لأعتبره فعلاً خاطئاً، إذ كان هناك ما هو حيٌّ في داخلي، أراحني ذلك الحيُّ من حمل عقدة الإثم، لكنّ حزني استمرّ قفلاً لصندوق أيامي، وعلى الرغم ما قاسيته، احتفظت وجهي ببراءته، وقلبي بسكينته، ولساني التزم الصمت، كأني بنفسِي أمازحها حيناً في معاقبة الروح على إثمٍ ما اقترفته يوماً أو تماديت، بالحزن وحده انتصرت، صار الخيال شغلي الشاغل، أنسربُ طيفاً مارقاً في الدروب المؤدّية إلى الصمت والتأمل، ما احترفتُ الخطيئة ولم تمسني، لكنها سكنت نفسي بالمجاز فكنتُ طوقَ عذاب، ما استعجلت ارتكاب الذنب كغيري فكان الصبر زادي لانفراجي الداخلي .

ومرّت الأعوام ... ما استمالي صغيراً، جعلني أؤمن أنّ الخطر مفاجئٌ سعيدة، ما دمتُ في هذي الحياة جزءاً منها، مهرتُ أيامي بخاتم التفكير المؤدّي إلى الوعي، مُستفيداً من تجاربي، لم أعهد الاستسلام لِمَا هو ثابتٌ من دون بحثٍ عن مخرجٍ له من باطن نفسي، تنازعتني الأهواء حيناً، وطاب لي أن أجعل من خشبة المسرح دُرَيْئَةً أصوّب نحوها سهام الملدّات أحياناً، ما استكنتُ يوماً، ولم أعترف لحظةً بحالٍ يقلبُ العالمَ رأساً على عقب، ما انجرفتُ يوماً لأسقط في طينٍ ما يسكنني ومستنقعٍ ما يدعوني البعض إليه، قاومتُ الوقوع بالخطأ، وتناسيتُ ما هو من أصل جسدي وتكوينه، محاولاً ثني النفس عن هواها المقيم، وانشغلتُ بالتفكير والتأمل، لأتخلّص ما يكاد يعيق الروح عن التحليق في فضاءات التوق لأحيا الحياة، لم أأخذ ما عاهدتُ نفسي عليه، وما تبرّأتُ منه يوماً، لكن ما سكنني هو أحلام اليقظة، ما إن ينسرح الخيال مُنفلتاً عن قيود الحياة التي اخترتها لتزجرني عن إتيان ما يُقَبِّحني من الداخل أمام نفسي قبل أن يعينني الغير، وما حاربتُ لأجله نوازع النفس في الهوى، منعني، لكنه كاد يبعدني في بعض اللحظات، وما اللحظة إلا من عمري، فتنهتُ أن تكون اللحظات جميلة كالأرض، خيِّرة كالأشجار .

جُلّ ما حققته في حياتي كان نتيجة ما صارعته لأجل أن يكون حقيقة كما نفسي، وباتت الجنة على الأرض وسيلة لي للخوض في الحياة لأصنع نفسي بإرادة مني على أن أهب نفسي للحياة .

كان اللقاء مع الأزرق بمثابة مكافأة من الحياة، ودعوة منها للإبحار عميقاً
دون أن يفصلني عنها ما يرهقني ويبعدني عن المحبة .

البحر أمامي ولستُ على موعدٍ مع أحد، لطالما كنتُ جريئاً في
السباحة في بحر المحبة، لا أهابُ الانخراط فيه وإن لم يكن ثمة حبيبة،
لأكتشفَ تفاصيلَ مكُوناته وأذهبَ بعيداً في رؤاي، وليقرر الكون بعدها
في أي كونٍ يكون، إن استطاعَ فكُ طلاسَمُ أناي، التي لا يُدرِكُ مفاتيحها إلا
الأناني، أنانيُّ أنا في محبّتي للطبيعة والكون، أدركُ ذلك كما تدركُ هي ولن
يحيطُ الكونُ ببلونِ اختارُه لي .

هوى النفس مازال كما هو، وغياب روزالين عني، لن يمنع الأثني من
اختراق عالمي المجنون بأفكاري، عالم أصنعه بيدي وليس بما يُمكن أن
يُفرضَ عليّ، بإرادتي وحدي ألجُ مسرحَ الحياة، دونما حاجة للتذرُّعِ بعادةٍ
أو الركونِ إلى ضعف، فما ضعفتُ سابقاً لأنهارَ الآن، وما بنيتَه في ماضيِّ
لن أهدمهُ يوماً، لكنه الفضول، حريُّ بي أن أتعرَّفَ إلى العالم من جديد
كأني للثوّ أطأُ تربته البكر .

والبحر أراه الآن يخاطبني، أسمعُ صوتهُ يُهددُ لي وفي صفوة نقائه
يقول :

” لا تبحث عن الحب، لن يطلبَ منك إذناً حين يريد اقتحام عالمك
.. وقلبك، إن صدده ستفشل، إن قهرته ستكون كاذباً على نفسك،
للحظات ربما تطول، ربما تقصر، لكن سيحدث أن ترفض الكذبة بنفسك،

لا تُقَلُّ إنك أفتلت قلبك، الأشياءُ تقبلُ الإقفالَ إلا القلب، لا تظن أنك قادر على جعله شيئاً بأمرك، أنت تصمد ربما .. أمام ثورته قليلاً، وتظن أنك كسبت الجولة أمام يأسِ يدهمك، لكن سيحدث في مثل هذا القلب .. حُب، ستقع إن شئت أم راوغت باختيار غير درب، وسوف تسير ومن ثم تطير، فإن وقعت، لا تسأل عن ذكرياتِ الدمع، قد فُطرت على الحب، وليس الحب بالأمر الصعب، سوف يُباغثك إن عاجلاً أم”

وقفتُ أثناء سيرى على كورنيش اللاذقية أمام صخرة الموت، شامخةً هي تتحدى ما ينازعها على موقعها، هنا يرسم من يريد وضع حدٍ لحياته، طريقة خروجها منها، فيوقع على وثيقة الحقيقة الثالثة في الحياة بدمه، ويمهرها بخاتم الانتحار، لكن .. من المحتم ألا يُصادق الإله على الوثيقة، هذا ما يرفضه، وليس في الأمر شفاعة .

رنين هاتفي أعادني فجأة إلى أرض الحقيقة الزائفة وخشبة المسرح تنوء من ثقل ما يعلوها، كان المتحدثُ أحد أعضاء الشبكة التي أتيتُ بمهمة تغطية نشاطاتها وإجراء حواراتٍ مع أعضائها وتسليط الضوء على ما تُنجزه وجرح الوطن غائرٌ عميق، صوت المتحدثِ إليّ يبدو أنثوياً، حين علم بمكان وجودي أخبرني بأنه في مكان قريب وسوف يحضر حالاً لنناقش برنامج التغطية ولنتفق على التفاصيل .

حين التقيتُ به، تأكد حُدسي بطغيان الأنوثة فيه، يبدو في العقد الثالث من العمر، متوسط الطول، نحيل الجسد، على صفحة وجهه

توزعت البثور التي يبدو أنه ناكفها فانتقمت لنفسها وتركت آثارها بوضوح، أعلمني أنه يعمل في الصحافة الإلكترونية، بدا عليه الارتباك والحجل بعض الشيء، على خلاف ما يظهر عليه الصحفيون عادة، اتفقنا على برنامج التغطية، استأذن وغاب سريعاً من أمامي .. تاركاً بقعة من ظله في المكان .

الليل في آخره، وقد بثت روجي للبحر أغلب وجعها، استشعرتُ حَدَثًا سوف يقلب وجهه الريح، كنتُ مُسترخياً على رمل الشاطئ وهدير الموج يعزف سيمفونية تلامس الوجدان، أضواء خافتة تتأرجح وسط البحر على مسافة قريبة، علقتُ في قوارب تضم صيادين عقدوا الأمل بصيد وفير الصمت لغة المتحفز الصابر والمُنْتَظِر، وددتُ أن أمزق الصمت بموسيقى تهدد إحساسي على هدى الموج، بعدما جذبت قوارب الذكريات القديمة، ثبتتُ في أذني سماعة جوالي وتركتُ للأذن الأخرى أن تُنصت لعزف الموج، البحر استوى أمامي مُتوجاً بطقس إليه يبوخ بأسراره لي النجوم تُراقص القمر بطفولة مُتدثرة بابتسامة، سَكِينَةٌ تحرض مَرَجًا من حروف التوق لتستسلم لبياض النفس وتترك الأثر، كتبتُ على ورقة صغيرة : " ها أنا قَدْ بَعَثَ الْوَرْدُ نِدَاهُ عَلَى شَفَتِي، فَتَلَقَّهَا أَيُّهَا الْبَحْرُ " .

على الرمل الفتي استلقيتُ، وكانت رواية الليل تُتلى على مسامع الكون، فغفوت .

صباحًا، كنتُ ممدداً على السرير داخل الشاليه، لم أع متى وكيف

ولجتها، استيقظتُ على رنين الهاتف، تَلَقَّفته وعيناى مُغمضتان، كان الشاب الذي التقيتُ به ليلة أمس، استفسر عن سبب تأخري، اعتذرتُ منه و وعدته أن ألتحق بهم خلال نصف ساعة .

(٤)

كوكبةً من الشباب المتحمّس لفكرة إحياء تاريخ سورية وتراثها، عرّفني إليهم يم، كان كل عضو قد ثبتَّ بطاقةً كُتب عليها اسمه يُرَيِّنها شعار الشبكة، شرع أدونيس يحدّثني عن الهدف من وراء تجمّعهم، حين أتى على ذكر سورية كان الفخر يشعُّ من عينيه، سرد ما شدّني للاستماع إليه، عن تاريخ الآثار، عن الفكر السوري، لماذا سُميت سورية بهذا الاسم وبماذا تتميز حضارتها .

كنت أنصتُ له باهتمام، فجأة قاطعه يم وقد تعمّد لفّت نظري إليه،
قائلاً :

• على اعتبار أننا في اللاذقية حيث مدينة أوغاريت في موقع قريب منها، مدينة الأبجدية الأولى والتي أعطت أول نوتة موسيقية، لذا ركّزنا في مشروعنا على تكثيف الجهود للإجابة عن السؤال التالي : كيف نبرز التاريخ الحضاري لسورية ؟ .

أتبعثُ هبة الله بالقول :

• مشروعنا مشروع أهلي، وضعنا الخطط ليتولى قسمٌ ممّا البحث

في التاريخ، تحديداً في تاريخ الميثولوجيا السورية التي منها أخذت الميثولوجيا اليونانية ألقها، وقسم آخر اشتغل على الفن السوري، نقدً منحتاتٍ تُحاكي مواقع ومراكز هامة جداً في تاريخ سورية للتعريف عن هذه المواقع الأثرية التي كانت قبلة للسياح .

مُجَدِّداً.. قال يم :

• إننا نعتقد أن العالم المتحصّر بلغته وثقافته يَستمدُّ في جزءٍ لا بأس به من حضارته تلك، الحضارة السورية العريقة، لاحظ في الأجزاء الثمانية لهارى بوتز، تم استخدام طائر العنقاء (الفينيق) وعبروا فيه عن أهم طائر مخلوق من نار، وكما تعلم فإن طائر الفينيق وفق الأسطورة المعروفة هو طائر سوري فينيقي تم استخدامه من قبل مؤلّفة سلسلة هاري بوتز على أنه طائر من إبداعها، حتى أنه يُلفظ باللغة الإنكليزية "فينكس" .

تألّقت روح هبة الأوغاريتية مع ابتسامة ساحرة على محياها حين أتبعث بالقول :

• أوغاريت ليست مدينة واحدة، إنما هي سبع مدن تموضعت فوق بعضها البعض، لكن نتيجة ثوران بركان جبل الأقرع، ماتت المدينة وقامت من الموت سبع مرات، وفي كل مرة كانت تنتفض لتعود إلى الحياة كطائر الفينيق، يموت وينهض من جديد، وهي بذلك تحقّق الأسطورة المتعلقة بطائر الفينيق، ولا تزال بعض الكلمات في لهجتنا اليوم مُستمدّة من اللغة الأوغاريتية الأصيلة

كقول العامة : ” أيّ ليه ” وتعني ” يا أيها الإله إيل ” التي تُطلق كمناجاة له، وإذا دققنا قليلاً نجد أن المدينة الأخيرة التي نهضت من موتها لتتجدّد الحياة فيها لم تُثمّت نتيجة ثوران هذا البركان، إنما نتيجة هجمات شعوب البحر المجهولين ما أدّى إلى انهيار المدينة وموتها تدريجياً، ولا تزال الكثير من الشواهد باقية على عظمة هذه المدينة كبوابة القصر الملكي إضافة إلى الإكروبول (أي معبد الإله دجن والإله بعل) .

أثارني ما يقوله الشباب المتحمّس، طرحت سؤالاً حول اللغة الأوغاريتية، فأجابني أدونيس :

• أثار تحليل اللغة الأوغاريتية الخلاف بين الباحثين، حيث تم الكشف والتوصّل لاحقاً إلى أنها لا تنتمي إلى أي من مجموعة اللغات السامية المعروفة قبلها، فجزء من هذه اللغة يُصنّف ضمن الفرع الشمالي الغربي في اللغات السامية، وبعضها يلائم فروعاً أخرى، مما أكّد على أنها لغة قائمة بحِدّ ذاتها، وتم التصديق بعد ذلك من خلال اكتشاف الرُّقيم الذي يحمل الأبجدية الأقدم في التاريخ .

أردفت هبة بالقول :

• وقد أتى الشاعر اليوناني هوميروس في إلياذته على ذكر الصناعات والأواني في أوغاريت (لا توجد آنية أخرى تنافسها في جمالها) .

شعرتُ بالفخر أمام هذا الشباب المتحمّس، وطلبتُ منهم أن
يتحضّروا فوراً لنبدأ العمل .

obeikandi.com

(٥)

اللَّيْلُ فِي اللَّاذِقِيَةِ يَنْسُجُ النَّأْيَ وَيُوقِدُ مَرْجَلَ الْحَزْنِ، مَعَ بَحْرِهِ وَشَاطِئِهِ
أَسَامِرُ الصَّمْتِ، وَلَأَنَّثِي الْبَحْرَ حَكَايَةً أُخْرَى، لِحُضُورِهَا بِهَاءٍ يُسْرِبُ إِلَى
الرُّوحِ الرَّاحَةِ وَالطَّمَأِينَةِ وَالْأَمَلِ، تَبْدُو مُحْرَضًا قَوِيًّا لِأَكْتَبَ عَلَى فِسْتَانِهَا
الليليكي :

” سَوْفَ أَشِي بِكَ لِحُرُوفِي، وَأَلْقِمُ رِيشتِي بِمَجْرٍ مِنْ ذَاكِرَةِ الْمَوْجِ، عَلَّهَا
تَصْحُو مِنْ خَدْرِهَا وَمَنْكَ، مِنْ مَاضٍ سَأْنَكُنَا جِرَاحَهُ .

سَأَجْعَلُ لِلضَّحَكَاتِ أَجْنَحَةً مِنْ نُورٍ، وَلِلْأَحْزَانِ أَيْقُونَةَ مِنْ دَمْعَةٍ
طَاعِنَةٍ فِي الصَّهِيلِ ..

سَوْفَ أَسْتَعِيدُ صُورَنَا مَعًا، وَإِنْ أَبَكْتَنِي، سَيَكُونُ لِلْبِيَاضِ عِطْرُكَ،
وَسَوَادُ وَشَايْتِي ذَكْرِيَاتِ لِيَالِنَا الْعَاصِفَةِ ..

سَوْفَ أَجْعَلُ مِنْ وَجْهِ سُورًا، يَبْقَى نَظْرَاتِكَ مِنْ صَقِيعِ مَنَفَاكِ الْمُخْتَارِ .
لَسْتُ كَائِنًا وَرَقِيًّا فِي رَأْسِي، لَسْتُ مَجْرَدَ كَلِمَاتٍ كُتِبَتْ لِتُعَبِّأَ الْبِيَاضَ،
لَا فِرَاعَ يَحْدُكَ أَوْ يُحَدِّدُكَ فِي قَلْبِي، أَنْتِ كَوْنٌ فِي امْرَأَةٍ، وَأَنَا رَجُلٌ بِلَا

ذاكرة ” .

تلقيتُ اتصالاً من يم، يدعوني إلى وجبة الفطور بمطعم ” الجغنون ” قبل استئناف اللقاءات صباحاً، اعتذرتُ منه محاولاً تأجيل الدعوة حتى أنهي العمل مع أعضاء الشبكة، لكنه أصرَّ مُعتبراً اعتذاري عن دعوته رفضاً للتعرف إليه، شكرته، ووعدته أن أكون حاضراً في الموعد الذي حدّده .

يبدو أنه لطيف، دَمَث، رغم أنوثه روحه وانعكاسها على أسلوبه في التعامل مع الآخرين وليس على شكله الخارجي، إلا أن اهتماماته الأخرى بعيداً عن عمله في مجال الصحافة أثارت فضولي لأعرف عنه المزيد، بدا اهتمامه بي جلياً حينما التقينا، حدّثني عن تجربته الشعرية حينما أهداني مجموعةً أصدرها قبل نحو عامين، ودعاني لزيارته ليسمعني عزفه على البيانو، ما استرعى انتباهي هو شعبيته الملفتة، واهتمامه بأناقته ومظهره، وبمن يرنو إليه أو حينما يحدِّق هو بالمآزين وفيض ابتساماته هديته لهم، استغربتُ بادئ الأمر، لكن بررتُ ذلك لعمله في الصحافة ومعرفته بالكثير من المشاهير كما أخبرني، وبنقاء روحه ولطفه مع الجميع، مع تطوُّر أحاديثنا وتعمُّق نظراته وعلى من تقع لاحظتُ أي اهتمامٍ يركز عليه، خاصة حين أعلمني أنه مُتمكِّنٌ من معرفة بعض الأمور الخاصة بعلم الطاقة والتي يستطيع من خلالها قراءة مكنونات الشخص والغوص عميقاً في نفسه، وقد طلب ذلك مني، ورغم أنني لا أهوى ذلك لكثرة المدّعين بمعرفة أمور

الطاقة، وافقتُ، كنا قد انتهينا من تناول فطورنا، فسارع إلى احتضان كفي،
أطبق عليها بكفي، ثم أغمض عينيه قليلاً وقال :

أنت على مفترق طرق، سوف تختار الطريق الأنسب لك، أمضيت
زمناً طويلاً مُغْتَرِباً عن ذاتك، لكنك الآن تحاول أن تجدها، وستجدها،
الأمر حالياً في عملك ليست مريحة، لكنك ستنجز عملاً خلال ستة أشهر
يلفتُ النظر إليك، ويحقق لك مكاسب جيدة معنوية وليست مادية،
سوف تكون مُحَطَّ الأنظار، عليك فقط بالصبر والعمل وفق حَدْسِكَ
القوي، إحساسك بالأشخاص وحُسن قراءتك لهم يساعدانك في توجيه
بوصلتك نحو الجهة الحقيقية .

صمت لبرهة، مُحَدِّقاً بي ليرى وَقَع كلماته عليّ، ثم تابع بالقول :

• هل أكتفي بذلك أم أقول لك المزيد ؟

ضحكتُ وقلت له :

• لا .. لا .. يكفي ذلك، لكن العمل الذي ذكرته سيكون مُنجزاً
خلال شهر .

• تعتقد ذلك، لن يكون مُحَقَّقاً قبل ستة أشهر .

• هل تستخدم هذا الأسلوب لأغراض خاصة ؟

قهقهتُ وغمزته بعيني، ضحك وقال :

• أحياناً، أنت شخصٌ مُتميّزٌ وسوف تحقّق نجاحاتٍ كثيرةً مستقبلاً

حدّثني يم عن اللاذقية، بعدما حلّ فيها منذ عدّة أشهر قادماً من ريف دمشق، قاطعنا النادل وهو يقدّم ما طلبناه بعد وجبة الفطور، القهوة المرّة التي أعشقها، والبيرة ليم .

” لطفٌ هذا الشخص أهو مصطنعٌ أم حقيقيّ؟ ”

بدا مُهتماً بتفاصيل خاصة بي لم يكن الكثيرون يلتفتون إليها، وهذا ما أثار استغرابي، سألته عن سبب هذا الاهتمام، برّر لي ذلك بما كان يُعدّه قُبيل لقائنا بهدف إجراء حوار صحفيّ معي، بادرتّه قائلاً :

• منذ قليل أخبرتني أنّ حدسي قويٌّ وهذا صحيح، وأنا أقرأ أبعدَ من ذلك، الأمر لا يتعلق فقط بالحوار

• صحيح، وستكتشف ذلك بنفسك بعد حين .

دفع البيرة في جوفه، وعاجل بالقول :

• يبدو أنّك مُثيرٌ لدى النساء، انظر يا رجل، جميع من يمرّرن بنا يُعجّن النظرَ فيك، لكنني لستُ مُهتماً لذلك، لك النساء إن أردت

قهقهتُ وقلّتُ بدراماتيكيّةٍ ساخرة، وقد وثبتُ صورةً روزالين أمامي :

• كما تريد، هأمٌ بنا كيلا نتأخر عن موعدنا مع أعضاء الشبكة .

تنامى الإحساس لديّ بأن يم شخصية مثيرة للجدل بقدر ما تحمل من
تناقضات وغنى .

obeikandi.com

(6)

لم يشأ يم أن نجلس إلى البحر، قال لي مُشاكِساً بنبرةٍ أنثويةٍ لم أعتدها
منه بعد :

• أريدُ أنْ أنفردَ بك بعيداً عن عيون البحر وعاشقيه .
بانَتْ الدهشةُ عليّ حين نطق بعبارته، ما استدعى منه تبريراً سريعاً
مصحوباً بإبتسامته المعهودة :

• ” وراس أختي ” لا أقصد إلا أن تُسرع، لا أريد أن نضيّع الوقت
هنا، سوف أسمعك مقطوعاتٍ موسيقيةٍ رائعة على البيانو، كما أن
شقتي في الطايبات، ومُطلّة على البحر أيضاً، سوف تشعر بمتعة
مزدوجة .

حدّقتُ بعينه ما جعله يتململ في جلسته وقد أصابته قشعريرة
مفاجئة إذ حسبتُ أنني سأتلّفُ بما يُصعقه :

• أخبرني يم ..

تقصّدتُ الصمتَ برهةً .. وأنا أمعنُ النظرَ إليه فانحرفَ جهة الأزرق
في حركة لا إرادية ليهرب من الآتي :

• ما الذي تخفيه عني ؟ .

بُهتَ لِمَا قُلْتُ، رَأَيْتُ أُمَامِي طِفْلاً يَكَادُ أَنْ يُوَاجِهَ عَقُوبَةَ شَدِيدَةٍ مَحَاوِلاً
الهرب ما استطاع من سَوْطِ الاتهام :

• هل أَعْجَبَكَ بشيء؟ بالله عليك قُلْ لي بصراحة .

فَهَيْتُ مُبْعِداً الشَبَحَ الَّذِي أَرَعْبُهُ، أَرَدْتُ الْإِمْسَاكَ بِتَلَابِيحِ فِكْرَةٍ
جديدةٍ خَطَرَتْ لِي فِجَاءَةً .. فقلْتُ :

• إِنَّ وَاجِهَتَ نَظْرَةَ اتِّهَامٍ بَارْتِكَابِكَ لِفِعْلِ شَائِنٍ أَوْ دَارَتْ حَوْلَكَ
شُبْهَةٌ مَا، هَلْ تُفَضِّلُ التَّصْرِيحَ مِنْ يَتَّهَمُكَ أَمْ التَّمْلِيحَ ؟ وَهَلْ
يُقَيِّدُكَ ذَلِكَ عَمَّا تَرِيدُهُ كَأَنَّ شَيْئاً لَمْ يَكُنْ ؟ .

• إِيَّامٌ تَرْمِي يَا قَيْصَرَ؟! هَلْ تَجِدُنِي مَعْنَى يُشَكُّ فِي أَمْرِهِ ؟ أَظُنُّ أَنَّكَ
تَتَعَمَّدُ اسْتَفْزَازِي لِأَجْهَرَ يَقُولُ مَا لَا أَظُنُّ أَنَّكَ قَارئُهُ بِدَقَّةِ .

• مَا بِالكَ يَا رَجُلَ؟ قَرَأْتُ، وَخَتَمْتُ قِرَاءَتِي لِكُلِّ مَا يَتَضَمَّنُهُ كِتَابُ
رُوحِكَ، لَكِنْ أُرِيدُ مِنْكَ تَوْضِيحاً وَتَفْسِيراً لِكُلِّ مَا يَحْدِثُ مِنْ
حَوْلِنَا .

• عَنِ أَيِّ أَمْرٍ تَتَحَدَّثُ ؟

• لَا أَطْلُبُ تَفْسِيراً مِنْ بَائِعِ مُتَجَوِّلٍ، مَعَ احْتِرَامِي لِكُلِّ خَلْقِ اللَّهِ،
لَكِنْ مَا يَسْتَبْدُ فِي نَفْسِي مِنْ نَوَازِعِ مُقَارَبَةٍ أَمْرٍ مُحَدِّدٍ يَضْعُنِي بِمُوَاجَهَةِ
مَعَ الْآخَرِينَ، وَتَبْدُو مُوَاجَهَةَ عَنِيفَةً، سَوْفَ تَوْرَدُكَ مَوْرِدَ الْمَهَالِكِ .

• ” وَرَأْسُ أُمِّي ” لَمْ أَفْهَمْ عَلَيْكَ، أَهْوُ لَغْزَ أُمِّ أَنْ اسْتِيعَابِي لِلْأُمُورِ قَدْ

انخفض إلى الدرك الأسفل، يجب أن أخضّ رأسي وأرجّه لأُخرج
منه ما علق فيه من شوائب أغوص فيها حتى الركبتين .

ضحك بقوة المهستيريا التي انقضت عليه، حسبتُ أن الأنثى فيه هي من
قهقهت، أردف بأسلوبٍ تمثيليٍّ بارع :

• والله يا سيدي أنا بريء، لم أرتكب جُزماً ولا فعلاً شائئاً، طوال
عمري والطفلُ في داخلي مُصانٌ من التلوث بما تحويه مُستنقعات
البشر .

أضحكني فدنوتُ منه نضربُ كفاً بكفٍ ولأتابع المشهد معه، بصوتٍ
أجشّ :

• هل أتفاعل مع الحالة فقط دونما اهتمام بالأسباب ؟
• البحثُ في الأسباب يا سيدي لن يُقدّم ولن يُؤخّر، التفاصيلُ
مُرهِقَةٌ، والحديثُ عنها يُتعبُ القلب، لك أن تسأله هو فقط إن
رغبت .

رَمَقْتُهُ بقسوةٍ سُلْطَانِ، وبجبروتِ حاكمٍ ثم غبتُ للحظاتٍ لأصِفَ
شعري أمامَ مرآةِ الحَمَامِ و عُدْتُ ممسكاً بعصا خشبية أَلْقَيْتُ في زاويته،
لَوَحْتُ بها في وجهه، وانبريتُ أقولُ له :

• من هو ؟ قُلْ ولا تَخَف .

• القلبُ يا سيدي .

أجبتُهُ ببرودٍ نَزِقٍ، مُحاولاً أَنْ أفرَضَ سَطوتي عليه أكثر فأكثر :

- ليس ثمة ما يعنيه يا فتى، ولا أريد أن أسأله، أنا أسأل يم .
- حسناً، وأنا سأخبرك .

ربما منذ زمن بعيد لم أضحك كما ضحكْتُ الآن، نهضنا متوجهين إلى شقته، وفي الطريق لاحظتُ أنه يُعْزِنُ النظرَ ببعض المارّة أثناء وقوفه على شارات المرور، كما يَلوْحُ بيده لآخرين، أبدى اهتمامه بما انتبهتُ إليه فقال :

- عملي في الصحافة أكسبني معارف كثر وأصدقاء من مختلف الشرائح الاجتماعية، ناهيك عن المشاهير من داخل سورية وخارجها .

• عن طريق الشابكة ؟

- أجل، العمل في الصحافة الإلكترونية ممتع ومفيد، وقد زرتُ بلداناً عربية وأجنبية بحكم عملي الذي خرج عن الحدود الجغرافية لسورية، ليتَّسع أكثر في الخارج عما أمارسه هنا، خاصة في ظل الظروف التي تمر بها البلد .

- وكيف تدبَّرتُ أمرَك فيما يخص سكنك باللاذقية خاصة في ظل الظروف الصعبة السائدة ؟

- حين استشعرتُ الخطرَ حيثُ كنت مُقيماً، انتقلتُ إلى هنا، استطعتُ شراء الشقة بمعونة أخي المقيم في الخارج، وبعد فترة

وجيزة، أصبح الريف ساخناً، خطراً، من خلال الصور التي تُنشر في صفحات Facebook أكاد لا أعرفه، أمسى خراباً وكأنه لا يمتُّ إلى سورية بصلة، انتقالي إلى اللاذقية أثر نوعاً ما على عملي الذي كنت أزاوله في دمشق، لكنني استطعتُ مدَّ الجسور عبر الشبكة واستعدتُ الكثيرَ مما فقدته .

- هل تكتب في اختصاص معين بالصحافة ؟
- جُلَّ كتاباتي في الأدب وأغلب أنواع الفنون والآثار، كما أوليتُ الرياضة اهتمامي لفترة وجيزة، لكن أكثر ما جذبني ولا أستطيع التوقف عنه هو حواراتي مع أهل الفن والثقافة والسياسة، قبل أن أُجري أيَّ لقاءٍ أدرسُ الشخصيةَ وأتبعُ كلَّ ما كُتِبَ عنها وما صرَّحتُ به، أتابع أعمالها وما أنجزته خلال مسيرتها فضلاً عن معرفة أمورها الشخصية لأمتلك مفاتيح أكثر في حالِ تَعَمَّدتُ إثارتها مُبْطِنَةً أو ظاهرة ضمن ما أ طرح من أسئلة، لستُ غريباً في النهاية عن هكذا أجواء، ومن الطبيعي أنك تسلكُ دروباً أشدَّ صعوبة مني، فالعمل الإذاعي مُرهقٌ ويتطلَّبُ إبداعاً من نوع خاص، لذا طلبتُ منك أن أُجري معكَ حواراً كإعلامي مُحَنِّكٍ وذكي .

- يا سيدي لستُ أنا المحنِّك بل أنت .

عاودتُ الضحك، كأن نوبة أصابتنِي بغتة، لأفكَّ عَقْدَ الحزن الذي كان مُسيطرًا علي، وبصعوبة استطعتُ القول لِيَم وهو يشاركني الضحك

ما لفتَ أنظار من صادف مروره إلى جانبنا على الرصيف :

- لا أخفيك بأني لم أتشجع كثيراً حين طرحتَ عليَّ الفكرة، لكنك تُنْعني بنفسك أكثر فأكثر مع معرفتي بك باضطراد، سأوافق .. لا تقلق سأوافق على إجراء حوار معي .

قَبَلتني يم بعينه، أمسك كفي ليضغط عليها وقال :

- ” الله تحيَّي التواضع ” وأنت ؟ متى ستحتفي بي وتستضيفني في الإذاعة ؟
- في برنامجي القادم ..

تَوَقَّف لحظتئذ أمام بناء شاهق ودعاني لأثرَجَل من السيارة، وهو يتابع بالقول :

- بالله عليك .. أليس البرنامج الجديد هو ما تحضّر لإطلاقه بعد ستة أشهر كما قلت لك سابقاً ؟
- أجل، لكن كما قلتُ لك .. (رفعتُ سَبَّاتي جازماً) : بعد شهرٍ من الآن .

ولجنا الشقة ونحن نضحك على رهاننا بهذا الشأن، أحسستُ بالدفء والشاعرية في أركان البيت، نظافة مُلْفِتة، لمسات فنية واضحة في تنفيذ الديكور وتوزيع الأثاث واختياره، صور جمعت يم مع مشاهير كُثُر، وزَّعها بأناقة على جدارين متقابلين، لوحات فنية مستغرقة بالذكورة البوهيمية،

توسّطها لوحة لأنثى عارية منتصبه وعند قدمها خنجر ملوث بالدم،
استوقفتني لوحة أبقى على بياض قماشتها، أثارث فضولي، التفث لأرى يم
مُتَّجهاً نحوي، ابتسم وقد فاجئني حين قال : ” هذا أنا .. لا تستغرب ” .

لم تعد رفاهية المكان الواضحة تعينني، ما استهواني .. الأبيض، والأزرق
البحر .. ذاك الحبيب الذي لا يفارق النظر أُنَى التجهتَ في أرجاء البيت،
حين واجهته لم أعد مُهتَمّاً بما يحيطُ بي، باستثناء اللوحة التي أصرَّ يم على
تقديمها لي هدية .

وقفثُ أتأملُ سحرَ البحر وبهاء حضوره، اكتملَ المشهد بعزفٍ مُمتعٍ من
يم على البيانو، كانت سهرة في غاية الروعة .. في حضرة البحر .

obeikandi.com

تعرفتُ على ثلثة من أصدقاء يم، أغلبهم من أعضاء الشبكة، باتوا يطالبونني بتمديد إقامتي في اللاذقية، حدثتهم عن انشغالي بالتحضير لبرنامجي الجديد دون التعرض لموضوعه، وبالحلقات المتبقية مما أقدمه حالياً، كنتُ ألاحظُ على الدوام أنَّ يم يُسي شخصياً أخرى بوجود أصدقائه المُقرَّبين منه، تطفئ عليه الأنوثةُ بشكل صارخ خاصة حينما تكون صديقاته حاضرات معه، أكادُ لا أفرقُ بينهُ وبينهنَّ .

في السهرة الأخيرة التي جمعتني معهم قبيل سفري، جلسنا في حضرة الشعر والموسيقى الآسرة، أجواءٌ تُربِّحُ في الروح الطمأنينة وتغازلُ القلب فيرقُ بانهار، تألقتُ هبةُ الله بروحها الشاعرية ومدادها الذي صبغَ الأزرق بأبيضِ التشمي للغوصِ في عُنى مقاصدِ الروح، حين تُنبِتُ من الأخوان زهراً لوجهِ القمر، من حُرُوفِها تفوحُ رائحةُ النرجس لتنسربَ مصقولةً بهمسها حتى إيقاعِ الموج، بدتْ هبةُ الله أثناءَ إلقاءِ شِعْرِها سُلطانةَ الكلمة المعتقة بخمرِ العُنب، شِعْرِها المنسدل على حوافِ البحرِ يُغري النجومَ بالسطوعِ في ليلٍ عثقةٍ من كُحلِ عينيها، وتحريرُهُ من عُتابِ أنفِها الشاخر، ينالُ نوره من وميضِ شفها السفلى فيمتدُّ مُنافساً ضياءَ نجمِ القمر، كان وجهها مسكوناً بابتسامةٍ طفوليةٍ لم تهتدِ إلى محطة المغادرين، طيوفُ صورها وتهويماتها تزلزلُ مُنبَتَ الزيرفون البري الذي يَرُجُّ مراكزَ الإحساسِ فترتعشُ

فتنة الكلمات لتبدع فصلاً وحيداً لكونٍ مُتكاملٍ يكادُ أن يكونَ المخلوق الأُوحد لإله الشعر .

تقصّدتُ استفزازَ هبة الله بقولي لها بعدما ألقثُ بعض قصائدها، فقلتُ لها :

• أنتم معشر الشعراء مزاجيون، يُخشى الدنو منكم ..

تعالت الضحكات والتعليقات من الحاضرين في حين كانت هبة الله ترفع كمي قيصها الزهري في إشارة لاستعدادها للمواجهة، قالت والابتسامة على محياها تقطرُ شعراً مُندى :

• اسمع إذن ما كتبته لأصدقائي منذ فترة :

مزاجيتي ترهقني أحياناً .. لكن أحبها، لذا .. لا ترهقوني بعتابكم وترهقوها، دعوها في فضائي ولا تطردوها، سأتيكم في لحظةٍ ما .. طيفاً يحبُّ فضاء اتم .

علا التصفيق في إشارة لخسارتي أمام هبة الله، دنث مني تُقدّم كتاباً شعرياً من تأليفها، ضممتُ الكتاب وأنا أهمس لها : ” تُجيدين صنْع الشرارة الأولى ” .

ودّعُتها بابتسامة لها بريقٌ أدركُ ما يتبعه، استأذنتُ الحاضرين لأتجه نحو الشاليه، سأكون مع شعر هبة الله على إيقاع موج الأزرق في آخر ليلة

على شاطئه الهبي، أصرَّ يم على أن يوصلني بسيارته، رجوتُهُ ألا يغادر بيته بعدما أفرط في شرب الكحول، لم يُنصِّثْ لطلبي، جذبني من يدي نحوه، تاركاً أصدقاءه يُتابعون سهرتهم لنخرج معاً .

كان يقود سيارته حين سألني عن البرنامج الجديد الذي أنوي تقديمه، وحين علم بموضوعه، تلوَّن وجهه، ازدردَ ريقه، ترقَّبْتُ تعليقاً منه فلم يَنبَسْ بحرف، ازدادَ توتُّره، زاد من سرعته، طلبت منه أن يُخفِّفَ منها، وصلنا الشاليه بسرعة، تَرَجَّلْتُ من السيارة دون أن أدعوه للدخول معي، أصدقاؤه في بيته وليس من اللائق تركهم ينتظرونه وقتاً طويلاً، هذا ما حسبتُه، لكن يم كانت له حسابات أخرى، تَرَجَّلَ من السيارة ودخل معي الشاليه .

لم يضطرنني لأن أطرح أي سؤال، طلب مني أن أسمح له بالتحدُّثِ في أمر يخصه، وحين استجبتُ، كانت المفاجأة الكبرى . . هألني ما تفوَّه به ..

يم يعشقني مُذ كان يعمل في دمشق، ولأجل هذا جمع المعلومات عني، لم يكن الحوار الصحفي إلا مَدخلاً لما يريد الوصول إليه لكي يرتاح، وهو مَنْ كَانَ وراء تكليفي بإجراء تَغْطِيَة شاملة عن نشاطاتِ الشبكة، حَدَّثَنِي أنه يعاني منذ أشهر من مرضِ ألمِّ به وهو الحب، ولا يريد لمعاناته أن تستمر أكثر من ذلك .

في رأسي أزيُّ وعَضْفٌ وثورةُ أفكار، في كياني رعدةٌ تشيِّرُ براكينَ غضب .

• هل تدرك ما تقول أم أن الكحول قد نال منك ؟ .

استرخى يم على الأريكة، أصابعه تحتضن لفافة تبغ، ابتسم بسخرية وهو يرنو إليها ..

- بُحْتُ لك بما في روحي .. ولا ألومك على أي رد فعل سلبي .
- وهل تتوقع مني أن أكون إيجابياً ؟
- نَجَّ عقب السيارة، احتفظ بالدخان في صدره ثم أجاب والدخان المتصاعد يلبس الحروف قتامة باردة :
- لا أدري، لا أريد أن أفكر بشيء الآن، يكفي أني استطعت البوح، أعوّل على إنسانيتك، وإحساسي .
- ليس شرطاً أن أقبّل طرحك حتى لو كنت إنسانياً، إحساسك يَحْضُك وحدك ولم تَصِلْك مني إشاراتٍ تُعزّزه، فكيف تُخاطِرُ بما لست مالِكُهُ أو واثقاً منه ؟ !! .
- استقام يم في جلسته بعد تراخ، وهو يقول :
- معرفتك بي حديثه العهد، ربما أنا مخطئٌ في كَشْفِي لهذا الأمر الآن، أعتذرُ إن كنتُ قد أزعجتك، هل تسمح لي بالانصراف ؟ .
- لا أصدِّقُ ما أسمعُه منك .
- اسمح لي بالانصراف أرجوك، أكاد أن أتلاشى أمامك، كم أنا قبيحٌ وسيء، خاطرتُ بك بدلاً من أن أحرصَ عليك، ربما كانت

الصدّاقة أكثر صوناً ما بُحْتُ به، لا .. لا ، سنكون كما أتمنى بالفعل،
ليتني احتفظتُ بك صديقاً، و ” راس أختي ” لو تطلب مني الآن
إعادة ما قلته فلن أتمكن من ذلك .

دمعتُ عيناه، انكمش، تكوّر كجنين يضمُّ جسدهُ بجناحيّ روحه، أكاد
أجزم أن ما تفوّه به لم يكن تحت تأثير الخمر، لكنه استغلَّ حالته ليبوح
بما يريد، قلتُ له :

• اسمعني أرجوك، لا أعارض ما بُحْتُ به كحالة إنسانية، وأنت حرٌّ
فيما تهوى، لكن ...

انتفض يم ليعدّل جلسته وقد برقتُ عيناه، وانبرى يقول :

• لكن ماذا؟ قل أرجوك، أرخ قلبي، لن أطلبك بشيء، وقد أودعتُ
سرّي في راحتك، أرخني وأزح الستارة عما تخفيه .
• لن أستطيع أن أكون معك .

لحظتُئذ .. انهزم يم، استرخى على الأريكة، بدا وديعاً كالأطفال، طيباً
كغيمة، هادئاً كالبحر، همس قائلاً :

• يكفي أن تُقدّر حبي لك .

• يم افهمني، ما قلتهُ خرج عن نطاق الحرية الشخصية بمجرد نُطقك
به، هو الآن لا يعينك بمفردك، لن أقف ضدك فيما يخصك، لكن
لا تزجني معك فيما لا يعينني، الأمر كما يبدو لي ليس بيدك، ومن

الواضح أن لك معارك طاحنة هنا، ولستُ بصدد الخوض معك فيها .

انهمر الدمعُ غزيرًا من عينيِّ يم، مَسْحُهُ يظهر كِفَّهُ، نهض مُتثاقلاً، ترنَّح في مشيته ليقف أمام النافذة، بدا وكأنه يستحضر الكلام من غيابة نفسه، أراد أن يشطر سِرَّهُ نصفين، في عُتْقِ البحر، وفي روعي :

• جهدتُ لأكون كما يُفترضُ بي أن أكون، كانت الطبيعة دائماً تُعيدني حيث يجب أن أكون، طالثُ معاناتي، واستهلكتُ عذاباتي حتى انطفأتُ، وأن لي أن أرتاح، أن لي أن أكون ذاتي التي ما اختارثُ كيف تكون، وما تهوى، لكنها استطاعت أن تصون اللون، وتحفظ أمام الكون حقيقتها، أمَّا وقد اعترها الآن ما يجعلها تُنهي الغموض فليس هذا من شأن أحد .

صمت لبرهة .. ثم ما لبث أن دقَّ إسفينًا في جدار الصمت :

• على كل حال .. سأتركك الآن، أنا تعبت ولا أريد أن أنقل إليك طاقتي السلبية .

• أو تعود مجددًا لذكر الطاقة أمامي ؟

ابتسمتُ لأخفِّف من توتره

• لا بأس عليّ، لا أريد لك الضرر، يجب أن تدَّخر طاقة إيجابية من البحر قبل سفرك .

رنوتُ صوبَ البحرِ وعانقته بعيني، حدّثته بأنَّ مَنْ شابههُ الآنَ ظَلَمَ،
بعدهما هتَكَ السِّرَّ - الطَّعْمِ لِأَكُونِ صَيِّدًا لَهُ، قلتُ :

- البحرُ أنا ..
- لكنك لا تعرف الغدر .
- لا علاقة لموجه بما ينسبه البشر إليه .
- إذن .. سأتركك مع نفسك وأغادر الآن، لكن عِدني أن تفكّر
بالأمر بشكل جدّي .
- زاغثُ عينايم، بدا مُتثاقلاً غير قادر على التوازن، خشيتُ أن يتعرَّضَ
لأذى خاصة بعد حديثنا هذا وبكائه المفرط، قلتُ له بحزم :
- لن تخرج، ستبقى هنا، وفي الصباح تعود إلى شقتك بعدما توصلني
إلى محطة السفر، اتصل بأصدقائك وأخبرهم .
- لا أريد أن أزججك بوجودي .
- ضغطت بقوة على صدغيه بباطن كفيه .. أردف قائلاً :
- رأسي يؤلمني ولا أريد أن أبقى هنا .
- رنا نحوي بحنان مفرط، عاود البكاء من جديد وهو يقول :
- قيصر .. ” و راس أُمي ” أنا أحبك، فكّر بالأمر جيّدًا أرجوك .

• يم .. الحب لا يحتمل التفكير، إما أن تنصاع لأمره، أو تتجنّب الخوض فيه لعدم قبولك به أو قبوله بك، الحب كالقسيده، إما أن تقبلها بأكملها أو ترفضها بتمامها .

لاحث صورة هبة بابتسامتها البحرية، في حين كان يم يهمس بما لا جدوى منه :

• الله عليك ما أبهى كلامك .

• يم .. لا يمكن أن أجنّبك الوقوع في الحب، لكن يمكنني زجرك عن التبادي فيه، أدرك أن هذا شأن خاص بك، لكن بالمقابل لا أريد أن تُظلم، لن أتلاعب بعواطفك تجاهي، لذا سأكون واضحًا وصريحًا .. لن أستطيع أن أكون معك .

• سنكون صديقين؟

• وهل تستطيع؟

• هذا أمر صعب أليس كذلك؟ سأحاول، سأحاول أعذك بذلك

ران صمت بيننا لحظة أوغل يم في تصوّراتٍ أخذته بعيدًا .. ثم أردف قائلاً :

• سيقى حبي موجودًا، لكن لن أكون مُغفلاً لكي أوهم نفسي بأنه سيأتي يوم وتبادلني الحب .

• هل تَعَدني بذلك ؟

• لن أزعجك، صدّقي، سأبرهنُ لك أن المحب لا يمكن له أن يدرك الكره أو الإزعاج أو الإكراه أو الكذب .

• أمل ذلك .

• وهذا ما سيكون .. أعدك .

• إن التزمت بما قلته الآن .. أرى أننا يمكن أن نكون صديقين .

دمعت عينايم .. ثم استرخي ونام كطفل رضيع .

رنوثٌ إلى البحر، بدا لي شهنائي الموج، لِمَا يَضجُ في أعماقه ويفور، الأفق مُقفلٌ بجدرانٍ لا بساء، ترتسمُ إشاراتٍ مُهممةٌ كأنها رموزٌ تهتكُ الستر، تَعكّرُ سطحه وكأنه على وشك التقيؤ لسرِّ قُدْفٍ إلى أعماقه عنوة، لامستُ صَدَفَ الشاطئ بعدما هبطتُ من الشرفة، كأنَّ الصدفَ يتحركُ ليرسم جسدي المسترخي فوقه حدوداً تُحصنُ انزلاقي في بُقَع الزيت المترامية تحت ضياء القمر، أين نورس البحر .. أتراه يرسم وجه هبة الله المبتسم الآن ؟ .

رأسي المتموج يهجنسُ باللوحة البوهيمية المعلقة في شقة يم هذا اليم .. مَنْ يكون ؟ سألتُ البحرَ فلم يُجرِ جواباً، أياكون مجهول الموج ؟ !! .

من الواضح أنّ روحه تُعشقُ المتناقضات، يجب أن أعلم من يم ما لم

أستطع معرفته عن المثليين، فهو عالم مجهول بالنسبة لي، ولا بد من تحضير المعلومات اللازمة لبرنامجي الجديد .

أشرقَت الشمسُ والنَّدى لبوسي، لم أتم، أمضيتُ الوقت مع عالم هبة الله الذي أسرني، اتجهتُ أعدُّ القهوة وأوقظ يم لنسائم الشاليه ونتجه إلى محطة السفر .

• هل تستطيع مساعدتي ؟

رشفَ يم من فنجان القهوة، أطرق هنيهة، ثم نهض ليقف أمام النافذة المطلة على البحر، أحسستُ به يعضُّ بدمعة تُكابرُ السقوط، أجاب بحزن

• سأكون طوع أمرك، لن أدخر جهداً لتحقيق ما تصبو إليه من خلال برنامجك الجديد، لن أدعَكَ تقتحم هذا العالم، سأكشفه لك وأرشدك، آسف على كلمة أرشدك، لم أقصدها بمعناها الحرفي .

• لا عليك، معك حق، يجب أن تُرشدني فأنا أجهل هذا العالم جهلاً تاماً، لغاية اللحظة أتساءل: كيف تحقِّق لي أن التقيتُ بك في هذا الوقت بالذات، طوال عمري أسمع عن هذا العالم لكن لم ألتقِ بأحد أفراده .

• لا . هم كُنُّ من حولك، لكنك لم تكثرث لوجودهم يوماً، شهوتك ليست هنا فكيف ستلاحظهم ؟ باستثناء من أفصح عن مثليته لمن هم حوله .

- وأنت ؟
- لم أجرؤ على الإفصاح بمثلتي .
- يم .. هل ستكشف عنها في يوم ما ؟
- مستحيل .
- لماذا ؟
- سأخسر كل من حولي .
- أو تظن أن من هم حولك .. لا يعلمون ؟
- لم أكشف الستارة عن شهوتي، كنت حريصاً دائماً على السرية المطلقة فيما أنا عليه، أنت تعلم حال مجتمعنا .
- ضحك يم بسخرية مَرَّة، ثم أردف قائلاً :
- هل ترى هذا المجتمع الراض لنا في العلن ؟ إنه غارق فيما نغرق فيه بالسر، أقول لك إنهم كثر، كنا ظاهرة يا رجل، الآن غدونا جزءاً كبيراً ضمن مجتمعنا نستطيع فرض ما نريد، إن اتحدنا وأعلينا الصوت وطلبنا بأحقية وجودنا في العلن، العالم تطور ونحن مازلنا نثرثر دونما فائدة .
- لن يعترف المجتمع الشرقيُ بفئةٍ منبوذةٍ منذ الأبد .
- صحيح لن يعترف، وما يزيد الأمر سوءاً أنَّ مجتمع المثليين أنفسهم

يجاربون بعضهم البعض، ولا يترددون في إيذاء أنفسهم وغيرهم،
ألم تسمع براقص الباليه الذي وُجِدَ في شقته مقتولاً ؟

- أجل، سمعت وعرفت أن عشيقه هو مَنْ قتله .
- لا أريدك أن تنخرط في أجوائهم، حتى لو تعرّفت على شخص منهم، فلتبق بعيداً عنه .
- إذن .. سأعتمد عليك .
- لا تقلق، العالم قرية صغيرة، فما بالك بفئة مسحوقة ضمن هذا المجتمع، اسألني عن كل ما تريده من معلومات أو أشخاص ضمن هذه الفئة، وإن لم أكن أعرفهم سألتُ عنهم من لديه الخبر اليقين، هناك موسوعات مُتَنَقِّلة، وال CV حاضر، سأهيئ لك ملفاً كاملاً عن الموضوع .
- يا إلهي .. لهذا الحد أموركم معروفة فيما بينكم ؟
- ليس لهذه الدرجة، لكن ليس صعباً أن أعلمك بما تريد معرفته .
- ما الذي يجب أن أقوم به الآن ؟
- ادخل إلى المواقع الإلكترونية الخاصة بنا، تعرّف عن بعد، لا تلتقي بأحدٍ منهم، تواصل فقط عن طريق الشبكة، وفي مرحلة لاحقة سأعرّفك بمن يمكنه أن يفيدك أيضاً .. لا عليك .
- يم .. حدّثني عن طفولتك، عن ولادة هذا المييل لديك، عن

تجربتك الأولى .

بانث على وجهه كآبة حاصرته فانداحت أغنية المارة العميقة في نفسه، قال :

• أمضيتُ سنِيَّ عمري بعزلةٍ إرادية، كانت غرفتي مُدُ كنتُ طفلاً صغيراً، كهفاً رخوًا رطبًا تسكنهُ ظلالُ أجسادٍ نجرية، استسلمتُ لرائحةِ عطر أول جسدٍ رجولي انقضَّ على ما كنتُ أتفنَّنُ في صنُعه من رؤىٍ وخيالات، عزَّزَ ما برعتُ فيه من خَلْقِ صور، فارضاً واقعَ الدمع والدم، في غرفتي المعزولة كانت الفتنة والغواية ” ألف باء اللعبة ” هكذا اكتشفتها، كانت لحظات عاصفة قلبتُ كياني رأساً على عقب، بطلها خيالي الجامح الذي التقى بصديقٍ افتراضي فأغواه، ومع الأيام كانت الآهات كالأنثام تحفرُ جدارَ الغرفة المُطلَّة على الشارع، لأمضي قسطاً من الليل برفقةِ جسدٍ فاتنٍ رأيته نهاراً فأستسلم لفحولته وأنكبُّ على وجهي فوق السرير وأجتزُّ التآوهات ...

• بعيداً عن الخيال .. متى كان الفعل الأول ؟

• قبل الفعل الأول، لديّ ما أثّر في نفسي، أودُّ أن أقصّه عليك، كنتُ أزور صديقاً لي في دمشق بشكلٍ دائم، وقد دُعيتُ إلى حفل عيد ميلاده الذي حضره العديد من أصدقائه ومعارف أهله، هناك .. انتبذتُ ركنًا قصيًّا وبدأتُ باختيار الأغاني التي يرقصون ويهللون على أنغامها، لم أكن مُلتفتًا لأحدٍ من الحضور، لكن أحدهم انتبه

لوجودي، لمحتة يطيل النظر إليّ، وبعد قليل دنا مني وهمس في أذني طالباً أغنية جوليا بطرس ” حبيبي ” استجبت لطلبه، فعاد إليّ بعد لحظات من بدء الأغنية ليطلب مني أن أشاركه الرقص، كانت عيناه تفيضان ولها ورغبة، اعتذرتُ منه، رجع إلى مكانٍ اختاره ليكون بمواجهتي، كان قاصداً أن يلفت نظري إليه، وبعد قليل أوماً لي بغمزة من عينه، وابتسامة رقيقة، كان الشابٌ جميلاً بالفعل، ما فاجئني بعد الحفل أنّ مدام عزة، والدة صديقي، تطرح موضوعه على مسمعي، ذكرتُ أنه كان مرتبطاً بشاب خانهُ فقَرَّرَ تركه بعد مشاجرات وقعتُ بين الاثنين، تَقَصَّدْتُ عدم فهم ما ترمي إليه، فسألته ما يعني أن يرتبط شابٌ بشابٍ آخر، وهنا أفاضتُ بما أربكني وأراحني، حَدَّثتني أنّ الأمرَ طبيعيٌّ ولا يَدُ للإنسانِ فيه فهو ميلٌ فطريٌّ، والإنسان ليس مُضطرباً لخوض معركةٍ مَعَ غريزته الطبيعية، بل يجب أن يكون مُتصالحاً مع نفسه ويحقق لها ما يريحها دوماً تعقيد، انتهت زيارتي لهم سريعاً بعدها لأعود إلى بيتي الريفي وغرفتي المنعزلة، لأفكرَ فيما قالته مدام عزة، كنتُ أعرفُ أنها مُتَحَصِّرةٌ ومُتَسامِحةٌ ومُنْفِتحةٌ بتفكيرها، لكن ليس في أمر كهذا، سرعان ما تذكَّرتُ سامر، وكان بطل تلك الليلة، وفي زيارةٍ أخرى لبيت صديقي كان سامر حاضراً أيضاً، في تلك الليلة، فاجأني خروج مدام عزة المبالغت من البيت، بعدما همس في أذنها بضع كلمات، فابتسمتُ له وغادرتُ مُمسكةً بيد طفلها الذي كنتُ ألاعبه طوال الوقت، كان صديقي غائباً، ولم يكن في الأمر ثمة غرابة، فالعائلة تعرفني جيداً، ولم يكن هناك

ما يحول دون زيارتي لهم في أي وقت أشاء، ما إن خرجت مدام عزّة حتى دنا سامر مني، جلس إلى جانبي يحدّثني برقة ولم يخف عني إعجابيه بي، اضطربت، كاد قلبي أن يترك قفصه ليصرف عاليًا، لم يبادر بأكثر من ذلك، همّ بالخروج حين عادت مدام عزّة بعد أن همس في أذنها بضع كلمات، ودّعته واتجهت صوبي لتقول لي :
” سامر يريد الارتباط بك فما قولك ؟ ” .

• تصبّب العرق مني، خشيتُ أن يكون في الأمر خديعة، القصد منها كشف أمري، وحين قرأت ما يدور في خلدي، بادرتُ بالقول ” لا تقلق، لن يدري أحد بالأمر، أنت تعرف وجهة نظري بالموضوع، لكن لست مضطّرة لأن أكشف كل قناعاتي أمام الجميع ” .

• قلتُ لها وقد خفّ اضطرابي وهدأت نفسي : هل تقبلين لو جاء سامر ليطلب منك أن يرتبط بابنك حسام، صديقي ؟ أجابتنني حينئذ بأنها لم تعارض ابنها في ميوله يومًا، وإن كان هذا واقعه فلن تقفّ ضده، والأمر بيدي إما أن أقبل أو أرفض، كانت ابنتها لميس حاضرة، فقالت لي بانشرح :

• ” آآخ لو كنت مكانك وأعجب بي سامر، ما حالك يم !!؟ هذا سامر .. سااامر ” .

• استأنفتُ مدام عزّة الكلام وقالت لي : لا أريد أن أنغص عليك صفاء نفسك، انظر في الأمر وفكّر جيدًا، ليس في الأمر ثمة

تعقيد، وثق بأنَّ عَزَضَ سامر للأمر لم يأت من فراغ، لو لم يشعر بأن في داخلك ما يماثله لما تجرَّأ على مصارحتنا برغبته .

• لم يبقَ أمامي حينئذ إلا أن أجيب وأحدِّد موقفي، طلبتُ منهما أن يتركا لي فسحةً لأفكر في الأمر، عدتُ سريعاً إلى بيتي، حيث مرتع الخيال وانفلات الرؤى، قمتُ بسدِّ الفُرجة التي كنتُ أحدثتها في الجدار، وانكفأتُ أفكرُ بسامر .

• في اليوم التالي، اتصلتُ بي مدام عَزَّة لتخبرني بأنَّ سامر سيحضر مساءً ليسمع جوابي، حين رأيته، كان أشبه بعريس في ليلة زفافه، أعاد على مسمعي ما هو راغبٌ به تجاهي، فانبريتُ دونما نخجلٍ لأؤكد له استعدادي أن أكون معه بشرط، ألا أكتشف كذباً منه أو عبثاً، وعدني، ومضينا لأيامٍ نخرج سوياً، اهتمَّ بي وبكل تفصيلٍ يعنيني، ولم أشأ مرةً أن أسأله عمن كان مُرتبطاً به سابقاً، وبعد مرور عدة أيام، اعتذر عن لقائي به لانشغاله مع عائلته، فخرجتُ بعد عملي لأمضي قليلاً من الوقت ريثما يحين موعد انطلاق الحافلة المتجهة صوب قريتي الصغيرة، وحين مررتُ في زقاقٍ ضيقٍ يبعدُ عن بيت صديقي مسافةً خديعة، رأيته في سيارته وقد جلس إلى جانبه شاب لا أعرفه، اتصلتُ به على الفور، ردَّ بصوت خفيض مُرتبك، سألته أين هو، أجابني بأنه في السرير يشكو من صداعٍ ممض، قلت له : لا .. أنت بسيارتك وإلى جانبك شاب، انظرُ إلى يسارك سامر ستراني، وحين التفتُ إليَّ ورآني، لوَحَّت له مُودَعاً ومضيت، اتصل بي مراراً ولم أرد، وفي اليوم التالي اتصلتُ

مدام عَزَّة، لتخبرني أن سامر يريد رؤيتي ويجب أن أحضر على الفور، ذهبْتُ، حاول تبرير موقفه بأن الشاب الذي كان معه هو ارتباطه السابق وكان مُتَشَاوِجًا مع من ارتبط به مؤخرًا وأراد أن يساعده في حل المشكلة بينهما، ضحكْتُ بسخرية، طلبْتُ منه أن ينسى ما كان بيننا، وبأني لست صغيراً أو ساذجاً لأصِدِّقُ حكايته، حاولت مدام عَزَّة أن أمنحهُ فُرْصَةً أُخْرَى ولا أُخْرِبَ الأمر من بدايته، اعتذرتُ منها، ومضيت .

استوقفتُ يم عن إتمام حكايته، رنوتُ إلى ساعتِي، اكتشفتُ أن لا مجال أمامي سوى تسع دقائق وإلا فاتتني الحافلة، فَرَّيم من جلسته كالملدوغ وخرجنا مسرعين .

أثناء قيادته قال لي وهو يُعْنُ النظرُ في السيارات أمامه ليجدَ مَحْرَجاً لسيارته من بينها ونتخلص من بطئها :

• هل أخبرتكَ ليلة أمس أن أدونيس كان حبيبي السابق .

بُهتُ .. وقلْتُ :

• لا لم تقل لي ذلك .. أحقاً تقول ؟ لا يظهر عليه ذلك أبداً، إنه مختلف عنك .

استدركتُ ما أخطأتُ بقوله :

• آسف يم، إنه مختلفُ عنك تماماً، ربما لو لم تصارحني بأمرك

لاكتشفتُ ذلكَ بنفسِي، لكن أدونيس لا يظهر عليه أبداً أنه مثلي .

- معك حق، لستُ ضدكُ فيما تقول، أعلمُ أني شابٌ ناعم .
- عذراً منك، ولكن ألم يضعك هذا في دائرة الشك ؟ .
- هذا أنا يا قيصر، حاولتُ، لكن لم أنجحُ في كَبْحِ ما اعتدتُ أن أكون عليه، هذا تكويني، لاشك أني تأثرتُ مُدُ كنت صغيراً بصحبتِي للفتيات وبوجودهن حولي دائماً، افتقدتُ وجودَ الرجلِ في مراحل كثيرة من عمري، حتى في المدرسة لم يكن لدي أصدقاء، كنت أمضي الوقت كيفما اتفق، وهذا كله أثّر في تكويني الداخلي
- أدرك ما تقول، أخبرني الآن .. ما قصَّتُك مع أدونيس وكيف انتهيتما ؟
- سأخبرك بكل شيء، لكن ليس الآن، حاذِرْ يا قيصر، كل ما أخبرك به عن أصدقاء مثليين، يظلُّ سراً بيننا .
- هذا بديهي .. لا تقلق .
- يبقى أن أقول لك قبل سفرك ما يوضح وجهة نظري فيما اعتبره خاصاً ببرنامجك .
- تفضل ..
- الواقع يؤكّد أنه ليس بمقدور أحد إنكار وجودنا، إن كان محدوداً

ومقيداً أم مُنفلتاً وحرّاً، تماماً كما اللباس المطايطي الذي يرتديه من يريد الغوص في أعماق البحار، لكن العبرة في تناول الموضوع إن كان يتم في السر أم في العلن، ألا يرتدي البعض منا " الستريتش " ليأخذ الجسد حدوده الطبيعية ؟

• المشكلة يا صديقي تكمن في طريقة تعاطي المجتمع مع كل ما يتصل بشؤون أفراده، قل لي بالله عليك لماذا يتمنع المجتمع عن النظر في أمراضه ؟ ألم يحن الوقت بعد لمواجهة كل ما من شأنه أن يوسّع الجراح ويعمّق وجودها ؟ ما الذي يمنع من إظهار أمراضه السرطانية على السطح والشروع في معالجتها بدلاً من تركها تنتشر بصورة مُفجعة ؟ ما دامت تنسلّ في الخفاء، لماذا لا نواجهها في العلن ونجد طرق الحد من تضخّمها وما يثار حولها ؟ تلك الأسئلة وغيرها ربما تثيرها أنت في برنامجك ولكن السؤال الكبير : هل ستجد إجابة عليها وتفاعلاً مع ما سوف تطرحه ؟

• سأحاول صديقي .. قدر المستطاع، أشكرك يم، يبدو أننا وصلنا إلى المحطة ويجب أن أتوجه فوراً إلى الحافلة ..

obeikandi.com

(٨)

ولجئتُ إلى العالم الافتراضي، لأبدأ الإعداد لبرنامجي الجديد .
صدمةٌ كبيرة تلقَّيْتُها .. لم أصدِّق ما رأيته وقرأته على موقع تواصل
للمثليين، أشار عليَّ يم بضرورة زيارته .

تنوعٌ صارخٌ يكاد أن يسبِّب الهُوس والجنون لمن يراقب عن بُعد .
أُيعقل أن أُلج هذا العالم؟! ..

أمراضٌ مُتفشية، عباراتٌ فاضحة، صورٌ لأجسادٍ عاريةٍ يعرضها أصحابها
وكانهم في سوق نخاسة، شذوذٌ حقيقي عند البعض، وأحلامٌ ورديةٌ عند
البعض الآخر، منهم من يدرك ما يريد ومنهم الماجن العابث الشهواني،
فيهم الصغير ومنهم الكبير، منذ متى وهؤلاء هنا؟! كيف حدث وأمسى
المجتمع بأسره هنا؟!!

صدِّق يم فيما قاله لي، يبدو أنَّ الغائب عن مصيدة المثليين حاضرٌ هنا
بشكل افتراضي .

ولكنَّ .. لمن يتبع هذا الموقع؟ كيف يُسلم رواده بأنَّ مَنْ أنشأه لا غاية

له سوى حشرهم هنا بغاية التعارف وإقامة العلاقات فيما بينهم ؟ على ما يبدو ليس هذا الموقع الوحيد للمتلين، ربما باتت مواقعهم أكثر من أن تُعدَّ وتُحصى، كنتُ أعلم سابقاً أن هذه المواقع محظورة هنا، لكن يبدو أن الراغبين بولوجها أصرّوا على إيجاد الحلول لرفع الحظر عنها، ومن ثم تُركَ الحبلُ على الغارب وأُتيحت لتكون مُتنفّساً لهؤلاء اللاهثين لإطفاء شهواتهم .

جلُتُ بين صفحات المشتركين لأطلع على محتوياتها، منهم من كشف شخصيته ونشر صورته دونما وجل، ومنهم من تخفّى مُكتفياً بإبراز أجزاءٍ من جسده أراد التركيز عليها لإغواء زائرِي الموقع .

تعزيةٌ لكلِّ كَبَتٍ بين أفراد هذا المجتمع، فَضُحْ وكَشْفٌ لكلِّ ما يَجْهَدُونَ في إخْفائِهِ ضمن الحياة الواقعية، بقدر ما هو عالمٌ افتراضيّ .. يبدو أنه أشد واقعية ما نراه بأَمِّ العين على خشبة مسرح الحياة !! .

استوقفتني بعض الصفحات لرؤاٍ أعضاء كتبوا في صفحاتهم عباراتٍ يندى لها الجبين خجلاً واستنكاراً من الدونية والانحطاط الأخلاقي، وعباراتٍ أخرى مُنمّقة مُنتقاة بعناية و بوَدِّ ظاهر، أترام صادقون فيما كتبوا أم أنهم عابثون أرادوا الوصول لغاياتهم فقط ؟ .

أحدهم سجّل جملةً أثارث فضولي : ” الجميع هنا على قيد الحياة، ولكن منْ منهم على قيد الإنسانية ؟ ” وآخر كتب : ” لا تَبْغ من باعك، قدِّمه هدية لغيرك، أو اكتب عليه : بضاعة مستعملة ” وآخر دَوَّن على صفحته

: ” الحب كذبة اخترعها روميو لكي جوليت ” .

طفئ أكثر فأكثر في حسابات المشتركين، مُعِناً في مقاصدهم، منهم من تسبَّب لي بالنفور، ومنهم من صاغ عباراته بدقة عالية، لكن لا يمكن تقدير مدى الصدق في الكلمات، يبدو أن الكلمات هنا لها ميزانها الخاص، أحدهم كتب : ” جَدلي في الحياة أن أحبك وأكرهك، لا أستطيع ترجيح أحدهما أو إلغاه .. أنت قدرتي ” .

وآخر استفاض فيما تركه لرواد الموقع فكتب : ” ويبقى الأمل، يكفي أن تكون إنساناً بالفطرة، ليس لدي حب للأزمات كما لا أمتلك موهبة الخداع والتسلية، من بعد تجاربي أقول : إن سوء الفهم يمكن أن يقع بيننا لاختلاف طريقة التفكير أو القناعات والأمزجة، يجب أن نتقبَّل بعضنا بعضاً، فلكلِّ سلبيات، وهذه طبيعة البشر، أمل آلا أزعج أحداً أو يتسبَّب لي الآخرون بمرح، أميل إلى الرومانسية وأرغب أن ألتقي بمن يشبهني من الداخل، ولو بشكل نسبي ” .

رَبَّتُ صفحتي كما أريد، كتبتُ معلوماتٍ مُقتَضِبة عن شخصية وهمية لأتواصل من خلالها مع رواد الموقع الذي يجمع مثلي العالم فيه، وما إن حَدَّدتُ المدينة التي أقيم فيها، واستكملتُ المعلومات المطلوبة لبناء صفحتي الخاصة حتى بدأت الرسائل تنهال عليّ كما حجارة سجّيل، ما السبب في ذلك يا ترى ؟ أهي الصورة التي اخترتها من الشبكة ؟ أم البيانات التي حَدَّدتها ؟ أم أن الأمر لا يعدو عن هَوَسٍ بقادمٍ جديد لا أكثر؟!؟

بدأت بقراءة ما وَرَدني من رسائل على الفور، منهم من كان قريباً فعاجل بطلبِ صوري لتتفق لاحقاً على لقاء، ومنهم من كان في بلدٍ آخر فكانت رسالته دعوة للتواصل على برامج المحادثة التي تمكنُ المرءَ من رؤية الآخر وسماع صوته حتى لو كان في أقصى نقطة من العالم .

سأحدثُ يم لأروي له ما يجري .

ضحك بقوة .. وقال :

- ما الذي كنتَ تظنُّه ؟ ألم أقل لك إن هذا المجتمع واسع وعريض وربما تكتشف وجود أشخاص تعرفهم على أرض الواقع، حاذر أن ترسل إلى أحدهم صورتك فتفصح .
- ماذا تقول ؟!! وهل أنا جاد في دخولي إلى الموقع حتى أرسل صوراً لي ؟!! .
- حسناً . اكتشف بنفسك أسرارَ هذا العالم، ربما تجد أحداً ممن يحيطون بك في حياتك العامة، لكن لا يجروُ على الإفصاح عن رغباته وميوله وما يودُّ الحصول عليه لإشباعها .
- أمل ألا أعتز على أحدٍ أعرفه، لكن قل لي .. ماذا أفعل بشأن الرسائل التي تردني تباعاً ؟
- رُدْ على أصحابها واكذب فيما ترسله من معلومات عنك، هو عالمٌ مُتخَمٌ بالكذبِ والخداعِ والغش، للأسف نحن من جعل هذا

- الافتراضي يطفح بكل ما هو سيء وكرهه .
- خطر لي أن يكون لدى يم هدفاً آخر لقاء مساعدته لي، قلت له :
- وما الذي سأستفيد منه؟ يم .. لا أرى فائدة من استمرار دخولي إلى هذا الموقع، كما لا أريد أن أتلاعب بأحد .
- إنْ أُعْجِبَكَ أَحَدُهُمْ تَعَرَّفْ إِلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَعْجِبْكَ ..
- ما الذي تتفوه به يم؟! على أي أساس سوف يعجبني أحدهم؟ على كل حال، نتحدّث في الأمر لاحقاً، شكراً لك .
- لحظة من فضلك .. ألا تريد أن تحضر إحدى الحفلات التي يقيمها المثليون في دمشق؟
- وهل يقيمون حفلات خاصة بهم؟
- أجل يا صديقي، هذا من ضمن ما اعتادوا عليه، كما أن لهم أماكنهم الخاصة التي يرتادونها، ألا ترغب بزيارتها لترى عالمهم عن قُرب؟
- سأفكّر في الأمر، يجب أن أطلّع على تفاصيلهم كاملة، لكن كيف سأفعل ذلك؟ إنْ حضرت في أماكن تواجدهم عرّضتُ نفسي لما لا يُحمّد عُقباه .
- لا تقلق، سأجعلك تتنكّر، وسوف أساعدك في تغيير شكلك ولن يتعرّف عليك أحد .

فكرتُ لبرهة فيما يقوله لي يم .. ران صمت بيننا للحظات، حَسِبَ يم أن الاتصال بيننا قد قُطِع ..

- ألو .. قيصر .
- أنا معك .. كنتُ أفكر لا أكثر .
- بماذا تفكر ؟
- يمكنني حضور إحدى حفلاتهم، أرى أن زيارتي لأماكنهم غير ضرورية، التنكُّر سهل في الأولى، لكن لستُ مُضْطَّرًا لزيارة الأماكن الأخرى لهم .. ما رأيك ؟
- سوف أسأل بعض الأصحاب عن حفلٍ قادمٍ لهم وسنكون هناك معاً، ربما الأحداث التي تشهدها البلد تمنعهم حالياً من إحياء أي حفل، فإن كان الأمر كذلك حَدَّثْتُكَ حين أجمع بك عن الحفلات التي سبق لي أن حضرتها، لكن حينئذ يجب أن تزور الأماكن الأخرى حيث يجتمعون .
- اتفقنا .
- بالمناسبة، هبة الله تهديك التحية، أراها مُهْتَمَّة بك ..
- اشكرها بالنيابة عني، لا لا .. ما رقم هاتفها لأشكرها بنفسي ؟ .

في صبيحة اليوم التالي، حادثتني ألما و دعتني للقائها في كافيتريا قريبة من مكان عملي، التحقتُ بها، وحينما رأتهي أمامها هللتُ بي، ضمتني إلى صدرها وقبّلتني .

تحدّثنا في أمور كثيرة، أحسستُ أنّ روعي مُنطلقةً في فضاءٍ لا محدود من التفاؤل والحب وقد انتثرث الورود من حولي، لكن اتصالاً ورَدَها من ابنتها الصغيرة جعلني أسلك درباً مختلفة غيّبتني قليلاً عنها، لكنها سريعاً ما أعادتني وهي تقول :

• بماذا تفكر؟ هل أثبتت لثُشُردَ بحضرتي أيها الإعلامي الجميل؟ .

ابتسمتُ لضحكة عينيها وهمستُ :

• ألما .. لم تحدّثيني عن زواجك، لِمَ قلتِ لي : سألحق بك قريباً؟

أطلقتُ ضحكتها التي أعشقُ وعينيها في خطابٍ جريءٍ وجّهتهُ مباشرة لي :

• يا "أزعر" .

• أنا أيضاً؟؟

• من ” أزرع ” غيرك إذن ؟

• صديقي يم .

ضحكنا .. أكثر ما يميز صداقتنا، أننا نتحاورُ كطفلين شَدَّهما التَّوَقُّ لاختراقِ عالمِ مجنون، وقد أخبرتني يوماً أنها مجنونةٌ في الحب، فهل جنونها الآن ما يدعوها لاختراق عالمي لتبثَّه لي وحدي أم لتفكَّ الأسر عن زوجها المقيدةِ ؟

لم تكشِّف لي ألماً شيئاً عن خلافاتها مع زوجها، وهذا ما دعاني لأن أحترمها أكثر، ليس من المقبول لديّ أن تُحدِّث الزوجةَ أحداً بتفاصيل حياتها الزوجية خاصة إذا كانت الخلافاتُ بينهما مُحْتدِمةً، اكتفتُ بالقول :

• لا أريدُ أن أعكِّرَ صفوَ جلستنا، المشاكل كثيرة وأريدُ أن تكون جلستنا خارجَ نطاق هذا الكون .

• فلنحلِّقْ معاً في سماء صافية لا يُعكِّرها ما ينشغلُ به البشر .

• ملاكين ؟

• لِمَ لا ؟ تُدرकिनَ أنَّك قريبةٌ جداً من روحي، ومعك .. أشعرُ أنَّ لي جناحينِ من نور .

- لكن انتبه ربما أحمل مكنسة وأحجّي في ثنايا شعري ” فتّيشة ” وأطير فوق المكنسة .
- يا لك من شريرة .

obeikandi.com

وصلتني رسالة من يم على بريدي الإلكتروني تحت عنوان ” حكايتي مع أدونيس ” وهذا نصُّها :

تعرَّفتُ عبر الشابكة على أدونيس قُبيل مجيئي إلى محافظة اللاذقية، كان مُقيماً في حلب، وعندما ساءت الأوضاع الأمنية والمعيشية هناك بعد دخول المسلحين، لحق بي، ظننتُ أنَّ حُبَّنَا هو الدافع الأكبر لحضوره .

في اللقاء الأول، كانَ البحرُ يمتدُّ أمامَ ناظريَّ حتى حدودِ الجنَّة، الشاطئُ الرَّمليُّ بدا مُحَرَّضاً قوياً على ملامسةِ نبضِهِ المتسرِّبِ حتى شراييني، الموجُ المنتشي بدفءِ أشعةِ الشمسِ شَجَّعَ الزَبَدَ على التقافزِ والرقصِ على إيقاعِ قلبي المشرق، حالهُ توحدٌ غريبةٌ مَعَ هذا البحر الذي أعشقُ تُسرِّبُ إلى كياني، الرَّابضِ فوقَ صخرة، إحساساً مُشبعاً بامتلاكِ الكون، نظراتي شاردةٌ فيما وراءَ المنظور، طمأنينةٌ تُشيعُ في نفسي المحلِّقة مع الغيمِ السابحِ في سماءٍ شفيفة .

كاد المنتجع يخلو من أي زائر، لكن ما دعاني للقدوم هو من جلس إلى جانبي وشاركني متعة اللحظة، كنتُ أرنو إلى عينيه فأجدهما بحراً آخر

لا قرار له، زُرْقَةٌ حدقتيهما تلونُ عالمي بألوانِ قوس قزح، حاولتُ مراراً الخوضَ في تفسيرِ ما أرى فيهما مِنْ دِفءٍ فلا أجدُ، أُجربُ التجديفَ حباً بالإبحارِ فيهما فلا أستطيعُ، وقفتُ مدهولاً مِنْ فرطِ ما تشيعانه من إحساسٍ بالحنانِ المضمخِ برائحةِ النرجس، تبسمانِ لي بُعيدِ محاولتي فكَّ شيفرةِ النظرةِ الثاقبةِ التي تشي بدكاءٍ مُتقدٍ فيهما، فأراني أُكشِفُ لأغدو مفهوماً دونما حاجةٍ لأي قاموسٍ أو معجم، أحسُّ بلمسِ أصابعه الممتدة بحنوٍ فوقِ ظاهرِ كفي، فسربُ حناناً أفتقده و جوعاً إلى ما يجعلني مُتوازناً بعد سُربِ سني عمري من غربالِ حياتي الكئيبة، أسلمُ لنسائمِ لمساته شراعي المبحر مع هديرِ عينيه، أبادلهُ الابتسامةَ هامساً بأنني لم أعد بقادرٍ على ضبطِ إيقاعي الهادئِ والعمومِ أكثرِ وسطِ بحرِ الرومانسية التي تشيعُ في أركانِ المكانِ ونفسي، فيضحكُ وأكتشفُ كم هي رائعةٌ ضحكته، يبادرني قائلاً : خشيتي تزيدُ على ما يفوقُ قدرتكِ على ضبطِ نفسك، وربما إن بقينا هنا أكثرُ تجدني لا أكثرُ بمن قد يظهرُ أمامنا فجأة .

أقولُ وقد علَّتْ ابتسامهٌ نجولةٌ وجنتي : هيا بنا إذن ندخلُ الشاليه، فما عدتُ أحتملُ بُعدي عنك .

كانتِ الرمالُ تحتَ أقدامنا تزدادُ سخونةً كلما تجاوزنا الخطوة فترسمُ شوقاً ملتهباً وتتسارعُ خفقاتُ قلبينا، أنظرُ إلى موقعِ الشاليه مُستغرباً بعده .

بعد لحظات، ولجنا المكان الذي سنبثُ فيه أوجاعَ المشتى، ونلقينُ فيه درساً قاسياً للمسافاتِ التي كانت تفصلُ جسدنا عن لقاؤهما دونما

حرج، لحظات من عمر الزمن الذي ربما فيه ظلمت نفسي عندما كنت غير متصالح معها فكبتُّها عن رغباتها، ولم تكن طاقة الفرج إلا عيناى وما تطلّقهما من نظراتٍ فيها الشهوة لغة وحيدة وعقيمة بذات الوقت، والشهوة في النفس مُحَرِّكٌ قوي لإتيان المحظورات إن لم تجد ما يردعها، وقد كنت أفعل ذلك خلال المراحل الأولى من عمري، لكن ما قرّرتَه فيما بعد أن رميتها في جُبِّ عميق قاتم وكئيب، والآن .. حان الوقت لأفليت عن الشهوة عقالمها وأفتت قيودَ عمُرٍ مرّ .

كل ما كنتُ أهواه ولم أتوقّع حدوثه، عشته معه، أحسستُ به على مدار اللحظة، وفي كل نائمة وحركة وتفصيل، مشدوهاً بقيت للحظات بعد أن رسمنا معاً لوحة غاية في الإبداع، الألوانُ كانت واضحةً دون ظلال، فالظُلُّ يترك سواداً وإن خَفَّ، ولسنا بمعرض تَرْكِ السواد في لقائنا هذا، لم أَرِدُ التفكير بأي أمر، تركت نفسي لما تهواه وتريده، وأحسستُ به يغوص في بحري دونما حاجة لأي أوكسجين، ما يعتملُ في قلبينا كان كفيلاً بخلق أروع اللوحات التشكيلية، وعادت اللمسات تغذي الجسد بما يحتاجه من جرعات حنان، وهذا ما أكّد لي حبه، فلستُ أداة لبلوغ الشهوة ولن يكون هو كذلك، نظرات عينيه تبدو أكثر توهجاً ورفّة، كلامه الدافئ يبعث في نفسي وثوقاً بما هو آتٍ معه و له، أمسكتُ بكفّه واحتضنتها، قبّلتها وكنت في ذلك أحققُ حُلماً زكياً طال انتظاري له، وُقِعَ أنفاسه في أذني يزيد في إشعال ما تبقي من يباسٍ في روحي ليزهق روح اليأس من ملاقة إنسان يهوى ما أهواه ويعشق ما عشت عمري أنتظره، قلت له :

• كم أعشق عينيك و زُزقتهما .

• يا سيد زُزقتي ومائي، سأغرُقك وأغرُق فيك، لتدوب وتصير ملحي

وعانقني من جديد ..

لقاءً بهيِّ جمعني بأدونيس، تكررَ بعد أيام قليلة في شقتي، استطاع خلاهما أن يأخذني بعيداً عن أي مكان يمتُّ إلى الواقع بصلة، عانقني عناقاً حاراً، قبلاتنا كانت اللغة التي اخترناها في تلك اللحظة للروح بما اعتمل في قلبينا طوال فترة غيابنا، حدّثني عن عمله السابق في مكتبه الهندسي، وعن الظروف القاسية التي تعرّض لها فأوقفت كل مشاريعه، وتسيّبث له بخسائر كبيرة .

كنتُ أتوق لرؤية جسده عارياً، وكان رائعاً حينما رأيته، احتضنني بشوق كبير وغمرته بدفء مشاعري وحنيني لملاقاة روحه العذبة وجسده الرجولي الذي أعشق، خُضنا في حديثِ الجسد، الأيدي تحارُ في أي موضع تستقر، ولا تعرف مُستقرّاً لها وسط بحرٍ غمرنا بموجه الهادر، بتنا كشمعتين تلاصقتا وذابتا وُجداً وهياماً، إحساسي به يكبر لدرجة أنني أحسستُ امتلاكه لجسدي وقد بات له وحده، رجوتُهُ أن يُبقي جسده لي ولا يدع أحداً بعد اليوم أن يدنو منه، فلا أريد لبصماتٍ غيري أن تلامسه أو تستمتع بما أستمتع به، وبذات الوقت وعدته وعاهدت نفسي أمامه دون أن يطلب أو يتفوّه بكلمة، بأن أكون له وحده، لن أترك فسحة لأي كان لكي يناور معي في هذا الحديث، قررتُ لحظتها أن أقدّس جسده وأُبقي جسدي بعيداً عن

متناول غيره، مهما باعدت بيننا الأيام، وكان اللقاء بيننا طويلاً .

غازلْتُ، ثرثرتُ، بما أحبُّ ويهوى، بهمسٍ، وبخفيفِ شهوةٍ، أسمعتهُ ما أبقى لُغتي حيَّة لا يدركها إلا حريق الرغبة، أدركتُ أن الحبَّ حين يداهمُ القلبَ، فلا تفسير لما يتَّخذه الحب من دور، الأمر لا يتعلَّق برجولة كاملة أو منقوصة، ما جرى لم يمَسُّ رجولة أحدنا أو ينتقص منها، فالحب هو المحرك الأساسي، وحدها الرغبة تحدِّدُ أي وجهة يسلكها الحب، وأي تفاصيل يهواها دون غيرها، الأمر محسوم، لذا ما كنتُ أمارس الجنس مع أحد دوغما مشاعر طاغية وقوية، وإن كانت آنيَّة فيما مضى، إلا أنها مع أدونيس .. مستمرة ما دامت الأرض كروية الشكل، فيضُ الشهوة لم أكن لألتفت إليه إرضاء لجسدي والتعتميم على مشاعري، فالجنس الذي يخلو من المشاعر أقرب إلى الأداء الآلي أو الشهواني الذي يفرغ منه أي محتوى بمجرد انتهائه، وهذا ما كنتُ أصرُّ على رفضه، وعشقي لأدونيس ليس لارتباطي الجسدي به فقط، فما أكنُّه من مشاعرٍ حُبِّ صادقة وقوية، كان أكبر وأتقى من أن يُصاَرَ إلى وضعها بأية خانة مما يُثار في أجواء المثليين، لذا كنتُ متصالحاً مع نفسي، وأعرف ما أريد حتى بجزيئات الممارسة الجنسية وانعكاساتها على النفس، وما كان يريحني ولا يسمح لظلال الندم بأن تتسرَّب نحوِي، أنَّ اعتباري للمثلية تختلف عن اعتبار الكثيرين لها، فلم أكن برجل تنقصه ملامح الرجولة، رغم أنني شاب ناعم لكن النعومة في الحديث والتعامل، ولم تكن الرجولة يوماً بنظري في الفحولة الذكورية التي يتباهى بها معظم الرجال خاصة في مجتمعاتنا الشرقية .

التفاصيل التي كنتُ أول من بدأ بولوج عالمها معه، كانت تشكّل كوني العذب بكل مكوناته واختلاجات نفسي المنفصلة به والفاعلة حتى أقصى حدود المتعة واللذة والجمال والحب .. الحب ذاك المخلوق الكوني الذي سبق وجوده خلق أي إبداع للخالق فيما تركه لنا نحن البشر لتكون لنا جولتنا في هذه الحياة ..

يومان مرًا بسرعة كما الشهب في السماء، عدتُ، كأن الحلم ما ابتداء بعد، بل كان طيف حلم رقيق زارني بضع لحظات ليودّعني والدمعة تحفر مجراها في خدي .

أدركتُ معنى أن أتحدّثَ إلى أدونيس ويحادثني حينما عدتُ إلى صفحة الدردشة التي كانت تملأ علينا لحظاتها قبل أن نلتقي، امتنعتُ عن محادثة أحد من معارفي السابقين إن كان برسالة أو باتصال، كنت أجده الحبيب المتعقّل الذي يدرك ما يقول ويفعل، أدركتُ أنه كان عليّ التمهّل في عرض أفكار كثيرة، ما كانت لتغيب عني لولا هيامي به وعشقي لكل تفصيل يجمعنا معًا، أحسستُ أن حبا له المكانة المثلى في حياتي ولم أعد أرغب في شيء في الحياة إلا بوجوده معي .

كنت أخبرته ذات مرة أن الدردشة عبر الشابكة بقدر ما تحقق المتعة والتواصل الجميل، لكن تبقى قاصرة عن إيصال الانفعالات بحقيقتها، كنت أجد على الدوام أن حساسيتي في بعض الأحيان كانت مُفرطة، كنت أتأثّر بالكلمة فأجدني آخذ كلامه على محمل الجدّ في حين كان هو

يقصد المزاح اللطيف والعفوي .

ظننتُ أن روحينا لا يمكن منازلتهما على ما يُكْتَبانِ من مشاعر صافية رقيقة، اعتبرتُ أنّ الدّاخلَ بينهما خاسراً لا محالة، والنزالُ سيكون عاصفاً بقدر ما يجمعنا من حب للحياة بعدما توجّناها بعشقنا ورؤانا، كان ساحراً في عمق إحساسه باللحظة، ومُتفرداً في لحظها والاكتفاء بها عما يليها، كثيراً ما قال لي إن الآتي أجمل، وأنا كنتُ واثقاً أن الأجمل معه سيجعل الحياة ولا أروع، وقد كان في بوحه فيما تلا اللقاء الجسدي بيننا مُختصراً فيما أحسّ به من نشوة عارمة جمعته بي وكلّك لقاءنا بأمال ستمنحها لنا الأيام القادمة .

في لحظة ما، أردتُ أن أقول له : سامحني على استعجالي في بعض التفاصيل، سامحني على تَزَقّي في الحب وبرّره لي، فحبي لك هو ما دفعني لذلك، وفرحتي بك جعلتني طيراً حراً يغرّد، يرقص، يخلّق في حبك وحدك، وأنت معنى الحياة، في لحظة ما، أيقنتُ أن بداخل كل منا طفل يعوزه الكثير من الحنان والحب .

لكنه فجأة، ودونما إنذار أو تلميح سابق، عبّر لي عن رفضه إظهار الرجل لتلك الأنثى القابعة في داخله، إن كان بتعاطيه مع الآخرين أم مع شريكه في السرير، وسواء كان التشبّه في الشكل أم في التصرفات وأسلوب الكلام وحتى في طبقة الصوت، وما أخرجني أكثر وبدد آمالي، اعترافه لي أن جُلّ ما يخشاه أن تدفعه أنوثتي المفرطة لإلغائي، وإن حدث واستمرّت

علاقتنا فستكون علاقة باهتة ما لم تخضع لتغييرات ملحوظة لدي، وما كان ليجامل في هذا الموضوع أبداً .

بدأ التغيير يفرض واقعه على ملاحح علاقتي به، ما كان بإمكانني استيعاب موقفه لأبزره له ؟ كان صمته لغة عَصِيَّة على الفهم فيما تلا من أيام، أيكون سبب الصمت هي لغة الحواس التي تعطلت ؟ أيكون وهم الحب الجامح ليس سوى حالة اشتها قد تطول وقد تقصر ؟!

قضيتُ أيامًا حسبتها سنينًا، لم يكن بمقدوري أن أتصور أنه لاهٍ أو عابثٌ أو أن ما باح به ليس سوى حجة لكي يبتعد عني، ولأصرَّ على حضوره باستمالتة للبقاء معي، تأكَّدتُ أن انجذابه لم يكن إلا حالة إدمان على التواصل عبر الشابكة .

كانت الحروف في غيابه عني تقطُرُ دَمْعًا، فجعلتُ من الدَّمع نقاطًا للحروف .

واصل النشر على موقع Facebook مهملاً وجودي، رغم مُحَاكاتي له، تارةً عبر منشوراتي في صفحتي، وتارةً أخرى من خلال ما أثبته من رسائل فلا يرد عليها ويتعمد الصمت .

” هل ما كان بيننا انتهى بمجرد الوصول إلى ضفة الامتلاء أم أنه لم يكن جبًا في أصله ؟ هل ثمة من انوجد في ساحة أخرى أكثر قُرْبًا لك مني، أم أن نعومتي تختصر المشكلة وليس هناك سبب آخر ؟ ” .

تركتُ له كلماتي تلك طالِباً منه أن يحدّد بدقّة ما إذا كان يريد صداقتي أم لا، استمرّ على ما هو عليه، يَنشرُ في صفحته، يُعلّقُ على منشورات أصدقائه، يضحك معهم، كأنّ أمرى لا يعنيه في شيء، كانت الصدمةُ قاسيةً ومؤلمة حين أتاني ردُّه الصاعق : ” آسف .. أنا شخصٌ مزاجيٌّ ” .

تساءلتُ : هل المزاجية فصلًا من فصول شخصيته ؟ وإن كانت كذلك، فقد أرهقتُ شتاءَ عيني، ما عدتُ أحتملُ إهماله الجارح على هذا النحو، قررتُ أن أحظّره كصديقٍ على Facebook .

غاب عني رغم حضوره ضمن أعضاء الشبكة، وكنتُ قد سعيثُ مُدَّحلاً في اللاذقية على إشراكه في فعاليات ونشاطات تُخرجه من جُربِ الفراغ المسيطر قبل أن أساعده في العمل بمكتب هندسي، كما عرّفته على أصدقائي

مرّت الأيام عصبية، إلى أن صادفتُ صفحتك على موقع Facebook وبدأتُ أهتمُّ بك، بمتابعة برنامجك، بصوتك عبر الأثير، بروحك التي كنت أستحضّرُها لترافقني في لياليّ المترعة بالحزن ومن ثم .. وقعتُ في حبك . انتهت رسالة يم ..

أغلقتُ جهاز الكمبيوتر بعدما احتفظتُ بنسخةٍ عن رسالة يم، وفردتُ أشرعتي في فضاءاتِ الروح .

ما الذي يدعوني إلى اقتحام عالم المثليين ؟ وهل سيتقبّل المجتمع طرَحَ

هذا الموضوع في برنامجي الجديد ؟ قررت ألا أحسم الأمر قبل أن أنهي الإعداد، ويم هو الشخص الوحيد حاليًا الذي يعلم سبب اقتحامي لهذا العالم .

كانت الكلمات مُتَكَئًا لي في مواجهة عَصْفِ رِيحٍ ما زارتني يومًا لكنها هذه اللحظة تكادُ تقتلني .. كتبتُ :

” عُدْرًا .. تُهْمَةٌ أَنْتَ، وما أنا ببريءٍ مِنْكَ، فصولُ العَبَثِ بأوهامِ الأملِ
أسْقَطْتَنِي شَهْوَةً كَمَطَرٍ رَجِيمٍ، شَوَّهْتَنِي .. وَسَجَّيْلٍ أَحَدَثَ اخْتِرَاقَاتٍ فِي
مَرَايَايَ، ترسمُ انصياعاً لمَجُونِ فُرْشَاةِ أَلْوَانِكَ، بمفاصلِ سِرِّرِ خَطِيئَتِكَ الغافية
تحت جدار .. عبثتُ فأوغلتُ، رَمْتَنِي فِي لَطَى التَّشْطِي .. حماقاتك، بعد
تجاوزِ الظَّلِّ، صحوْتُ على أَنَّاتِ رُوحي فتنبّهتُ، أوجزتُ فِي تَلْقِينِ الفضاءِ
بُوحي .. اعترافاتي بريئةٌ مِنْ رَجْسِكَ، أقممتُ العطرَ فِي نداءاتي لتصلَ
الريحَ، علَّها تُنبِّهُ غَفْلَةَ التَّرْجِسِ، هل ينفعُ النَّدْمُ؟ والوَحْلُ شَكْلٌ صَلْصَالِكُ
فباتَ جزءاً من جَدْرِكَ؟ تكاثرتُ عَجِينَةً تنمو على مِراجِلِ الأثيرِ، لَطَّخْتُ
الدَّمَ بِالطَّيْنِ، الرُّوحُ بِالْأَنْيْنِ، الصَّهِيلُ بِمَدَى الوَجَعِ وبكَيْتُ .. لحظةُ
الانعتاقِ من قَيْصِ الجنونِ، لستُ أنا .. وَأَنْتَ أَنْتَ، والصمْتُ يقصُّفُنِي
بضجيجِهِ، العُمُرُ لوحَةٌ لن أُكْمَلْهَا، أغنيةُ جائعة لبوحِ الجمرِ، فاتَكَ تَأْمُلِي
فافتَحْ نافذتَكَ لبلوى الرِّيحِ، واسكبني لَوْنًا على صَبْرِ السماءِ، نَحْجَلًا أَبْدُو،
حين أقوى على خمرِ الرِّيحِ، أعلنتُ براءتي مِنْكَ .. أعلِنُ انْفِرَاطَ طَوْقِ
النَّارِ ” .

سَجَلْتُ ظهيرة اليوم التالي ما كتبتَه، لأختم به الحلقة القادمة من برنامجي، كان صوتي مجروحًا، نَزَفَ حزنًا دونما إرادة مِنِّي، وحينما كنتُ أَقْدِمُ الحلقة على الهواء اتصل بي يم خلال فاصل إعلاني ليخبرني بأن أدونيس أرسل له رسالة قصيرة عبر هاتفه كتب له فيها :

” إن كنتُ قد سبَّبتُ لك جرحاً فقد جرحتي أنت أكثر ” .. أُرَدِّف

يم :

• لم يشأ أن يتقرَّب مِنِّي أمام أعضاء الشبكة، لم أدرك ما الذي دعاه إلى ذلك الآن، هل اكتشفَ بعد شهرين من الفراق أنني لم أعد ناعماً في نظره؟! بعد أن أمضى شتاءً هُمُ بمزاجية أرهقت عيناَي بدمع ما فارقني إلى أن عثرتُ عليك .

• هل رددتُ عليه؟

• أجل، أخبرته بأن القلب بات مشغولاً بغيره، طلبتُ منه أن ينسى أمر مناقشة ما كان بيننا، فالجرحُ غائرٌ في روحي بسببه، وما عدتُ بقادرٍ على تحمُّلِ استذكاره أو الحديث عنه .

• بماذا أجابك؟

• طلب مِنِّي أن أرفع عنه الحظر على ليتمكَّن من إرسال طلب صداقة جديد لي، حَقَّقْتُ له ما يريد، وحين قبلتُ به مجدداً، اكتشفتُ بأنك صديقٌ مشتركٌ بيننا، متى حدث ذلك؟ حين التقينا مع أعضاء الشبكة لم تكن تعرف أدونيس ولم تتبادلا حديثاً

جانبياً معاً .

- مهلاً يم .. ما الذي تقصده بكلامك هذا ؟ إخبارك لي بأنه مثلي الجنس لا يعني أنني أرسلت له طلب صداقة عبر Facebook على العموم لا أريد مناقشة أي أمر معك الآن، لا بد من لقاء بيننا لأخبرك رأيي بما أرسلته لي عن حكايتك معه، انتهى الفصل الإعلاني ويجب أن أعود .. عَمَتِ مساءً .

ختمتُ حلقة اليوم من برنامجي بالقول :

” غالباً .. حين يقع الفراق بين حبيبين، ينقلب الحب إلى كراهية وحقْد، ويصبح من كان حبيب الأُمس عدواً أشد فتكاً من المجتمع الرفض لهما وما يربطهما معاً .

إنْ ضَعَطتْ على خيار الحذف لا يعني أنك وصلتْ عتبة النسيان في قاموس الإنسان، لكنك بلا شك حققت ما تريد في عالم افتراضي تصرُّ عليه ” .

أثارتْ عبارتي تلك و ” التُّهْمَة ” موجة من التعليقات والاستفسارات على حسابي في Twitter و Facebook عما أقصده بالتحديد، لم أرْدَ على أحد، كعادتي حين أثير إشكالية معينة، وبعد إذاعة الحلقة انهالت الاتصالات مُطالِبَةً بإعادتها .

قُدْتُ سيارتي عائداً إلى بيتي، الشوارع تكاد تخلو من كائن بشري، ما

خلا العناصر المرابطين على حواجز الجيش التي عَجَّ به خط سيرى، كانت سرعتى تتجاوز ١٠٠ كم/ساعة وقبيل وصولى إلى كل حاجز أتفاجأ به، أودسُ على الفرامل، فتصدر العجلات صوتاً قوياً ليكون عناصر الجيش الذين تنبَّهوا إلى سيارتى قبيل وصولى تجمَّعوا وقد أشاروا إليَّ بواسطة أجهزة الضوء التي يحملونها للتوقُّفِ إلى جانبهم، كنتُ أبادرهم قبل أن يتحدثوا إليَّ قائلاً ” تفاجئونى بحواجزكم وقد أسرعتُ لخلو الطريق ” وحين يرون بطاقتى الشخصية أمرُّ وقد ارتسمت الابتسامة على مُحيَّاهم طالبين منى أن أقود برويةً تحسُّباً لأيِّ حادث بعد أن يقوموا بتفتيش صندوق السيارة الفارغ .

أسئلةٌ تبارزُ في رأسى تبدو كإشارات المرور الحمراء التي ما كانت توقفنى :

هل اقتحمَ يم عالمى الافتراضى ومن ثمِّ الواقعى لكى يساعد نفسه على تجاوز إخفاقه مع أدونيس؟ هل كان الحزن لبوسِ روحه وأملَ أن أساعده فى الخروج من جُبِّه؟ هل كان همُّه أن يخرج من حالة فقْدِ الأمل، لبيتَّ فى روحه جرعةً قويةً من التفاؤل، وارتياحاً بتقبُّلِ ذاته ليغمر قلبه بما كاد يفترقه؟ والأهمُّ : لماذا يبدو لى يم يوماً بعد يوم غير متوازنِ نفسياً وبأنه يكذب بشأن تصالحه مع ذاته؟ ولماذا يستمر بأنوثته التى يُغلفها بقول ” ناعم ” ما دام يدرك أنه غير مقبول من الكثيرين؟ أى يم هذا؟!!

يبدو أن مجتمَع المثليين غريبٌ، يسكنون معنا فى بيت واحد وسط

هذه القرية الصغيرة، ولا نعرف عنهم شيئاً .

” لَذَّة الرِّغْبَةِ تَبْدَى لَنَا لِأَنَّنا نَصَاعُ إِلَيْهَا صَاغِرِينَ، وَفِي أَعْمَاقِنَا نُدْرِكُ
أَنَّنا نَلْهُو بِكَ الْأَطْفَالِ، لِنَكْسِرَ أَلْعَابِنَا لِحِظَةِ الرِّحِيلِ ” .. كَانَتْ فِلْسَفَةَ آخِرِ
الليْلِ، انكسر صوتي على عتبة هذا العالم، وغفوت .

عالم قائم بذاته، لا يدري ما يكتنف هذا العالم سوى من دخل إليه، حينما كنت أحياء بعيداً عنه، لم أكن أدري ما يمكن أن تكون عليه الحال فيه، كأني إنسان يجهل طبيعة وطريقة الحياة في كوكب آخر .

عالم .. فيه ما في عالمنا من جمالٍ وقبح، من حب وكرهية، عالم مكشوف ومنكشف لمن دخله، ومشوّه وكرهه لمن لم يدخله أو لم تكن له معرفة به .

عالم ما أردت ولا تصوّرت يوماً أن أُلجّه، قررت الدخول إليه بإرادتي، رغم ما يتصارع في داخلي من رغبة تُبقيني حيناً وتُبعدني أحياناً أخرى، ما يُجَمِّلُ الصورة لأكملها وما يُقَبِّحُها لأستغني عنها وأُنهي كل مَسِّ عليّ منها .

فاجئني يم بقدمه إلى دمشق ظهراً، قال لي بكل بساطة :

- أتيتُ لأتحدّثَ إليك، أزعمُك البارحة ولا بد من التحدّثِ بالأمر
- وهل انزعاجي منك يستحق أن تُعرِّضَ نفسك للخطر بالسفر والأوضاع الأمنية سيئة ؟ كان من الممكن أن نناقش الأمر عبر الهاتف، ما حال الطريق أثناء سفرك ؟

• استطاع الجيش السوري في وقت سابق تأمين سلامة المسافرين بعد استهداف المجموعات الإرهابية المسلحة للمنطقة المحيطة بـ " تحويلة " حمص، لكن الوضع في حرستا بمدخل دمشق خَطِرٌ للغاية، قبل استهداف الباص رأيتُ آثار الدمار، الكثير من السيارات المازة تم استهدافها، احترقت وتناثرت على جانبي الطريق، الجثث متناثرة هنا وهناك، يبدو أن أحداً لم يستطع الاقتراب منها ليسحبها خشية تعرُّضه للقنص أو استهداف المنطقة بالقذائف، صورٌ تقشعُرُ لها الأبدان و بكى يم .

بانوراما من صور الحرب تدورُ في رأسي : جثثٌ مُشوَّهةٌ ومحرقة، أشلاءٌ بشريةٌ التصقتُ بمجرانٍ وبأسقفِ الجسور والسيارات، ذُبْحٌ وتقطيعُ أجسادٍ، زمي الجثثِ في العاصي، تفجيراتٌ كبيرة في ساحات وشوارع المدن، طلابٌ جامعاتٍ ومدارسٍ يُستهدفون في مقاصف الجامعات وصفوف المدارس وباحاتها، خَطْفٌ وسَلْبٌ وقتلٌ واغتصاب، والتكبير .. صوتٌ للإرهاب المنظم وتبريرٌ لارتكاب الجرائم تحت عباءة الدين الإسلامي، أي جنون هذا وكيف سينتهي؟!!

قلت لـ يم بعد أن ازدردتُ ريتي ومسحتُ دمي :

- كيف تم استهداف الباص ؟
- تعرَّضَ للقنص، انبطح جميع الركاب على أرضية الباص فور استهدافه، استشهدتُ فتاةٌ تدرس في جامعة دمشق .

- هل كنت قادماً من طرطوس ؟
 - لم يتسنَ لي الحجز من اللاذقية مباشرة فاضطرتُ للسفر إلى طرطوس ومنها قَدِمْتُ إلى دمشق .
 - يا الله .. ارحمنا ونجِ البلد من شرورهم، الحمد لله على سلامتك يم .
 - هل تخاف عليّ .. قيصر ؟
 - ما الذي تقوله يم ؟!! أنت صديقي .
 - لم يكن بمقدوري تحمُّل انزعاجك مني أو سخطك علي، أرجوك قيصر، لا تنسى أنني أحبك .
 - ساعدُ القهوة ومن ثم نكمل ..
- توجهتُ إلى المطبخ بحجة إعداد فنجانين من القهوة لأتخلَّص من نظراتِ يم المفعمة بالحب والشوق، فتبعني ..
- كيف يمكننا نحن البشر أن نشهد كل هذا الموت من حولنا ونقوى في الحياة على أداء أزوجةٍ يوميةٍ تصمُدُ في مواجهته ؟ هل نُصرُّ على ذلك لنؤكدَ لأنفسنا أننا قادرون على صنع الحياة ؟ أم أننا نفرز خلال الحرب أبشع ما يمكننا طرحه بفوضى قاسية ولثيمة لا تتناسب البتَّة مع ما يشهده الآخرون من ويلات ونكبات ؟! .

عدتُ بتفكيرِي إلى يم الواقف إلى جانبي، وتساءلتُ مُجدِّداً كيف يمكن
ألا أبعده يتماذى بمشاعره نحوي، في ذات اللحظة همس لي يم قائلاً :

• اشتقتُ إليك كثيراً ..

أردتُ استفزازه مُستغرباً قدرته على تجاوز ما تعرَّض له أثناء قدومه
إلى دمشق :

• يم .. هل تُحِبُّني أم تحب أدونيس أم تراك عاشقاً لسامر وعصام
وعبد الله وجورج وفادي و ...؟!

قاطعني وقد بُهت ما تلفَّظتُ به وعلتُ وجهه غيمة داكنة لا تُبشِّرُ
بخير :

• على مهلك .. أو تظن أنني كل يوم أقع في الحب أو أوقع نفسي به
وهماً وكذباً؟

• ما ألاحظه أن الحب لديك مجرد ” كبسة زر ” .. يم، من أنت ؟
وماذا تريد مني ؟ .

• أريد أن أحقق لك السعادة وإن لم تكن معي، هل أثارته قصتي
مع أدونيس إلى هذا الحد ؟ .

• وهل تعتبر أن ما بينك وبين أدونيس كان حباً؟! أم أنك
تقصِّدت كتابه قصتك معه بلغة رومانسية مُلفتة لتحقيق أهدافاً
أخرى معي ؟ لثريني كم أنت مُحبٌّ ومِعطاء وم تفتاني من أجل

من تحب، وكيف لحب بنيته يوماً أن يزول بكل هذه البساطة
ويتحوّل إلى شخص آخر؟ يتحول إليّ أنا .

• كيف لي أن أصدّق كل هذا منك وقد دخلتُ إلى مواقعكم ورأيْتُ
عالمكم البغيض وعلاقاتكم التي تُبنى على أوهام بغرض الوصول إلى
إشباع اللذة وإطفاء الشهوة التي تتملككم لا أكثر، وحين تحقّقون
غايتم تلتفتون إلى صيدٍ جديد، ووهم أحق؟! مُفارقات صنعت
بها قصصك من دون حبكة، حينَ التقينا، أردتُ أن تحبك بي
فواصل قصصك لتبدأ من جديد قصةً جديدة، لأكون مجرد رقم
في قائمة عبتك .

أطرق يم مُنكسرًا مهمومًا، بدا كأنه خارج للتو من مدخنة مدفأة فاضت
بما فيها بعدما اخترقتها ريحٌ ساحقة، أمسك مفتاح فمه ليطلق حروف
الكلمات دونما أجنحة، والأجنحة أنثى تخلّى عنها وما تخلّت عنه فارتدته
حروفًا :

• كيف استطعت أن تقسو عليّ هكذا وأنا أحبك بكل صدق ؟

تفوّه بما لم أكن أتوقعه منه، فعلا صوتي صارخاً بوهمه المجنون :

• لا تقل إنك تحبني، الشاب لا يمكن أن يحب شاباً بهذا الشكل،
أفهمُ إن عَبَّرت لي عن محبتك بطرق مختلفة، كما أي رجل يكون
حينما يحب من هم حوله من الرجال، فيترجم حبه لهم بأفعال لا
بأقوال لكي يثبت حبه، قلتُ لك سابقاً إنك لن تستطيع معي

صبرا، وأنت تدرك كم

صمْتُ وما عدتُ بقادرٍ على قول : كم أقرف من أنوثتك وأنت رجل .

خرجتُ إلى الشرفة، فكرتُ وتألمتُ، كيف استطعتُ أن أضيقَ الخناق على يم وأقسو عليه بهذا الشكل ؟ أذكرُ أن له طبيعة خاصة، ولن يستطيع تغييرها، كما أنه في بيتي الآن وليس من المقبول أن أقسو عليه، وقد تحمّل وعشاء السفر وخطورته لأجلي !! .

دخلتُ الغرفة لأجد يم يهْمُ بالخروج، استوقفته وقلت له :

- يم .. تمهّل قليلاً، ألم نتفق على أن نكون صديقين ؟
- أفضربذلك، وأتمنى أن تكون مرآتي التي تصدق معي .
- صورتك في مرآتك، لا زيف فيها إلا بقدر ما تسمح له أن يمتد، وحدك ترى ما بداخلك، المرأة للآخرين ولك ما بداخلك، يم .. كُن أنت، عينك والعقل .
- معك حق .

• يم افهمني، ستخسر كل من هم حولك، المجتمع لن يرحمك، سيلفظك كوابء، ويهرسك كحشرة، آسف .. ربما أقسو عليك بكلامي، لكنها الحقيقة التي يجب أن تعيها وإلا فأنت تدمر حياتك، حين تؤيدني فهذا يعني أنك مُخطئٌ، والخطأ يجب أن يتبعه الصواب، كن مُنطقياً يا رجل مع نفسك، ما الذي تريد

الوصول إليه ؟ أنا ؟ لن تصل إليّ، ها أنا أقولها بضم ملآن، لن تصل إلي، لن أكون إلا صديقاً لك، وما دمت تريدني صديقاً يجب أن تستمع إلي وتفكر بكلامي، إنك تحفر قبرك بيدك، لأن المجتمع لن يكون مُتساهلاً معك، وبعيداً عن حال المجتمع، ألا ترى أن طبيعتك مرفوضة ؟ هل تُحسّن التعامل مع الرجال على أنك رجل مثلهم ؟ أم أنك ترى نقصاً في رجولتك تُبعدك عنهم ؟ .

رماني يم بنظرة سخرية مزجها باستعلاءٍ مفضوح اللون بعدما تفوّهت
بسؤالِي :

- وأين هم الرجال في زماننا ؟
- قيصر .. التفت إلى برنامجك الجديد ولا تُثعب نفسك بعد اليوم بالتفكير في أمري .. أرجوك .

استفزّنتي نظرتة بعض الشيء وطريقة محاولته إنهاء الحديث دون أن يعي ما أرمي إليه :

- سحقاً لبرنامجي .. ما عدتُ أريده ولن أفكر فيه، ما يعينيني اليوم هو أنت، لو لم أجدك إنساناً تستحق الأفضل لما نطقت، أتعلم .. بتُ أفهمك أكثر مما تفهم نفسك، وبتُ أعني من هم حولك أكثر منك، ألم أنبهك حين زرتك في بيتك ممن تعتبرهم أصدقاء ؟ ألم أقل لك إن أكثرهم يستغلون طيبة قلبك لتكون مَطيّةً لتحقيق ما يريدونهم من أعبائهم ؟ وقد قلت لي لاحقاً ” معك حق يا قيصر ”

والآن تكرر ما قلته بشأنك، ما الفائدة ؟

همس يم وقد انكسرت نظرة عينيه :

- أذكر ولم أنس كلمة تفوهت بها إلي يوماً .
- وما الفائدة ؟ إنك تغرق فيما أنت فيه، لم تع مشكلتك بعد لتحلص منها، تعيش كيفما اتفق، تحب كيفما يأتي به الهوى إليك، تبني علاقاتك على مساحات فارغة وأنت توهم نفسك أن هناك دعائم وأساسات متينة، وهي رخوة باهتة في حقيقتها، أتظن أن من هم حولك لا يعلمون بمثليتك ؟ سبق أن سألتك هذا السؤال، هل تظن أنك تحسن إخفاء حقيقتك ؟ مقارنتي بينك وبين أدونيس لم تكن عن عبث، ولا لغاية المقارنة معه أو مع غيره، قلت لك ما قلت لأنتهك إلى ما أنت تغفل عنه أو تتغافل، حتى أدونيس، لم تنظر إليه يوماً إلا من واقع هيامك به حسب تصوراتك، وتوكل إلى مشاركتك له السرير .
- لا أبداً، أنت تعلم أنه عضو في الشبكة ولازلت أتعامل معه على هذا الأساس بغض النظر عما كان بيننا .
- لكنك قطعت سبيل التواصل معه كصديق، وتتجنبه كعضو في الشبكة، تستغني عن معرفته وخبرته في اختصاص عمله وفي نشاطات الشبكة، هذا واضح يم، ما بين الشبكة والشابكة أضعت نفسك قبل أن يضيع منك أدونيس .

• ولماذا قَبِلَ بي في البداية ومن ثم رفضني ؟ لماذا كان يتوق إليّ ولم يرَ أنوثتي كما ادَّعى ومن ثم تحكَّمتُ به مزاجيته، هل تصدِّق أنت هذا الكلام ؟

• ما الحقيقة إذن ؟

رمقني بنظرة واثقة لم تستطع ربح الشك هزَّها :

• يريد التغيير، ملَّني واكتفى بي مرتين في السرير، وانتهت الحكاية، كنتُ مُغفلاً حين أحببته وصدَّقْتُ أنه أحبَّني، المزاجية قد تتحكَّم بك لحظات، ساعات، أيام قليلة، لكن ابتعاده عني كان لأمر آخر مختلف عما أخبرني به، وحين طلب مني أن أرفع الحظر عنه كان يريد استعادة شيءٍ فقده وبفقدته له أحسَّ بخسارة وما اعتاد أن يخسر شيئاً، أنا أفهم أدونيس أكثر منك، أنا من تعاملت معه في الحياة لا أنت، أنا من قضى شهوته معه لا أنت، لماذا تُصِرُّ على إفراغي ما حققته في حياتي من نجاحات ؟ بحجة أن أنوثتي طاغية، وبأنني مرفوض من قبل الرجال، هل تعلم أن الرجال يأتون إلي وأرفضهم ؟ هل تعلم أن الكثيرين منهم يطلبون أن أكون معهم رجلاً في السرير ويخلعون بدورهم الرجل الذي يتلبَّسهم لتظهر الأنثى دونما استحياء ؟ .

• أيُّ عالمٍ تعيش فيه يا يم ؟

يبدو أن ثورة نفسه جعلته بلحظة يقصف ظلَّ الاستكانة لما أقول له

فانتفض يرميه برصاصه .. قائلاً :

• كفاك تقريباً لي، هذا عالمنا الذي نعيش فيه وأنت لا تدرك بعد ما نعاني منه من قبل بعضنا البعض قبل أن نعاني من المجتمع الراض لنا، الأمزجة مُتَحَكِّمة والشهوة سلطانية، أو تكون وصمة عار أن أكون مثلياً؟ أجل أنا مثليّ ولستُ نَحْجلاً من مثليّتي، سأجد حبي يوماً ما، إن كنت ترفضني أو سبق ورفضني أدونيس لسبب أعلمه فليست بمشكلة .

• ما هو سبب رفضه لك ؟

أجابني مُتَحَدِّياً .. واثقاً :

• لا شأن لك في ذلك .

• معك حق، لن أَدخَلَ بعد الآن بأمر يَخْصُك، انتهى دوري، ولا أريد الاستمرار في الحديث أو مناقشته معك بعد الآن، أنت حرٌّ مني يا يم إن كنتُ قيدا، أنت حرٌّ في قناعاتك وأسلوب حياتك ولم أفرض عليك رأياً .

• أنتم مُملّون، تظنُّون أنكم مُحسِنون التَّسَرُّ عمَّا تقرّفونه وكل من تجدونه ضعيفاً تجعلونه مطيِّة لكي تخفوا موبقات ما ترتكبون، ادخل أيها الصديق إلى مواقعكم أيضاً وصِف لي ما ستجده فيها، فضاء مُكوِّمة كالجثث المهشِّمة، يبدو أنك تحيا في كوكب آخر ولست على درايةٍ بحالِ المجتمع الذي تنتمي إليه، في مجتمعتك أيها الإعلامي الخبير أزمة كبيرة وخطيرة لا بل تعدُّت الأزمة منذ زمن طويل وباتت حرباً ضروساً هي حرب أخلاق، المجتمع ينهار

من حولكم وأنتم تهاجمونا، المجتمع يتواطأ بصمته، يفقد قيمه،
يغرق في أتون الرذيلة، وأنتم تجهرون بالطهر، وفي السر لا شيء إلا
العهر، تتشددقون وتتنطعون وتبججون بما يثبت استعلائكم علينا
.. أزمنا أزمة أخلاق يا سيدي .

كانت يداه مُتصليتين، وجهه مُكفّر، عيناه منفتحتين على اتساعهما،
حادّتي النظرة، حسبته في هذه اللحظة .. مارداً عملاقاً، أتبع على الفور
بقوله لي وصوته يرتجف :

• هل ستجد الآن انفجاري هذا استفزازاً رخيصاً لك !!؟ .

رويداً .. هدأ يم، كنتُ أمعن بتمزيق الخيوط الواهنة لما تفنّن
العنكبوت بعزله في داخلي .

استسلم لنوبة بكاء عصفت به، دنوتُ منه، قبّلتهُ على جبينه، رجوتُهُ
أن يُسامحني على قسوتي، وطلبتُ منه أن يبقى الليلة عندي، فالقصف
مستمر منذ ساعات، ودمشق تعاني من النزف كما هي روجي .

حينها هدأتُ روحه، قدّم لي مجموعة شعرية لهبة الله أرسلتها معه لي،
وفي الصفحة الأولى كتبتُ إهداءها :

” آه من إحساس اللحظة، آه من ذاكرة مُتعبة حدّ القصف، آه من
قلبي .. وقد تصرّج ببعده عنك، لم يُرد يوماً إلا أن يحطّ رحاله في ” .

ابتسمتُ .. وقبّلْتُ روح هبة الله .

obeikandi.com

يحلو للبعض ارتداء الأقنعة فوق الوجوه، لكن يحلو لي خلعها .
واليوم، سوف أردي قناعاً لأخفي شخصيتي، أهو انتحال شخصية
أخرى وفق عِزف المثليين أم هو الأمر الطبيعي الوحيد الذي يجعلونه
حقيقياً في حياتهم وما اعتادوا عليه؟! .

للمرة الأولى في حياتي سأتكرّر، وسأخفي الوجه الحقيقي لقيصر .

لم يدعني يم أرنو إلى المرأة حتى أكمل عمله، كان يحدّثني طوال الوقت
الذي استغرقه في تغيير ملاحي عن الحفل الذي سنحضره معاً بمناسبة
ارتباط مثليين أرادا إشهار ارتباطهما أمام ثلّة من الأصدقاء، ألزمني بإطباق
في دون أن أنبس بكلمة، وانهمك بعمله بسرعة فائقة أذهلتني .

رنوُ إلى وجهي في المرأة، دُهلُت .. أيُّ وجهٍ هذا الذي أرديته؟!!!
لقد أبدعَ يم حقيقةً في إخفاء ملاحي، حتى كدتُ لا أعرفني، وما رأيته
أكاد لا أصدقه .

شعر مستعار، صبغة بلون البرونز فوق بشرة الوجه والرقبة، عدسات

لاصقة بلون البحر، شامة على الخد الأيمن، قرط ناعم في الأذن اليمنى، كحل غطى الفراغات الفوضوية في شعر الذقن لتعجّب بالسواد، أما اللباس فقد قدّم لي قيصاً أزرق اللون ياقته كجناحي طير، شفّ قماشه ليكشف تفاصيل الجزء العلوي من جسدي، وبنطلوناً ضيقاً من الجينز الحبري، أمعنّ النظر بشكلي للحظات، اكفهزّت ملامح وجهي، قطبتُ ما بين حاجبي، لم أطقُ ما رأيت، فكيف سأحتمل رؤية وجوه خلع عنها أصحابها أقنعة سبق أن جعلتني أتقبلهم وفق ما كانوا يبرعون في اختيارها، لأراهم اليوم عراة منها، لست أدري ما تخفيه الساعات القادمة لكنني بلا شك متوجّسٌ وقلق، في حين كانت عينايم ترصدان حركتي بهيئتي المعلّبة وهو يضحك بعبور، خرج إلى الصالة رافعاً طاقيته وملوّحاً بها بصورة دائرية في رقصةٍ مغناج .

في طريقنا إلى مكان الحفل، أيقن يم أنني مُرتبكٌ ومُحرجٌ، أكّد لي بأنّ الحفل مُقتصرٌ على عدد قليل من المثليين، نظراً للظروف السائدة، وشرع يحدّثني عن الحفلات التي سبق له أن حضرها والشخصيات المرموقة في المجتمع التي التقى بها وكانت تحضر تلك الحفلات لا بل وترعاها إطفاءً لشهواتها وملذّاتها، واستجابة لمطالب من ترتبط بها من المثليين، يبدو أن الحفلات كانت ملاذاً لهم من الكبت وثقل الأcnعة التي يرتدون في حياتهم العادية .

شعرتُ بأن نبضي يفوق سرعتي في قيادة السيارة، وبأنّ وجهي تبدّل ألوانه فتخلط ألوان شارات المرور وتزيد .

ضحك يم بقوة وهو يراني مُتردداً في خطوي حين ولجنا البناء المقصود،
همستُ له :

أحسُّ أن ثمة خيانة تُرتكب مع ما يشهده البلد من فظائع، فكيف
بهؤلاء يجتمعون غير مكترئين بما يحدث حولهم؟! أتراها شهوة القتل
تستعمر البعض، وشهوة الرذيلة والمجون تحتلُّ جُلَّ اتهامات البعض الآخر
؟! الحياة لم تعد كما سابق عهدنا بها وبأنفسنا، شهوةٌ مُستَبدَّة تُشوِّه الحياة،
يا لسخريتنا بقيمتها، نحن البشر اللاهثين وراء المتعة، والموت يتجوَّل في
مدننا، يحصد الآلاف، يسلب من أرواحنا وهج الحياة وحقيقتها، ويقولون
: أين مراكز القرار كي تصنع المعجزات وتعيد للوطن ما افتقده؟ لا بل ما
أفقدناه نحن إياه ..!! عازٌّ علينا ما جرى ويجري ونحن في خُسْرانٍ أكيد .

تنبَّهتُ إلى ما يقوله يم محاولاً أن يُشدَّ من أزري، هي المرة الأولى التي
أراه فيها مُتماسكاً، يعرف ما يريد وما وجهته، و يبدو مرتاحاً لما هو مُقدِّمٌ
عليه .

كيف لي أن أُلجَّ عالمهم هذا؟ وهل ثمة مخاطر من حضوري الحفل؟
تكاثفت الأسئلة في رأسي كالبخار، لكن .. يجب أن أراهم، يجب أن
أؤدِّي الدور بلا تردُّدٍ أو استنكار ظاهر، ها أنا أدخل اللعبة للمرة الأولى
لأرى بأَمِّ العين ما يفعلون في حفلاتهم، وإن كان هذا الحفل على نطاق
ضيق لكنه سيعرِّفني بما أجهله .

وصلنا الشقة وقد علت أصوات المحتفين داخلها، طرق يم الباب
وحفّزني على التماسك أكثر، يبدو أن مؤشر الاضطراب قد علا مع وصولنا
الشقة .

أحدث من يقف خلف الباب فُرجةً صغيرة ليتبيّن له هوية القادم
الجديد، وسرعان ما فتحه على مصراعيه لنلج سريعاً ويطبّق الباب خلفنا
ويقفله، استقبلتنا هتافات الحاضرين وزغاريدهم، الضحكات تتعالى كأن
ليس ثمة ذكّر في المكان، تنأى إلى سمعي وسط صخب المُستقبلين ما ينمُّ
على اعتباري و يم مشروع ارتباط، كأني و يم مُحْتفى فيهما أيضاً، يبدو أنني
حضرتُ لكي يتعرّف أصدقاؤه عليّ، أيّ يم هذا !!؟ .

الجميع يُهَلِّل ويصنّق ويضحك بطريقة هستيرية كأنّ المكان ملهى ليلى،
كل من أمّد له يدي لأرد السلام يضمّني إلى صدره ويزرع وجنتيّ بسيلٍ من
القبلات، وجوهٌ صُبِغَتْ بكل ما يخال للمرء أن تجمعها الطبيعة من ألوان،
شعورهم طويلة ومُصَفَّفة بأشكال غريبة وقد صُبِغَتْ هي الأخرى بألوان
قوس قزح، فساتين قصيرة سترت الأجساد مجازاً لتُظهِر عريها بطريقة أو
بأخرى، أظافر ملوّنة، لمحتها أثناء تحريك الأجساد لأيدٍ فاضت الأوثنة فيها
ما جعل الأجساد تتلوّى في حركات ماجنة مفضوحة، و يم ... يم أمسى
جزءاً لا ينفصل عن هذه الكتلة المعجونة بلعاب الشيطان، جسدي لم
يعد لي، فقد تناهته الأيدي والشفاه، لا أدري كيف خلّصته منهن ..

انتبذت مكاناً في زاوية أكاد لا أرى فيها، رجوتُ الله أن يبعدي عن

توجَّهْتُ حيثُ أشار إليّ، فكدْتُ أصطدم بجسدينِ تلاحما في وضعيّةٍ
مشبوهةٍ خلف ستارةٍ من ورائها يقع الحمام، كدْتُ لحظتها أن أتقيّاً،
تماسكْتُ واتجهتُ فوراً نحو باب الشقة، أدرتُ المفتاح وفتحت الباب
مهرولاً لا ألوي على شيء سوى الوصول إلى السيارة، وأنا أستمِّيم، وأحلم
بالوصول إلى بيتي .

أيُّ عالمٍ هذا؟! كيف حدث ووطئتُ هذا المكان؟! أي مجنون أنت
يا يم؟! لا بل أنا المجنون .. !!

فور وصولي إلى المنزل، دخلتُ إلى الحمام لأريق الماء على جسدي ربما
أتخلَّص مما علق به من درن المجنون .

مضت أربع ساعات، عاد بعدها يم وبرفته " أسامة " .

يبدو في العقد الثاني من عمره، تأكدت أنني لم ألمح في الحفل، فقد كان يرتدي لباساً عادياً وجميع من رأيتهم في الحفل كانوا يعانون التهاباً مزمنياً في أدمغتهم سبب انحساراً في طول القماش الذي ستر جزءاً يسيراً من أجسادهم، لكن أسامة حدّد حاجبيه، وصبغ شفثيه بالأرجوان، ووضع الكحل على رموش عينيه، فبدأ أشبه بالفتيات .

عبّر يم عن سعادته بحضوره الحفل وقد ساءه خروجي مبكراً، لكن سعادته رجحت كفة الميزان بفارق كبير، بررت باكتفائي بما رأيت واستغرابي، شرع يحدثني عن أجواء الحفلات الكبيرة وما يحدث فيها، كيف تكون ومن يحضرها، وأي رقابة تُفرض عليها، ومن كان يرعاها ويؤمن الحماية للحاضرين بعدم التعرّض لهم، فإن لم يكن هناك ترخيص لإحياء الحفل على أنه سيقام لمناسبة اجتماعية تخص أحد الحاضرين، كان الداعي إليه يحرص على تواجد إحدى الشخصيات المهمة التي يكفل حضورها غصّ الطرف عن حفله .

أكد أسامة أنه لم تكن لتنتهي حفلة من حفلاتهم تلك إلا بمشكلة تتسبب بمشاجرة عنيفة غالباً ما تقع إثر تعدي من قبل أحد الحاضرين على شخص مرتبط بآخر، فيثور من اعتدي عليه لتجاوز الخط الأحمر بمشاكسة من يرتبط به أو محاولة إغوائه لممارسة الجنس معه رغم وجود ارتباطه معه في الحفل، فتشعل نار الغيرة وقود ما يجري في عروقه ويهب ليدفع من تجراً عليه فغازل ارتباطه أو تمدى عليه بكلمة أو فعل، لتبدأ علاقة ساخنة يحدث فيها تبادل اللكمات بقبضات كانت للتو أنثوية وناعمة، لكنها وما إن يبدأ العراك حتى تتحول إلى قبضات رجولية قادرة على سحق كل من يتناول عليها، مشاجرات تُستخدم فيها السكاكين لثراق الدماء، وتُزَع الشعور المستعارة، وتُلقي بعض الأجساد في المسبح إن كان الحفل مقاماً في فيلا أو مزرعة، وكل ما يحدث، ما كان ليحدث إلا بسبب تعاطي أغلب الموجودين للماريجوانا وإسرافهم في شرب الكحول مما يتسبب بفقدان السيطرة على النفس ليأخذ الصراع النفسي مع الذات صوراً تعبيرية لا حدود لها وبأشكال قهرية وجنونية واضحة، حركات هستيرية يرافقها بكاء شديد، تقيؤ، غياب مسيطر لأي وعي أو إدراك، وقد كانت السُحْب الكثيفة من الدخان المتصاعد في فضاء المكان بعد تعاطي الماريجوانا يدُل عناصر الأمن إلى مكان تواجدهم، فيرعون ليتدخّلوا وينهوا أي إشكال حاصل، وقد حدث ذات مرة أن وشى أحدهم بسبب عدم دعوته للحضور من قبل صاحب الحفل، فتم اقتحام المكان فجأة، وكان بعض المتواجدين يمارسون الجنس في الغرف الداخلية، وفي زاويا قصية

مُعتمة، فاقتيدوا، وتمت إحالتهم إلى القضاء بجرم ارتكاب الفعل المنافي للحشمة .

صدمةٌ كبيرةٌ تلقَّيتها بعد وصف يم وأسامة لحفلات المثليين الماجنة، أضافت إلى ما شهدته بعيني شعوراً مضاعفاً بالقرف والاشمئزاز، لم أعلق بكلمة، نهضتُ لأعدُّ القهوة، طلب مني يم أن أبقى مرتاحاً وهو سيتولى إعداد القهوة، أردتُ أن أتفوّه بكلمة، لأتأكد من استمرار قدرتي على النطق بعد كل ما مرَّ بي اليوم، وما سمعته الآن .. قطع أسامة حبل الصمت ليقول :

- أخبرني يم أنك بصدد إعداد برنامج إذاعي عن المثلية الجنسية، وقد رغب بأن أحدثك عن نفسي ..
- أجل .. أشكرك أسامة، منذ متى وأنت مثليّ؟
- لا أذكر بالضبط، مُذ وعيتُ وأدركتُ ما تعنيه كلمة جنس .
- بم تتميز تجربتك في عالم المثلية أسامة؟
- أنا أهوى الرجال العاديين ولا أمارس أبداً مع المثليين .
- بهتُ .. وقلت لأسامة رانياً نحوه :
- كيف ذلك؟! وهل تلقي تجاوباً من الرجال العاديين وقبولاً منهم في ممارسة الجنس معك؟

• بالطبع، ولم لا؟ ليس من السهل الإيقاع بمن يعجبني منهم، لكنني أتدبّر أمري .

• كيف يحدث ذلك؟ ... أخبرني .

• أمارسُ الغواية، أجدبهم بشكل أو بآخر، ثم أطلب منهم ممارسة الجنس معي، أغلبهم يتمنّع بداية الأمر، أستغلُّ رغبتهم في إطفاء شهوةٍ تتطلبها حاجة ملحةٌ لأجساد تتوق إلى ممارسة الجنس، ولو لم تكن هناك رغبة أصيلة في نفس من أغويه ما كان ليستجيب، ويحدث ذلك، نمارس الجنس مرة أو مرتين، لأجده فيما بعد هو من يطلب مني ذلك، ويصرُّ في مرحلةٍ لاحقةٍ على تبادل الأدوار بيننا، ومنهم من أمارس معه مرة أو مرتين ليختفي بعد ذلك ولا أراه، الأمر يختلف من شخصٍ لآخر .

• كثيراً ما تعلّقتُ برجالٍ زُمتُ وصالهم وأحببتهم، لكنهم لم يستجيبوا لنداء القلب، أرادوا ممارسة الجنس لأجل الجنس دونما التفاتٍ لمشاعري، بذريعة أن الرجل لا يمكن أن يهوى رجلاً مثله، هناك مصاعب كثيرة تواجهني ومشكلات كبيرة أقع فيها جرّاء ذلك .. لكن هذا ما أهواه .

• مشكلات من أي نوع؟

• تعرّضتُ مراراً للسرقة، ومرّةً لمحاولة قتل، ومراتٍ للاحتيال .

• تبدو مُعاركاً قوياً لتصل إلى غايتك .. فهلا حدّثتني عن محاولة

القتل أولاً ؟

• كنت أسيرُ في زقاقٍ ضيقٍ مُظلم، لفتني وجود شاب يقف عند باب داره، كان جميلاً، غمزته بعيني وأكملتُ سيرتي، وصلتُ لآخر الزقاق ومن ثم عدتُ لأمرّ من أمامه مُجدّداً، أدرك ما أريده منه، قبضَ على يدي وشدّني نحوه قائلاً : ” من لا أستفيد منه، أترك عليه أثراً ” كانت بيده الأخرى خنجرًا صوّبه على يدي فسال الدم غزيراً، انشغلتُ بيدي لأرى ما حلّ بها وقد آلمني الجرح، حاولتُ تخليص نفسي من قبضته، فسارع إلى طعني في بطني طعنة خفيفة، لم أشعر بألم ولم أره وهو يصوّبُ طعنته، أفلتُ منه وركضتُ بعيداً، حينها شعرتُ بحرارة في بطني، كان ينزف، لكن الطعنة لم تكن قوية، اتصلت على الفور بصديقي، أخبرته بما جرى وطلبت منه أن يحضر سريعاً إلى بيتي، من هناك أسعفني إلى المستشفى.

• ما الذي أخبرتهم به في المستشفى ؟ من المؤكد أنك لم تقل الحقيقة

ضحك أسامة وهزّ برأسه نافياً، في هذه الأثناء كان يم يُقدّم لنا فناجين القهوة .. أتبع أسامة قائلاً :

• طبعاً لم أخبرهم بالحقيقة، قلتُ لهم إنّ غريباً هجم على شقتي وحاول سرقتي وحين قاومته طعنتني، و فرّ هارباً .

• هذا الرجل رفض إغوائك له وممارسة الجنس معك، لكن ما حال من سرك ؟ يُفترض أنهم مارسوا معك الجنس وانصاعوا لرغبتك

• هذا مؤكد .. كانوا بعد مارسثهم الجنس يحملون معهم ما خفَّ وزنه
وغلا ثمنه، أجهزة هاتف محمول، ذهب، مبالغ نقدية، كاميرات،
أجهزة كبيوتر محمول، ومرة سرق أحدهم جهاز التلفزيون والفيديو
أثناء وجودي في الحمام ولم نكن قد مارسنا الجنس بعد، أحدهم
بقي في بيتي شهراً كاملاً وقد أتى من محافظة أخرى وحين غادر ..
سرقني .

• كيف كانت علاقتك مع والدك ؟

• كان قاسياً عليّ، ومجرماً بحق، كثيراً ما كان يضرب والدتي، كنت
أحاول إبعاده عنها بجسدي الصغير فكان يهجم علي ويوسعني
ضرباً مبرحاً، أمسكني مرةً من رقبتني وجرّني إلى الحمام كالنعجة
التي تساق للذبح، وضع رأسي في فوهة الصرف الصحي، ثم قام
بجلدي .

دُهِشْتُ وَقَطَّبْتُ ما بين حاجبيّ، رأيتُ تلك الروح الطفولية وهي
تُعذّب بتلك الطريقة الوحشية، وتُحرق بنار لا تخمد، لم أع أنّ دمعاً
انهمرت من عيني حتى اقترب مني يم يَشُدُّ على يدي هامساً :

• قيصر .. أرجوك تماسك .

عدتُ لأراها أمامي .. أسامة ويم ، قلتُ :

• ما عمله ؟

- كان ضابطاً في جيش صدام .
- أنت عراقي الجنسية إذن ؟ .
- أجل .
- كان أبي مكروهاً من زملائه في العمل، أرادوا ” تكسير رأسه ” فخطفوا أخي، لكن أبي استطاع تخليصه قبل أن يقتلوه، وهربنا جميعاً إلى سورية بعدما هددوا أبي بخطفي وقتلي .
- هل تعتبر أن وجودك في سورية يحقق لك الأمان أكثر ؟
- بالطبع .. أهلي عادوا إلى بغداد، صحبتهم لفترة، لكن الأوضاع سيئة للغاية في العراق، هناك جماعات مُتطرفة تعارض وجودنا وتسعى لمعاقتنا والنيل منا لمخالفتنا الشريعة وتشيُّبنا بالنساء حسب زعمها، ارتداء الجينز الضيق، إطلاق الشعر وربطه للخلف، تحديد الحواجب واستعمال الماكياج، كما أفعل أنا الآن، كل ذلك يعتبر خطيئة كبرى تستوجب القتل والتنكيل .
- كيف كان التعامل مع المثليين سابقاً قبل احتلال العراق ؟
- كانوا يتمتعون بحرية أكبر خلال حكم الرئيس صدام حسين، لكن العديد من وسائل الإعلام تصفهم بالشاذين جنسياً ما جعلهم لقمةً سائغةً بيد الجميع، خاصة أنهم يفتقدون لأي تعاطف اجتماعي أو إعلامي .

• إذن .. فالأمر لا يقتصر على محاربتكم من قبل الجماعات المتشدّدة فقط بل يشمل المجتمع بأسره .

• أجل هذا صحيح، لكن مع وجود تلك الجماعات، وغياب أي نص قانوني واضح حالياً يحدد طبيعة التعامل مع المثلية الجنسية، فقد بات الأمر يخضع للاجتهادات الشخصية، القانون أتى على ذكر حَزَق العُزْف الاجتماعي أو الديني وعاقب عليه، لكن هناك تعتياً إعلامياً، وتواطؤاً رسمياً، على جرائم القتل التي طالت عدداً كبيراً من الشبان بتهمة التشبُّه بالنساء والمثلية الجنسية التي يُصْرُون على اعتبارها شذوذاً جنسياً .

• ما العقوبات التي يتلقونها بالشكل العام ؟

ابتسم أسامة بمرارة .. بدا وكأنه يستذكر صوراً مؤلمة قائلاً :

• عقوبات ؟!! قُل جرائم غاية في البشاعة يندى لها الجبين، فمن القتل بكافة طرقه وأساليب تنفيذه إلى تشويه الأعضاء التناسلية بمواد لاصقة حارقة ينتهي بالموت، إلى التعذيب بكافة صنوفه وكسر الأضلاع، ناهيك عن الاعتداءات المبرحة والتعرية أمام الناس، والسخرية من المتشبهين بالنساء، هناك حَزَق صارحٌ للحقوق الشخصية والحرية الفردية التي يكفلها ويراعها الدستور العراقي، لكن الحكم على الأرض يتخطى أي قانون وضعي .

• أسامة .. ما دراستك ؟ وكيف انتهى بك الأمر في العراق قبل مجيئك إلى سورية ؟

• درستُ علومَ المصارف، لم أستطع تحمُّلَ الوضعِ هناكَ فَعُدْتُ، أهلي يعرفون أني مثليّ الجنس وقد رفضوني وأنكروني، خاصةً أنني كنتُ على علاقة جنسية مع أحد الغوغائيين في العراق، علم أبي بأمرِي فاشتدَّتْ قسوته عليّ إلى أن تركتُ المنزلَ وسافرت .

• وكيف ترى حال المثليين هنا في سورية ؟

• لا خطرَ يهدِّدُهم ظاهراً، لكن حالهم في الحقيقة ليس مُرضياً، ومُرضياً بذات الوقت، هم منبوذون ومكروهون، يتلقون القسوة والعنف أحياناً من المجتمع، لكنهم يُقاومون، نحن نحيا في عالم مجنون .

• هل سمعتَ من خلال علاقاتك حادثة تُروى أو حكاية لمثليّ يجدر تناولها أو التطرُّق إليها ؟

• يُحكى أنه منذ سنين خلتُ أقدم أهل منطقة في الريف هنا على قتل شاب بعدما علموا أنه مثلي فقطعوا رأسه وأرسلوه إلى أهله .

• أكاد لا أصدِّق، قلت لأسامة والحروف تطعن الهواء المحيط :

• هل أنت متأكد من ذلك ؟

• لا .. لستُ متأكداً من صحة ما ذكرت .

شردتُ .. هكذا إذن، إن كان هذا صحيحاً فما نراه حالياً ومنذ بداية الأحداث الدامية في سورية من مقاطع فيديو تُنشر عبر Youtube لم يكن

وليد الأزيمة، ومن هم يُشَرِّعُونَ لأنفسهم محاكمة الأبرياء الآن، الآن، بقتلهم
وجزّ أعناقهم وسخّلهم وتقطيع أجسادهم وفصل رؤوسهم عنها ما هو بجديد
.. لكنه ربما التعتم على ما كان يجري من جرائم لم يشأ أحد أن تتوسّع دائرة
العارفين بها، كيلا يكون لها الأثر السلبي على المجتمع، لكن أولئك المجانين
دائماً لديهم ما يبرّر لهم أفعالهم حسب معتقداتهم وما يدعون ارتكابه باسم
الدين .. والله .

سحق أسامة برهة الصمت التي مرّت قائلاً :

• أعلم بمحادثة قتل القنصل المثلي الذي قتله أربعة رجال أراد ممارسة
الجنس معهم، لكنهم قتلوه وسرقوه، كما سمعتُ بجرمة قتل مثلي
أراد الإيقاع برجل مرتبط بمثلي آخر لم يستطع تحمّل ما كان يمارسه
ذاك الذي قُتل من غواية فأرسل إليه من رماه من شقته الواقعة
في الطابق السابع .

• ألا تجد بعد كل ما ذكرته .. أنك في خطر دائم ؟

• ربما .. لكن ما ذنبي إن خُلقتُ وأنا أهوى الرجال ؟

• الأمر ليس بيدي ولم أختز أن أكون مثلياً، المجتمع يحاكننا بسواطير
التخلف والجهل، لمجرد أننا لم نُظهر ما يناقض دواخلنا، وإلا
كيف أفسّر قبول رجلٍ عادي بمضاجعتي وهو طبيعيٌّ بنظر نفسه
والمجتمع ؟

• ولكن .. أنت من يقوم باستدراجهم وغوايتهم يا أسامة ! .

• ها ... وهل أُجبرهم على ممارسة الجنس معي؟! من رفض منهم ذلك طعني، أما البقية فكانوا يمارسون الجنس معي بمتعة كاملة، هم كاذبون ومنافقون، يُظهرون نقيض ما يُسرّون، أستاذ أدونيس، هذا المجتمع الراض لنا هو من يدفعنا باتجاه حلبة مصارعة، هم يتشاطرون بقذفنا بالبرتقال فقط في معاركهم .

قهقه أسامة فانفلتت ضحكةً ماجنةً من يم ذكّرني بما سمعته في الحفل الذي حضرته .. قلت لأسامة :

• قل لي ما حكاية معركة البرتقال ؟

• ألم تسمع بها أيضاً .. أين أنت يا رجل مما حدث ويحدث ؟

• يبدو أنني مُعيّبٌ عن الوجود .. قُلْ وأتحفنا .

التفت أسامة إلى يم طالباً منه أن يقصّ عليّ الحكاية ليتسنى له ارتشاف القهوة، شرع يم يحدّثني بجيوية قائلاً :

• المثليّون عادةً يا صديقي لهم أماكن يجتمعون فيها، من بينها حي الشعلان، يجتمعون في السوق الرئيسي كل مساء، يُغنون، يُهلّلون، يرقصون، البعض يقود سيارته ويجوب السوق، يعني .. يمارسون حرّيتهم بتواجدهم في هذا الشارع، وقد حدث مرة أنّ حضرت دوريةً من الضابطة الشرعية وقذفت المثليين بالبرتقال، فاخففوا خلال لحظات .. فقط هذا ما حدث .

• أعلم أنهم يجتمعون هناك وأراهم أحياناً حين أمرُ بسيارتي، لم أعلم بهذه المعركة الطاحنة، لكن السؤال : ألم يقدم أهل الحي شكوى بحقهم ؟ بصراحة صَحَّبهم لا يُحتمل، ومظاهرم غير مقبولة، هل تُصدِّق أنني أتجنَّبُ المورز في الشارع إلا في حال كنت مُضْطَّراً ولا سبيل آخر أمامي ؟

انبرى أسامة بالرد علي، عندما خرج يم للردّ على مُتَّصِلٍ به وقد بدا أنه أحد الحاضرين للحفل .

• لم يشتك أحد من الأهالي فقد اعتادوا على حضورهم، ربما كنت مُحَقَّاً كونهم يتسبَّبون بإزعاج قاطني الحي لكن أين يذهبون ؟ .

• رأيت .. هناك تَغاضٍ نوعاً ما عنهم ومعركة البرتقال كانت مجرد مزحة .

• لا أنكر ذلك، ولا أَدافع عَمَّن يُحدِّثُ الفوضى أو الصخب .

• أخبرني .. ما نوعية الرجال التي كنتَ تصطحبها إلى بيتك ؟

• لست منهم اطمئن ..

ضحكنا ثلاثتنا بعد أن انضم يم إلينا من جديد، فاستأنف أسامة قوله :

• لا أستطيع أن أحدِّد لك، أي رجل يعجبني كنت أحاول إغواءه وأصطحبه إلى بيتي، المهم أن يحقق لي المتعة التي أنشدها .

• كونك تلقَّيت قسوة وعنفاً من والدك .. هل انعكس ذلك على

طريقة ممارستك للجنس ؟

- أظن ذلك، فأنا أهوى من يضربني ويكون عنيفاً معي أثناء الممارسة، كما أكون عنيفاً في بعض الأحيان
- توقَّعتُ ذلك، هل يعرف أهل الحي حيث تسكن، بمثلتيك ؟
- أظن ذلك أيضاً .

التفتُ أسامة إلى يم ليحدّثه قائلاً :

- لم أخبرك .. البارحة أتاني شابين في مقتبل العمر يريدان أن أمارس معهما الجنس، طردتهما فوراً، لكنني أحسستُ أن أحدهما كان خائفاً ومُرتبِكاً وكأنه أُجبرَ على الحضور مع صديقه .
- قبل أن ينطق يم بحرف .. قلتُ لأسامة :

- انتبه أسامة، ربما كانا قاصرين، حاذر من التورط مع صغار السن، واتي شرٌّ مَنْ تَعْرِضُ عليه من الكبار أيضاً، أرى أنك في خطر ويجب أن تتبه جيداً، هل تريد أن أستضيفك في برنامجي حين نبدأ بإذاعته ؟

- أجل وبكل تأكيد ..

obeikandi.com

يوم المرأة العالمي، احتفيتُ به في برنامجي، أُجريتُ اتصالات هاتفية مع الأديبات السوريات كوليت خوري، أنيسة عبود وسهام الشعشاع، وقرأتُ أجمل ما كتبه الأديبة غادة السمان، تلقيتُ اتصالات كثيرة من متابعي البرنامج، كان الاتصال الملفت الذي استدعى شريط ذكريات مُحصّنة لي .. من روزالين :

” اشتقتك قيصر .. بدي أسمع غنية ” أخاصمك آه ” لنانسي وشكراً إلك ” .

اعتذرتُ منها لعدم اختصاص البرنامج بتلبية طلبات المستمعين من الأغاني، ووعدتها بأن تُداع الأغنية في وقت آخر ، ختمتُ هبة الله فقرة الاتصالات بشكرها لما تم تقديمه في هذه الحلقة، وقد سرّبتُ عبر اتصالها كلمات تعبق بالحب، متعمّدة توجيه رسالة خاصة إليّ .

حين خرجتُ من الأستوديو ألفتُ ألماً تقف في بهو الاستقبال بمبنى الإذاعة، تحمل باقة من الجوري الأحمر، قدّمها لي مع فيضٍ من كلمات الشكر .

في مطعم ” ديليس ” بالصاحية، قرأت بوضوح عشق ألما، كشفت لي عن قصائدها الليلية وأقاصيصها، وما كانت تخطه بجزر أحاسيسها ليلاً، فتحتني به روحها في صباحات أيامها لتغزل شالاً من أمل يعينها على تحمّل حاضرها .

تحدّثنا طويلاً عما تحلم بتحقيقه بعد عصفِ ريحٍ كادثٍ تطيح بكل ما يربطها بالحياة، أخبرتني عن زوجها حازم، ومك قاست لتتزوج به، كم عاندها القدر ومك ناكفته لتظفر به زوجاً، اختلاف الدين بينهما ما كانت لتستسلم له فتخسر حبها، عارض أهلها زواجها وقاطعوها سنين، لكنها أصرت على توفير الحد الأدنى المقبول من التواصل بما لا يحرم أولادها من بيت الجد، رغم أن والدها وحتى هذه اللحظة يبدو مُحْتَفِظاً ببرودٍ يُخفي سعيه نارٍ تتأجج في داخله ناحية إظهار وده وقبوله بتواجدها في بيته، كثيراً ما تفاجأت به يلعب أطفالها ويعني لهم ما كان يبرع في غنائها لها حين كانت صغيرة، ضبطته غير مرة يروي لهم القصص، وكان حين يلمحها يعود لوقاره المتعمّد مرتدياً ثوباً من الجليد فينقل صقيعه إليها بنظرة، ورغم أنه بات يستقبل حازم في بيته لكنه نادراً ما اهتمّ لوجوده أو بادر بسؤاله عن أحواله، قبلت بذلك واعتبرته تقدماً كبيراً قياساً لما عانتها في سني القطيعة .

لكن حازم هو من يُورقها الآن، ويضيق عليها الخناق، بعدما تبدّلت أحواله، وخفّ بريق الحب الذي كان يكنه لها لا بل أمست تراه ينعدم أمام لوثة أصابته منذ سنتين، إثر وعكة صحية ألمّت به، فابتعد عنها،

وابتعدت عنه، باتت تنام في الصالة كضيفٍ اضطرَّ للمبيت عنده، انقلب على عواطفه واستلَّ خنجر الصمت ليطعن به صخب الحياة التي كانت تتسع لفرحهما وضحكهما، تحوَّل تدريجياً في بثِّ مشاعر الحب نحوها لتقرأ في نظرات عينيه حكايات البُغضِ والنفور، واستطردَّ في تعبيره عمَّا يُشعرُها بضحالتها، مُبالغاً في تفريره، مُرابضاً فوق تخوم أناه، لدرجةٍ باتَ يَعتبرها مُهمَّشةً في مجتمعا بدونه، مُهملةً من دون سطوة حضوره، وفارغة من أي محتوى إنساني وعقلاني، كثيراً ما ردَّدَ على مسامعها جملة ” أنا من صنعك وبيديَّ هاتين أستطيعُ تحطيمك ” ترافقُ همسها لعبارته تلك مع استسلام دمعها لحزنها المقيم .

كنتُ أنصتُ لها دونما مقاطعة، لم أرِدُ أن أكون موتاً يهاجم بوح روحها فيلبسها كفن الصمت .

وكنْتُ قريباً منه ومنهما .. ألما و روزالين، أبعدُ عني ظلُّ الصوت، لأفسح المجال لصوتِ قادمٍ منْ جهةِ الأزرق .

حين تحيك الروح ثوب الانعتاق لا ترى في الموت موتاً، يغدو الكلام لغواً، ونُصِرُّ على اعتباره ترياقاً، فنُكتِفُ إحساسنا بجدواه، نُصرُّ عليه دونما طائل، لكنني الآن استأثرتُ به، حين استرجعتُ لغة الموت .

و ألما .. بجملة حازمٍ دفعته لأنورٍ بتهدئةٍ خاطرها علَّها تستكين وروحي، بعد فوات الظن بذاك الحزن، أحيثُ توقُّ اليقين .

لمسْتُ ظاهر كَفِّها بأصابعي، راجياً رُوحِي أن تَمُدَّها بطاقة إيجابية
تَسْلُبُ منها ما تَكُدِّسُ من حطام، ضَمَمْتُ كَفِّها بجنونٍ، سَأَمْتُ أصابعي دَقَّةَ
الحديث، و لعينيَّ ناي الطمأنينة والتأمل، انتبذتُ ركناً عصياً على الرؤية،
فترنَّحُ الحزن في عينيها وغاص في قشعريرة الخيال .

حَدَّقْتُ في وجهها .. كان شاطئ عينيها يدعوني للإبحار في زُرْقَةِ اختارتها
لتلَوْنَ بها حدقتيها .. فاستجبتُ .

رجاني مَبْسُمُها لأفْرَجَ عن ابتسامَةٍ كادت تتلاشى أمام بوحها المتراجع
.. فلبَّيْتُ .

شعرها المنسدل على كتفيها دونما قيد يمنع نسائم الليل من التغلغل فيه
لتسَرِّدني فألاقيه مَرْجاً لجموح أحصنة رُوحِي المتوثبة عالياً وصهيلها يكاد
يُفْطِرُ قلبي .

ما رأيتُ في ألما في تلك اللحظات امرأةً من طين، أَلْفِيئُها روحاً تُعَانِقُ
رُوحِي لئنهي ما يدور في رأسي من جدل، ما عانقتها إلا بإحساسٍ رَهِيفٍ،
وما ضَمَمْتُها لصدرِ رجلٍ ليكون مطواعاً أمام غوايةٍ بشريةٍ حسية، صارحُها،
فلقنْتُ حروفي دَرساً في الصمت لتُسَكِّتَها عما اعتاده البشر ولم تَعْنُدْهُ هي
وما رضيتُ به خاتمة لسهرتنا معاً، فودَّعْتُها تاركاً في روحها أغنيةً عصيةً على
الفهم .

فَكَّرْتُ ملياً بحالة ألما .. عُدْتُ لأجدها تنتظرنِي على موقع Facebook

.. كتبتُ في صفحتي :

” أقصيك عن محلي، أذودُ عن كثرتك في روحي، أجنحةُ البرق تصفَعُ صَحْبِي، نوافذُ فجرِك تُنجيني من حُفرِ الفراغ، أراني .. مُمتلئاً بصباح ” .

نَشَقْتُ عبيْرَ روحها فيما يكتبه قلبها، لكن أردتُ حسمَ الأمر من بدايته لكي لا أجلب لها التعاسة، ولا أزيد في حزنها، امتشقتُ سيفَ الصراحة وجعلتُ أدمي أوهامَ الخيال، أحببتُ روحها، لكن ما يجعلني أصدُّها عما تستغرق في إظهاره نحوي أقوى وأكبر ما تجهد في إغراق في بحره، ولستُ بمعرض كشف سبب إصراري على أن نتحدَّى بروحينا ما يهزنا من الداخل في هذي الحياة، بنَّت لي شكواها من حازم مُجدِّداً، إثر مشاجرة ليلية أعقبَتْ دخولها المنزل، حاولتُ أن أثنيها عما تفكَّر فيهِ، ذكَّرتُها بأولادها وبماضي حبها لحازم، قرأتُ اندهاشاً لديها من موقفي، ذكَّرتُها بروزالين، وبما تركته في روحي، لستُ بمستصرخ أعواد صمتها لأشعلها بعد الآن، يكفي أنني اتخذتُ قراري بالانفصال وأنتهزُ الفُرصةَ حالياً لأطرح الموضوع بشكل نهائي .

رَكَزْتُ في حديثي معها على حوار الروح للروح، عن أواصر تقوى من دون أن تتسبَّبَ بانتهزاتٍ تفرضا الحياة المادية والحسية، لكنها أمعنث أكثر في لغةٍ تريدها لتعوضها عن إخفاقاتها مع حازم، وهذا ما كنتُ أبتعد عنه، وأناى بنفسي عن الولوج فيه معها، لأسباب عديدة، ما بحتُ لها منها إلا بما يتوافق مع فكري التي ركَّزتُ عليها، فاتَّصَح لي أن لغتها قوية

مُستنفرة، وهذا ما أثارها، بعدما تثبَّت لي أنها تعتبرني الواحة التي ترتاح إليها في كل ما تواجهه مع حازم، وهو ما أرهقني وبثُّ أمقته في حواراتنا، إذ لم أسعَ لأنهمي زواجي بروزالين، لأتزوَّج قضية معاناة ألما مع زوجها، ولأقتحم حياةً لستُ قريباً منها، ولا يدي لي فيما يزيدا كُزهاً له واحتقارا .

لغتها ليستُ غريبة عني، وإن كنتُ لستُ بناطقِ حروفها معها، لكن هذا لم يمنعني من استخدامها مع أخريات، ولستُ بصدد التذكير بذلك، أو بموضع الاعتراف، هذا شأنُ يعينني وحدي، لكنها لم تع ذلك، رغم محاولاتِي المتكررة لإصلاح ذات البين مع حازم، لكن دونما فائدة، فالقلبُ في فضاءٍ آخر ليس له، وأراهما لا يتشاركان في وجهة نظر واحدة لإيجاد ما يجمعهما معاً .

ما رسمتهُ من صورةٍ لحازم وفق ما نقلته لي عنه، قبَّحهُ، شوَّههُ، وأرداهُ صريعَ الإنسانية التي يجهل، وهذا ما استفزَّني لأعتر لها عن رغبتِي بالعرُفِ عليه، ربما أكتشفُ لغة خاصة يحتاجها ليتفاهما بعدما ضرب الشقاق بينهما قلب الوفاق فابتعدا كُلُّ في واد، وقد عرَفني بحُكم عملي في الإذاعة وما تُوليه هي من اهتمام بما أُقدِّمه، لذا كان من السهل علينا أن نلتقي يوماً، وهذا ما كان، حين دُعينا إلى مسرح الحمراء بدمشق، رأيتُه أمام عيني للحظات قبل دخولنا لحضور العرض المسرحي، كان الحشد الجماهيري القادم لحضور الحفل مُذهلاً وجميلاً، كأن الدمشقيون في حينِ جارفٍ لاستعادة نبض الحياة الطبيعية الخالية من بقع الدم وسيرة الموت

والحرب، ألفتُ حازم رجلاً غامضاً لكنه لم يكن بالقبح الذي صوّته أماً، رجلاً جدياً لكن ليس من الصعب التفاهم معه، وقلتُ ربما، لا بل إنه لن يُبدي لي ما يُخفيه من شخصيته، إذ ليس من المنطق أن يكشفها لكل من يتعرّف إليه، كان حازم رجلاً طويل القامة، ضخم الجثة، طفولي الملامح، لكنني قرأتُ حزناً في عينيه، وضياًعاً في روحه، وبؤساً في نبرة صوته .

تناهى إلى سمعي أثناء دخولنا المسرح هُمساً بين اثنين يبتُّ أحدهما للآخر خشيته من استهداف المسرح بقذيفة هاون أو بعبوة ناسفة تقضي على من حضر، ليكون الموت هو المخرج الحقيقي للعرض بكوميديا سوداء اعتاد أن يرغمنا على أن نكون ”كومبارس” في مسرحيته السمجحة، تلقّيتُ لكزّةً من أحدهم أثناء هبوطي الدرج المفضي إلى المقعد المخصص لي، التفّتُ وسرعان ما غبتُ في أحضان شخص لم أتبّينه إلا حين أعتقني، سعيد، صديقي منذ أيام الدراسة، كانت مصادفة جميلة أن ألقاه بعد كل هذا الزمن الذي مر، لمحتُ دمعَةً تُفّرُ من عينه حين اتخذنا مكاننا في الصف الأول، رُفعت الستارة .. وبدأ العرض :

قدمان تتسللان فوق خشبة المسرح، تبدوان في جاهزية كاملة لأداء دور يبدو أنه يعتمد على حركة ابتدأت بتمهّلٍ ورتابة، ثم ما لبثت أن تبدّلت فسيطر الوجّل والتردّد على إيقاعها، تراجعت وانكفأت، إلى أن وصلت مرحلة الحركة المنعدمة، حركة دونما حراك، أشبه بظلّ ميت .

ثمّة شخصية تصنع الحدث عبر نصّ يُصوّر الواقع الموتور، يدمج الحدث

الحقيقي بالخيال المنسرح مع أنغام المقطوعة الموسيقية الساحرة ” حب في دمشق ” للموسيقار رضوان نصري، صوت ” لينا شاماميان ” الأسر يرافق الموسيقى ويرفق بنا بـ ” يا ليل ” أما العين فما هي تتابع وتنسج من دمعها حَبْل قَهْر .

الموسيقى ترافق وَفَع الخطوات على الخشبة، بدا لي أنه من المبكر البحث في ماهية هذه الخشبة، ربما كانت مُتَشَكِّلة من نجيع، ربما من أغصانٍ جَفَتْ عروقها على يباسِ الروح، ربما من أحلامٍ فَرَّت تاركةً الهشيم، عنوان الحكاية، المشكلة لا تكمن هنا، ربما تكون خشبة الحياة بكل ما فيها، خشبة مُهْتَرئة نَحَرها السوس وقذف بها نحو غريقٍ وسطَ بحرٍ احترقت خشبة ما تواجه، بدت لي الموسيقى الداخلية للبطل والإضاءة مُسَلطة عليه وحده أشبه ما تكون بنواحِ الريح في ليلةٍ ظلماء، عدسة كاميرا مُحْفِيَّة تَظْهَرُ بضع ثوانٍ فَتَظْهَرُ الأبعاد الخاصة لتكوين الحكاية من ألفها إلى يائها، وتختفي لتندمج ” أنا ” الرائي مع مسار كل تفصيل أرادته المخرج فأبدع، صارمة توجيهاته في تحديد مسار الخطى وتعرُّجاتها لاستنباط حالة فريدة لا تشبه حتى ذاتها، لكنها تتطابق مع ما يخلقه في أرواحنا، إرادة مسلوقة في رسم نهاية المشهد الذي يعود إلى زمنٍ مُتَقَلِّ بالهزائم .

جَلَبَة يُحَدِّثُهَا خَلِيطُ أصواتٍ لأشخاصٍ يظهرون فجأة فوق الخشبة، يتوسَّطهم رجلٌ مُسَنَّجٌ يرفل ببياض كالضمير

قدمان غريبتان عن المسرح وَطَيْتَا خشبته مع الطلاب، كان جالساً

بجانبي للتو، سعيد، الذي أخبرني أنه أتى لإعداد دراسة نفسية عن أداء الممثلين، كأطروحة لرسالة الماجستير التي يُعدها حول تماهي شخصية الممثل مع الدور الذي يؤديه ومدى تأثير كل منهما في الآخر .

يبدو أن الإيقاع الذي جسده الطلاب في الأداء التمثيلي كان مفاجئاً له أكثر من غيره، فقد جسدت المشاهد ما تركه الزمن محفوراً في ذاكرته، وهي ما أعادته على ما يبدو إلى سنين مضت .

صُنِبَ الإيقاع المتواصل، كان كفيلاً بنقله من خشبة المسرح هذه إلى بيته في ذلك الحي المضطرب على أطراف المدينة التي هُوِجَتْ من قبل رجال مُدَبَّجِينَ بالسلاح في ليلٍ حالِكٍ تركَ لفجرِ اليوم التالي، الأحمر القاني هديّةً للجدران، شهادةً حيّةً لزفواتٍ عانقتُ النجيعَ لتركُ بُعْغاً في الرُّوح لم يستطع الزمن إزالتها، طائر اللقلق يحومُ بحزنٍ فوق رأسه .

بعد الصخب المحدثِ عمداً في فضاء المسرح، عاد نبضُ الإيقاع الموسيقي يتسارعُ مُرافقاً لتسجيلِ مرئيٍّ على شاشةٍ عَرْضٍ كبيرة، أُعِدَّ لمرافقة المشهد التالي في المسرحية، سورية وما تواجهه من محاولات التقسيم، حرب قدرة أتت على البشر والحجر والشجر، تهريب آثار، مُتاجرة بالأعضاء البشرية لمخطوفين، والكثير من العناوين التي مرّت على شاشة العرض من دون صور، صمت .. صمت أطبق سطوته على المكان، مع تركيز في الإضاءة على قدمي سعيد، فاجأه الصمت، ذهّمهُ، حلّ فيه كضيفٍ ثقيل الظل بعنْفٍ مُقيم، تقهقرَ راجعاً ليجلسَ على كرسي هَزَّاز في زاويةٍ شَخَّ عنها النور، وقد

استشاطت الدماءُ في عروقه موتاً، ها هو يرى نَضْبَ عينيه قصَّةَ والده وأخيه تتجسَّدُ تمثيلاً على خشبة المسرح أمامه، تسارع وجيب قلبه مع تواتر الإيقاع والمشاهد المؤدَّة، أحسَّ بالعرق يتفصَّدُ مِنْ جبينه :

” دَمٌ دَمٌ تَكُ تَكُ دَمٌ دَمٌ تَكُ ”

قطراتٌ تَنْزُّ من جوف الجدران المحترقة بأنفاس الضياع في رُدْهَاتِ الغضب المتحكِّم بتلايف الجراح .

” دَمٌ دَمٌ تَكُ تَكُ دَمٌ دَمٌ تَكُ ”

قبضاتٌ قويةٌ تُمَسِّكُ بِيَاقَةَ الذكريات لتستدرجها، فتحضر مُدْعِنَةً لنداء عصِيٍّ على نكران أثر، الأثر تَضَخَّمَ واستحال كوناً بحجم الكون .

” دَمٌ دَمٌ تَكُ تَكُ دَمٌ دَمٌ تَكُ ”

جسُدُ شابٍ كان واقفاً يغسل وجهه بعد نهار شاقٍّ أمضاه في تعليم الأولاد الصغار، لكن الرجال المثلِّمين جاؤوا من الزاوية الأخرى، كما أتوا أولئك المجرمين، يوم كان سعيد طفلاً صغيراً، ليلقنوا الواقفَ أمام المرأة دَرْساً في كَيْفِيَّةِ تَنَاطُرِ الدماءِ على جدران البيت، بعد إفراغِ بَضْعِ رصاصاتٍ في رأسه .

” دَمٌ دَمٌ تَكُ تَكُ دَمٌ دَمٌ تَكُ ”

عينا الوالد المتهالك تشيانٍ بالعمى، بعد فاجعةٍ مَقْتَلِ ابنه الْبَكْر

أمامه، لكن هؤلاء الرجال قَدِمُوا لا ليكتفوا بقتل ابنه البكر أمام عينيه، بل لجعله جثة هامدة، بعد أن تَدْرَفَ عيناهُ الفجيعةَ بمرارةٍ مُمَصَّةٍ في آخر عهدٍ لهما في الحياة

” دَمٌ دَمٌ دَمٌ تَكَ تَكَ دَمٌ دَمٌ تَكَ ”

كان طفلاً غَضّاً تَمَّ رَمِيهِ فِجَاءً في مَفَازَاتِ الفَقْدِ، وَأَتَوْنَ الإِرْهَابِ، ليشهدَ نَوْمَ الظِّلِّ بَعْدَ سَمْحِهِ، فمضتْ به السنون وظلُّ الموتِ ظِلُّهُ المَغْشِي لا يُغَادِرُهُ قَيْدَ نَفْسٍ .

” دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ ”

جسدٌ مُتَهَالِكٌ في الأربَعِينِيَّاتِ من عمره الافتراضي، حسب رِوزَنَامَةِ التاريخِ المهدور، وهو المجني عليه ينتفضُ إثر سماعه ذلك الإيقاع الدموي الجاني .

” دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ ”

تدهمه موجة ” كهر قهرية ” تسلب ما اختزنته نفسه المعدبة في بُؤْرَهَا المَغْشِيَّ عليها، فتحيلُ أطرافَهُ إلى مَعْقَلٍ تَجَمَّعَتْ فيه آلافُ الصُورِ الدامية فتنتفضُ، تهتزُّ، تَرْتَجِفُ، تُخَيِّفُ كُلَّ مَنْ كَانَ حَاضِراً، ترافقها صرخات وأَنَاتٍ و دَوِيُّ انفجاراتٍ داخليةٍ مُتتَابِعَةٍ .

” دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ ”

حصاراً من صنوف التعذيب القسري للذات، انفلتُ من أسرها، في لحظة لم تكن في الحسبان .

” دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ ”

محظتُ عينا الحقيقة في ومضةٍ رَقَّتْ لها عيون الحاضرين فصاغتُ من البكاء وشاحاً .

” دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ ”

أورامٌ خبيثةٌ تنفردُ بصنْعِ مشهدٍ لم يُؤدَّ قبلاً ولم يُعهدٍ لمخرجٍ قط .

” دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ ”

جسدٌ مُتهالكٌ على خشبة المسرح ورسالة الماجستير تقطر دماً من أذني مُعدّها .

” دَمٌ دَمٌ دَمٌ دَمٌ ”

تاريخٌ مِنَ التَّعذيبِ، تُنْقَلتُ قيوده في لحظةٍ شاردةٍ عَن عَقاربِ اللُّؤمِ .

” دَمٌ دَمٌ دَمٌ ”

انتفاضةُ رُوحٍ والظِّلُّ مَعْشِيٌّ عليه والجسدُ بالارد .

” دَمٌ دَمٌ دَمٌ ”

أيادٍ كثيفةٌ تحملُ جَسداً خواره يتعدَّى السماء لتصل سيارة إسعاف على الفور .

” دَمٌ دَمٌ ”

نبأ عن ولادة جديدة بارتعاش صوت لوليدٍ انزلق للتوّ .

” دَمٌ ”

تصفيق، تصفيق، تصفيق يتسبّبُ بعدوى لدمشق التي تشهد العرض الأول لهذه المسرحية وسط الموت الذي تشهده بتفجيراتٍ واغتيالاتٍ واستهدافٍ بقذائف هاون .

” تَكُ تَكُ تَكُ تَكُ تَكُ تَكُ تَكُ تَكُ ”

انتهى العرض

خرجتُ من المسرح، لسْتُ بقادرٍ على النطق، هنأْتُ سعيد على نصِّه ومشاركته تمثيلاً في هذه المسرحية وقد أخفى عني مشاركته بعدما تبين له أنني لم أقرأ ” بروشور ” العرض المسرحي .

عدتُ إلى بيتي، ولجتُ سريري، تكوَّرتُ كجنينٍ لا يريد الانزلاق من رحمٍ يبكي ماء الحياة .

في مساء اليوم التالي، خصصتُ فقرة من برنامجي لاتصالاً مع مخرج العمل ومؤلفه .. صديقي سعيد .

اتصلتُ بي ألما تسألني عن سبب اختفائي بعد العرض، ولتخبرني أنها قريبة من الإذاعة، راجيةً رؤيتي .

التقيتُ بها، سرنا في طريق يكاد يخلو من المارة، كانت ترتدي لباس الرياضة، وقد خلا وجهها من أي صبغة تجمل بها وجهها، حتى أحمر الشفاه لم يكن له أثر على شفيتها، صُدمتُ قليلاً وحاولت ألا أُشعرها بذلك، سرنا معاً نتحدّثُ فيما استدعى خروجها في هذا الوقت لتطلب رؤيتي، كانت قد تشاجرتُ مع حازم، وتركتُ له البيت، التصقتُ بي أثناء سيرها وقد لفّتُ خَصْرِي بيدها وأرختُ برأسها على زندي، كان المساء في دمشق ساحراً، لكن لم يكن أحدٌ ليعلم إن كان ذلك سيستمر أم أنّ تفجيراً هنا ربما يحدث، أو قَصْفاً هناك سوف يقع، لذا كان من الخطر أن تخرج ألما في هذا الوقت، مررنا في شارع تعبق فيه رائحة الياسمين الدمشقي الساحر، فانهمرتُ عليه كالندى، وبثُّ أرجوه أن يُقبِلَ يدي ليفوح عطره من روحي العطشي، ضَمَمْتُ باقةً صغيرةً وقَدَمْتُها لها، فبادرتني تقول :

- كم تعشق ياسمين الشام !!
- أجل .. لا أتصور أنّ الشام شامٌ من دون قاسيون والياسمين .
- أحبك ..
- ألما .. أرجوك، لا أريد أن تتعلّقي بي، أنتِ امرأة متزوجة، ولا أريد أن أوثّرَ على حياتك الزوجية فتهدمها كُرمي لحبك لي، كما أنني لم أتخلّص بعد من قيد روزالين، أفهمُ مشاعرك ولا أستطيع تثنيتك عنها أو دعوتك لكبحها، لكن ...
- لا أريد منك شيئاً، لم أطلبك بشيء، فلا ترهق نفسك وترهقني

معك، إبق لي في حياتي فوجودك يعينني على تحمّل قسوتها، وربما لو لم تكن موجوداً بقربي لأنهيتهما .

• ترفّقي بنفسك، وفكّري بأولادك، لا أريدُ لهم حياة يشيع فيها التفكُّك الأسري، ربما تستغربين حديثي هذا وكل محاولاتٍ السابقة معك، لكنها الحقيقة التي يجب أن تدركيها، لا مستقبل لنا معاً، لن أتزوج مجدداً وإن تخلّيت عن حازم .

قهقهت بشدة، والسخرية مطر يتبع برق ضحكها التي ضجّت في المكان :

• ماذا تقول؟! ومن قال لك إنني أريد الزواج مجدداً بعد طلاقٍ من حازم؟

• لا أريدُ أن تُسيطرِ عليكِ هذه الفكرة وأطلبُ منكِ مُعاودة التفكير فيها لأجل أولادك إن لم يكن لأجل حازم وحياتنا معاً .

بُهِتَ لونُ وجهها وانسحبَ جازراً أذبال الخيبة ..

• لا تُقل هذا الكلام الآن، دعني أستمعُ باللمحة معك، ما رأيك أن نساfer معاً إلى بيروت؟

• ماذا؟! إلى بيروت ..

• أجل .. ليوم واحد أو يومين فقط .

ضحكتُ من فكرتها، وقلتُ بسخرية :

- ونحجز في الفندق جناحاً أو غرفتين ؟
- جناح واحد، أو يكفيننا غرفة بسرير واحد، أو .. لا لا لن ننام أصلاً فلا داعي لحجزنا، نقضي الليل على شاطئ البحر، ما رأيك ؟
- أنتِ مجنونة .
- ألم أقل لك إنني مجنونة في الحب ؟ .
- أخشى عليك .
- نعيش الحياة مرة واحدة فلماذا نُرهقُ أنفسنا فيما لا طاقة لنا به ؟ .
- وحازم ؟
- يوووووه .. ما الذي تريده من حازم ؟ لماذا تقتل كل تصوّر جميل بيننا ؟
- قلتُ لك سابقاً .. أنا لستُ كباقي الرجال، ما يُفكِّرونَ فيه وَيَسْتَغْلُونَهُ بعيد عن تفكيري .
- فهمت، والله فهمت .. لكن ما المشكلة إذا سافرنا معاً إلى بيروت ؟
- فلنؤجل الحديث في هذا الموضوع .. يجب أن تعودني الآن .

كنت أقود السيارة في طريق عودتي من مقر الإذاعة، حين اتصل بي شهيد ليعلمني أنه سينتظرنني في ساحة الأمويين عند مدخل حديقة تشرين قادماً من مشروع دمر، كان كلامه مُقْتَضِباً أثناء حديثه معي، بدا صوته مخنوقاً بالكاد سمعته لا مِنْ سَوْءٍ في شبكة الاتصالات بل مِنْ حُزْنٍ كَثِيفٍ غَصَّتْ به روحه، كَأَنَّ أَمْرًا جَلَلًا أَصَابَهُ، لَمْ يَرِدْ أَنْ يَطْمَئِنِّي عَنْهُ عَبْرَ الهاتف، اكتفى بالقول : حين نكون في البيت أخبرك .

بقي طوال الطريق واجماً ساهماً، بدا الإرهاق والتعب قد نالا منه، اكتفى بالصمت جواباً يتيماً على أسئلتني المتوالدة إثر اكتشافني التغيرات الطارئة عليه، أردتُ كَسَرَ الصمتِ اللعين بدعوة جوليا لتحضرنا وتعني :

” بتعرف شو الحلو فيك، إني كل ما بلاقيك، بتحلا كتير بعيني، وصادق مية بالمية، عندك طلة وتأثير، إحساس وزوء كبير، من قلبك بتصارحني، لا بتكذب لا بتجرحني، ولا بتخجل من ماضيك، هيدا آه هيدا الحلو فيك ”

لم أستطع صبراً فكَّرْتُ طرح أسئلتني بأسلوب جديد، لكنه لم يُجِبْ .

بدا شهيد نحيلاً أكثر ما كان بكثير، مُسمرّاً داكناً، حاولتُ استنطاقه، لكنه أبى أن يتكلم، أطلتُ النظرَ إليه أثناء قيادتي للسيارة، كان يرنو نحو الأمام وكأنه ينظر إلى العدم، بدا ساهماً وقد خلث ملامح وجهه من أي تعبير سوى الأسى والقنوط، تحشجح صوته وهو يقول :

فُذ سيارتك دون أن تنظر إلي، ما بالك يا رجل !

تساءلتُ في نفسي وقد أصابني الدهول، ما الذي تغيَّرَ بشهيد ولماذا غاب عني كل هذه الفترة؟! كان يلاحقني ويؤنّبني حين أغيب عنه، وكلما اشتاق إلي يحدّثني عبر الهاتف ليخبرني أنه في طريقه إلي، إن كنتُ في مَقَرِّ الإذاعة أو في البيت، الآن يبدو إنساناً آخر ..

كعادته .. دخل المطبخ حيث يحبُّ أن يجلس، سارعتُ بإعداد القهوة لأجلسَ أمامه فقال :

• "كنتُ مُحْتَطَفاً" .

دُهَشْتُ، تَلَعَثْتُ، حارتِ الحروفُ فتكدّستُ ككومةٍ من اللحم المعجون بالدم :

• - ماذا تقول؟! متى حدث ذلك؟ كم بقيتُ مُحْتَطَفاً؟ لماذا لم تخبرني؟ من هم أولاد القحبة الذين خطفوك ولماذا؟ ما الذي يريدونه منا يا الله ..

كلمة "خَطَفَ" كانت تُؤثّرُ بي أيما تأثير، كلمة خطف كانت أشدَّ وَقَعاً علي

من أيّ فعلٍ إجرامي آخر، لأنّ الإنسان يموت آلاف المرات بين أيدي الخاطفين .

• هل عرفت الجهة التي اختطفتك ؟ وكيف استطعت الإفلات منهم ؟ أرجوك أخبرني ..

• لا أعلم من هم .. بقيت مُحْتَجِزاً لديهم ثلاثة أيام، لو لم أَدفع لهم المال لما خرجت، كانوا ثلاثة رجال وكنت عائداً من مطعم ” إشبيليا ” حدث ذلك على الطريق العام في جرمانا بعد ساحة البلدية، تقدّمتُ مني سيارة سوداء، تحدّثتُ إليّ من كان يقودها مُستفسراً عن مكان المطعم الدولي، وقبل أن أنطق بحرف كان السلاح مُوجَّهاً صوبي من ثلاثة آخرين أحاطوا بي ودفعوني نحو السيارة، أدخلوني فيها عنوةً وعصبوا عيني، المسافة التي اجتازوها قصيرة، كان المكان مُقفراً، أنت تعلم، جرمانا محاطة بالبساتين، بقيت ثلاثة أيام بلياليها .

• هل عدّبوك ؟ من هم ؟ هل أخبرت الشرطة ؟

• لم أخبر أحداً، ولا أعلم من هم .. حتى الساعة لا أصدّق أنني ما زلت حياً .

• هل عدّبوك ؟

• في اليوم الأول لم يقتربوا مني، لكنهم منعوا عني الطعام، وحين تناوبوا على حراستي فيما بعد، جلدني أحدهم بعنف .

استنفرْتُ واقفاً لأكشف عن ظهره وأرى ألوان التعذيب وخطوطها
الممتدة حتى الروح، أردف شهيد :

كان الشاب مخموراً، وسرعان ما انضمَّ إليه البقية، تشاجروا فيما بينهم،
عندما حاول من جلّدي قتلي، تصدّى له شاب امتلاً وجهه بالجروح
المندملة، رفض ذلك بحجة أن المال الذي يريدونه قد سلّم لهم، لحظة
كانت تفصل بيني وبين الموت، صوّب الشاب المخمور مسدسه نحو رأسي
ولقّمه، رأيتُ عمري ينسرب مني في تلك اللحظة، لكن الشاب الآخر أبى
أن أُقتل .

- لعنهم الله جميعاً، الحمد لله أنك بخير شهيد .
- لا بأس .. مرّث على خير .
- كم قبضوا وكيف دفعت لهم المبلغ ؟
- طلبوا بداية الأمر مليوني ليرة سورية، أبيتُ أن أدفع لهم المبلغ
وحلفت أني لا أملكه، دفعت لهم ستمائة ألف ليرة، طلبوا مني أن
أُتصل بأحد أصدقائي ليترك لهم المبلغ في مكان اختاروه .
- إذن .. هم ليسوا من المجموعات المسلحة الإرهابية .
- لا أظن ذلك، وإلا ما كنتُ نجوتُ منهم .
- هم عصابة إذن تتمن الخطف لأجل الابتزاز وسلب الأموال، لماذا
لم تخبر عنهم الشرطة أو الأمن ؟ .

- لأنني عرفت من كان وراءهم .
- من هو ؟ وكيف عرفت ؟ ما الذي أسكتك إذن بالله عليك ؟!!
- كل الدلائل تشير إلى شخص واحد فقط، وجميع من عرف قصتي أكد لي أنه أنه
- قل شهيد .. ربك قل لي من هو ؟
- أحمد ..
- أحمد !!! أحمد ؟؟
- أجل ..
- لماذا ؟!! أنت وضعت حاتم الطائي في جيبك حينما كنت تساعد وقد صرفت عليه وعلى أهله وابنه أكثر من مليوني ليرة سورية كما أخبرتني سابقاً .. لماذا ؟
- كان يُصرُّ علي في الفترة الأخيرة أن يرافقني إلى العراق ليعمل عندي في معرض السيارات، عندما رفضتُ، تغيَّرت أحواله معي، أسرَّ لأحدهم مرة وكان قد أسرف في شرب الخمر مع بنات الليل أنه سوف يجعلني أندم على رفضي .
- كنت مأخوذاً بمحبك له، أخبرتك مراراً أنك مسحور، لم تكن علاقتك به طبيعية، شهيد .. قل لي ما الذي أسكتك عنه ؟

• كنتُ أحبه يا قيصر، وأنت تدرك ذلك جيداً .. لا أستطيع أن أضرّه .

• تحبه؟! كنت دائماً تقول لي ” إن لم ينتج عن الكذب ضرر .. كان مقبولاً ” فماذا تسمي فعلته تلك؟ ألم يُصِبْكَ الضرر جرّاء كذبه عليك في حبه؟ وهل أحبّكَ بالأصل كما أحببته؟ أنت تعلم أنه استنفدكَ حتى آخر رمق، وكان يستغلك أيّما استغلال، كنت راضياً بذلك وقابلاً بنفاقه وخداعه مقابل أن يستمر معك في علاقة تشوبها الريبة وتلونها الظنون بالسواد .

تنبّهتُ إلى أن شهيد لم يكن يسمح بمناقشة أمر صداقته مع أحمد فاستدركتُ قائلاً :

• المهم الآن أنك بخير .. لا عليك، لا عليك، الحمد لله أنك بخير لكن اسمع ..

• صوّب نحوِي شهيد نظرة يأس تتماوج فيها ظلال غضب، قلتُ في نفسي ” لا بد أنه واقعٌ تحت تأثير سحره ” وأكملتُ :

• اسمع .. لن تطأ قدماك جرمانا بعد اليوم، ستبقى هنا، معي في بيتي، لن أسمح بأن تُعرِضَ نفسك للخطر مرة أخرى، هل فهمت ؟

• وزوجتك؟؟ ستعود إليك، وسأعود إلى جرمانا .

• لن تعود يا شهيد، قررنا أن ننفصل، فكّرْتُ ملياً بالأمر وحادثتها منذ يومين، سأبدأ باتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة، شهيد ..

اسمعي جيداً، لا أريد أن تُصاب بأذى، ابتعد عن جرمانا، هذه المرة نجوت منهم لكن من يضمن أن تنجو مرة أخرى لا سمح الله ..

- " قل لن يصيبنا إلا ما كتبته الله لنا " والحمد لله على كل حال .
- لا أعارضك في ذلك، لكن " اعقلها وتوكل " يا أخي .
- إنكم تحزبون ببلدكم يا قيصر، لا أريد أن أرى سورية التي أعشقتها حتى النخاع باتت عراق ثانية، حدث ما حدث في العراق وأنت تعلم أنني خرجت منها بُعيد مقتل الرئيس صدام حسين في ٢٠٠٣ وقضيت في سورية أكثر مما أمضيته في بلدي، سورية لا تستحق كل هذا الخراب، بات القتل لديكم على الهوية .
- أنت تُذكرني الآن بما كتبه المخرج السوري جود سعيد في صفحته على Facebook كتب ما يُلجّص القضية وبما معناه : سورية تقاتل إسرائيل وعربها، سورية التي ورثت مع قلة من الشعوب العربية المقاومة الحضارة في المنطقة العربية، لقد انتهت الكذبة المسماة الصراع العربي الإسرائيلي وانكشف العهر بأقبح صورة .
- قل لي الآن : متى تم اختطافك ولماذا لم تخبرني فوراً ؟
- منذ أسبوعين تقريباً، لم أشأ أن أقلقك عليّ، وكنْتُ بحاجة لقضاء فترة مع نفسي، لكي تهدأ روحي وأستعيد توازني .
- لا بأس الآن .. المهم أنك بخير، واعتبر يا أخي أن بقاءك معي

عامل إيجابي مساعد لكي تنسى أحمد، لا تقل لي إنك تنوي
التواصل معه بعد كل ما حدث لك ..

- لا .. لا لن أتواصل معه البتة، أنا تعبت وآن لي أن أرتاح .
- شهيد .. رغم محبتك الكبيرة لأحمد لكنك الوحيد الذي يعرف
سليات علاقتك به .
- قيصر .. افهمني أرجوك، لم يسبق لي أن بُحْتُ لك بتفاصيل
علاقتي به ليس لأني أنجل بها، فوالله لا يوجد فيها ما يُجْجَلُ،
هناك شيء ما في داخلي كان يُسَكِّتني في كل مرة ويمعني من
البوح بما يخص علاقتي به .
- حتى الآن .. إن لم تكن ترغب بالتكلّم عنها فلا أريد معرفة
تفاصيلها .
- لا .. لا ، ثمة جبل فوق صدري وأريد إزاحته، أريد أن أفضفض
لك لكي أرتاح .. قيصر، أنا أحببت أحمد وتعلّقتُ به تعلُّقاً غريباً،
كنتُ لا أحتملُ غيابه عني لحظة واحدة، أنت تعلم ما هو عمله،
إنه طبّاخ عادي في مطعم ” إشبيليا ” وأنا زبون دائم في المطعم،
وبشير صاحب المطعم أمسى صديقي، استغرب بشير كيف أتخذُ
من أحمد صديقاً لي، كان مُهملًا لنفسه وأهله وزوجته وابنه، وقد
تمكّنَ بفترة قياسية وبذكاء خارق من التسلُّلِ إلى حياتي والاقتراب
مني لدرجة أنني لم أعد أطيق الحياة من دونه، عَلِمَ ذلك منذ
البداية، استغلَّ محبتي له فبُتُّ أصرَف عليه وعلى أهله، لم أطق

بعده عني، لازمته في كل وقت وبكل مكان، أصبح كما ظلي، لا أردُّ له طلباً، ولم أكن أريد منه شيئاً أكثر من أن يبقى معي، بثُّ أنام إلى جانبه في مطبخ إشبيليا وعلى الأرض، هل تصدِّق ذلك؟

• لهذا الحد؟!!!

• وأكثر من ذلك، في الشتاء الماضي، امتنعتُ عن السفر إلى العراق مدة شهرين، لم يكن بمقدوري أن أغيب عنه، أهملت عملي، وتشاجرت مع أبي بسبب بقائي هنا في سورية وأوكلتُ لأخواني مهمة متابعة شؤون العمل في صالات البيع، وبقيتُ هنا إلى جانبه ..

قاطعته مستفسراً مندهشاً :

• متى اعتبرتَ نفسك أنك قادر على التفكير على هذا النحو بما يخص علاقتك به؟

• بعد أن تم اختطافي، قبل ذلك، كنت لا أفكر إلا بما جرتي له .

• والآن ..؟

• بثُّ أراه الشيطان بعينه، لم يبقَ أحد من أصدقائنا إلا وقال لي إنه وراء اختطافي وقد كشف نفسه من خلال اتصاله بأحدهم وإعلامه عن خطفي قبل أن يعلم أحد بما تعرَّضتُ له .

• قل بالله عليك .. لماذا لم تراجع الجهات المختصة؟

- لم أستطع أن أردَّ له الإساءة .
- هل تعتبر أن ما أقدم عليه بمواجهتك مجرد إساءة؟! إنها جريمة مُنظمة يا شهيد .
- انتهى الموضوع والحمد لله أنني بخير الآن، لكن ما يُؤرِّقني حالياً أنني بتُّ أسترجع كل موقف معه وكل كلمة، في كل لحظة وفي أي حدث يعيد إليّ ذكريات الأمس معه، لا أجد نفسي إلا رجلاً مُغفلاً وقع تحت سطوته بشكل لا إرادي، بجنون، كانت حالة هستيريا حقيقية، كيف .. لا أدري، وهذا ما سوف يقضي عليّ إن بقيت الذكريات تتداعى في رأسي، قل لي بحق الله مع من كنت أتعامل؟! مع شيطان؟ أنا متأكد أنه من نسل إبليس .
- ليس أمامك إلا أن تُشغَل نفسك لكي تنساه، يجب أن تتخلَّص من سحره، لازلتُ على قناعتِي أن سحراً ما أعدّه لك وهيأه كي تكون خاضعاً له، مسلوب الإرادة أمامه، تُحقِّق له ما يريد .. لكنه حين طلب منك مرافقتك في السفر إلى العراق للعمل لديك هناك لكي يتخلَّص من واقعه البائس هنا ورفضت ذلك، لم يبقَ أمامه إلا الاحتيال عليك وسلبك مالك فاشترك مع ثلَّةٍ من أصحابه وقاموا بخطفك .
- هذا تماماً ما قاله لي بشير ..
- لا تهتم الآن بأي أمر يخصه، انقطع عن ” إشبيليا ” .. هل اتصل بك بعد حادثة الخطف؟

• أجل .. لكنني لم أرد على اتصالاته، إنه يتصل بي كل يوم أكثر من مائة مرة، ويبعث لي برسائله عبر المحمول وبرنامج الدردشة لكنني لا أرد عليه .

• ماذا يقول لك في رسائله ؟

• يرجوني أن أدعه يراني، أمسى ذليلاً .. خانعاً ويكرر عبارات التوسل والرجاء، لم أخبره بالطبع عن مكاني ولن أخبره .

• دعه وشأنه .. إنس أمره ولا تضعف، سيحاول مراراً أن يستجديك ويصوّر لك نفسه أرضاً لكي تمشي عليها .

• هذا ما كتبه بالضبط في إحدى رسائله .

• سوف يكتب الأقوى تعبيراً، لكي تصفح عنه وإن لم يعترف بفعلته، ولن يستطيع الاعتراف بالتأكيد والإقضى على نفسه .

• علمتُ من بشير أنه طلق زوجته، انقطع عن أهله تاركاً ابنه لهم، بعدما هجرته زوجته، وقد صاحب بنت هوى واستقر معها في بيتها، وغدا الخمر رفيق لياليه .

• دَعَكَ منه الآن واسترخ، هذا هو مستواه الحقيقي الذي لم تكن لتراه قبلاً، قلت لك مراراً : ” عاشر الكبير بتكبر .. وعاشر الصغير بتصغر ” .

• لا بأس عليك يا شهيد، احمد الله أنك بخير الآن .

obeikandi.com

” لست كما تظن، يأخذني ظنك في دربٍ وِعرةٍ أدركُ خطورتها... لستُ ممسوساً ولا السحر بقادرٍ على جعلي مجنوناً... أطلبُ منك فقط أن تعاود التفكير فيّ يا قيصر ” .

أذكر ما قاله لي شهيد ذات مرة، ثبت لي بعد مرور عدة أيام على إقامته في بيتي أنه كان يحدّث نفسه ويؤنّبها .

لم يكن شهيد ليخرج من البيت كثيراً، جُلّ وقته كان يمضيه بمحادثة أصدقائه على برامج الدردشة، يقضي الليل في مازحتهم ومحدثهم، أشاركه في سهراته وقتاً قصيراً وأنام، لالتزامي بعملتي الذي يفرض علي أن أستيقظ باكراً، أوّدعه وهو يصارع النعاس مُتّجهاً نحو السرير لينام، وأعود من عملي لأجده يغطُّ في النوم أو خارجاً للتو من الحمام، إذا خرج من البيت أطمئنُّ عليه كل نصف ساعة، وإن كنتُ في مقر الإذاعة أطلبُ منه أن يمر لنعود معاً إلى البيت، لم يستفزني عدم اكترائه بالوقت، قدّرتُ أن انشغاله مع أصدقائه على الشابكة، تسلية لا أكثر، لكن خشيتُ أن يُسيء إدماناً حقيقياً ويتسبّب له الفراغ بلوثة في عقله، خاصة بعد أن أعلمني بما

يقاسيه من كوايبس .

السُّوطُ يُقَجِّمُ الدَّهْشَةَ فِي غِيَاهِبِ الْفِرَاقِ، قَاتِلًا يَغْدُو عِنْدَمَا يَفْرُضُ
سَطْوَتَهُ عَلَى النُّومِ، يَعلنُ الْمَصْدُومَ قِيَامَتَهُ لِيَرْتَاحَ .

نسي شهيد اهتمامه بالألوان وعشقه للفن، كما لم يكن عمله يتطلب منه بذل وقت أو جهد فيما يؤديه، هذا ما استغربته، إذ قلما أراه يتحدث مع أحدهم في عمله، ساعدته مرة في طباعة بيانات خاصة بأسعار السيارات حسب نشرة أسعار السوق في دمشق، وأرسلها عبر البريد الإلكتروني، كما تضمن الجدول الذي طبعته قائمة صغيرة بما يمتلكه من عقارات مؤجرة والاستحقاق المالي لكل عقار على حدة، لم أشأ أن أتدخل بأمور عمله، لكنه بُعيد مساعدتي له، أخبرني أن عمله يتركز في سوق دمشق وعمان وبغداد، بشكل رئيسي، لكن الأحداث في سورية أثرت سلباً على أرباحه التي يجنيها من عمله ليقوم بتحويلها فوراً إلى سوق عمان وبغداد، ولا يبقى معه من المال سوى ما يحتاجه لمصروفه الشخصي .

شهيد .. تاجر يشغل وقته بالدردشة، تجارته تأثرت في ظل الحرب الدائرة، وتجارٌ آخرون يُعِينُونَ فِي قَنْصِ قُوْتِ يَوْمِنَا، فَعَدَا كُلُّ تَاجِرِ عَرَّابِ الْحَيَاةِ، وَأَضَاعَ بِتِجَارَتِهِ حَيَاةَ النَّاسِ، وَجَدُوها مَرْسُومَةً بِالْوَانِ نَاتِيَةً عَلَى أَفْوَاهِ مَفْتُوحَةٍ عَلَى الْجُوعِ، وَالْدَمِ يَخْطُ أَغْنِيَتَهُ عَلَى إِسْفَلَتِ الْخَدِيعَةِ وَالْحَقْدِ، وَالْمَوْتِ .. بِقَعَةِ زَيْتٍ تَمْتَدُّ عَلَى ثُوبِ الْوَطَنِ، وَالْوَطَنِ يَبْكِي .. وَتِجَارُ الْمَوْتِ يَضْحَكُونَ وَيَسْكُرُونَ مِنْ خَمْرِهِ الْمَهْزُومِ .

حين أردت إيقاف تشغيل جهاز الكمبيوتر المحمول لشهيد، لمحت صورة فتاة بهيئة الطلعة على سطح المكتب، بادرتُ بسؤاله عنها، أخبرني أنها خطيبته السابقة، استشهدت في بغداد جراء تفجير عبوة ناسفة وُضعت على الطريق العام، لحظة مرور السيارة التي كانت تُقلها وأخيها وأما، قُتلت خطيبته، وأصيب الأُخُ إصابات بالغة ما اضطرَّ الأطباء لبتن ساقيه، أما الأم فقد نجت من موتٍ مُحتمٍّ بأعجوبة، حدث هذا يوم أرادا تسجيل واقعة الزواج في المحكمة، وكان شهيد يقود سيارته خلفهم، كانت العبوة أقرب إليهم منه .

صور هي ما يبقى من الإنسان، وشريط ذكريات يخص من يبقى حياً، لكأن الحياة بكل ما فيها ليست سوى مزحة ثقيلة، هذا ما تفوه به شهيد عندما رنا إلى صورة خطيبته قبل أن يوقف جهازه، كان الألم مسيطراً على ملامحه تلك اللحظة، أردتُ إزاحة الحزن جانباً، بادرتُ أسأله عن جيجي

• جيجي فنانة استعراضية، تحمل الجنسية الليبية، كانت متزوجة من عازف موسيقي قُتل أيضاً في ليبيا منذ عشرة أعوام، وكانت تحمل في أحشائها جنيناً، لم تكن على وفاق مع أهل زوجها، قَدِمَتْ إلى دمشق واشتغلت في المقاهي الليلية، جُلَّ ما تهتم به طفلها الوحيد، فقد تربتُ يتيمة وتدرّك تماماً أي عذاب سيلقيه لو لم تكن موجودة، لذا تراها تعمل بكِدٍ لتحصل على لقمة عيشها، وهي مُرَحَّصة فيما تزاوُل من عمل، تعرَّفْتُ عليها حين قدمْتُ إلى دمشق عند سقوط بغداد، أعلم عنها الكثير فهي صديقتي وتحديثي

في كل أمورها .

- ألم يؤثر عملها على نظرتك لها ؟
- لا .. حاولت كثيراً أن تجد عملاً آخر لكنها لم تفلح، وتعرّفت على صاحب ملهى ليلي في الغوطة فاضطرت للعمل عنده، حين بدأت الأحداث هناك قَدِمْتُ إلى مطعم إشبيليا وعملت لدى زياد .. أنت تعرفه كم هو طيب القلب وقد ساعدها كثيراً في تأمين مسكن لها ولابنها، ومن ثَمَّ فَمَا مِنْ خيار آخر أمامها .
- وما سرُّ اهتمامها بك ؟
- لا سرٌّ في ذلك، قلتُ لك إنها صديقتي، وعملها لا يثني عن الاهتمام بها، خاصة أنها تقدّم فقرتها وتغادر المطعم فوراً، لكن ما لك وجيجي .. حدّثني أنت الآن عن ألما، أنت ” أزعر ” مُحسِنٌ طَرَحَ الأسئلة والإصغاء وتراوغ حين تُسأل عن حياتك الخاصة .
- هذا يمكن حدوثه مع الغرباء وليس مع صديقتي شهيد” الدرويش ” .
- ضحكنا معاً .. نهضتُ لأعدّ فنجانين من القهوة ومن ثم أفتح لشهيد ملف ألما .
- بعد أن استمع إليّ عما رويته له عنها .. قال :
- قبل أن أناقشك بما يخصُّ ألما .. هل لي أن أسألك عن روزالين ؟

- ما بها ؟ .
- هل انتهت في داخلك ولم تعد قادراً على الاستمرار معها في الحياة ؟
- لم يبقَ أي أثر لها سوى طيفها الذي يتراءى لي كل حين في البيت، سيزول ذلك قريباً ويختفي، أصرّث أن تكون السلاح الأمضى لِقَتْلِ كل جميل في روعي تجاهها .
- بدا شهيد مستوعباً وجع روعي، صمت برهة وهو يحوم في المكان، ضرب كفاً بكف وأتبع قائلاً :
- أظن أنها مجنونة .. ألما .
- أخبرتني بذلك .
- في الحياة .. وليس في الحب فقط .
- ماذا تعني ؟
- هل نسيّت أنك تكره أن تأتي زوجة على ذكر الأمور الخاصة بعلاقتها مع زوجها ؟
- لم أنسَ بالطبع، لكن ألما جرفتنني معها في سيل مشاكلها مع حازم، لا أخفيك أنها مُتعبَة في ترصّدها لي أتى كنت، وقد سئمتُ أفهمها طبيعة علاقتي بها .

- هذا من وجهة نظرك التي لا تتطابق مع عشقها لك، ما بالك يا رجل؟ هل أمسيت جاهلاً بأمور العشق والهوى؟
- لا لستُ جاهلاً، لا أنكرُ أني أعشق روحها، لكن ..
- لن تستوعب منك هذا الأمر، فهي عاشقة، والعشق حين يحلُّ يفكُّ أسرَّ العقل من الجسد فيطير، لكن قل لي بصراحة هل تعجبك؟
- ليست من النساء اللواتي يُثرنني .
- هل قلتَ لها ذلك بطريقة غير مباشرة؟
- بالطبع لا .. لا أريد أن أجرحها يا شهيد، أدرك أن ثمة غرابة في عشقي لروحها واكتفائي بذلك ..
- لا غرابة بالأمر، الغريب أنها عشقتك، ما الذي أعجبها بك يا رجل؟
- هل تعلم أنها تغار منك؟
- هاااااااااااا .. ولماذا تغار؟
- تقول لي إنك ضرتّها، وقد بات الغيظ يتحكّم بها كلما أتيت على ذكرك .
- إذن لا تذكر اسمي أمامها .

- وأنت ممن تغار يا ” درويش ” ؟ .
 - من ” السمرا ” ..
 - ” السمرا ” من أصدقاء Facebook ؟ .
- ضحك شهيد وأتبع قائلاً :
- أنت تمزح .. ما بالك يا رجل ؟ هؤلاء أصدقاء العالم الافتراضي وليسوا معي في الحياة .
 - هل تعلم أنني اعتدتُ عليك ؟
 - لكنني سأسافر إلى العراق وسأغيب عنك طويلاً، أعلم أنني خفيف الظل، ومحبوب، وجميل المظهر، وأقدّر تمامًا غيرتك ..
 - أنت محتال، وفي قمة تواضعك .. درويش .
- قهقهه شهيد ونهض ليُعيدَ الطعام وهو يغني : ” هي السمرا .. شوكولا .. شوكولا ” .

obeikandi.com

لماذا حين نَدْعُ للآخرين فُرْجَةً صغيرةً للاقتراب منا، نراهم يُغْرِقُونَا بتفاصيلهم الصغيرة وبمشاكلهم التي ترهقهم حتى تسمي معاناتنا كمعاناتهم ؟

تساءلتُ بامتعاض حين أرهقتني ألما بملاحقتها لي، بتتبع تحركاتي عبر برامج الشبكة وعبر الهاتف الثابت والحمول، باجتهادها في نقل كل ما يدور بينها وبين حازم، وبمناقشاتهما مع أبيها الذي علم مؤخراً بواقع علاقتها بزوجها، في أي ساعة من النهار أو الليل، تتصل بي، لتبكي تارة، وتفضفض تارة أخرى، ولتحلم أغلب الأحيان بأن نكون معاً، بات الحديث معها مُقتصرًا على ما تحياه من عذابات وإرهاصات وأطياف أحلام .

أومن بأن الأصدقاء يتعايشون مع بعضهم البعض في التفاصيل، لكن .. أمام مصاعب الحياة وهمومها، بات الإنسان غير قادر على تحمُّل المزيد من المتاعب والهموم، لذا كان لابد لي من التطرُّق عبر برنامجي لهذا الموضوع، ربما تعي ألما ما تُقحمني فيه فتراجع أو تخفّف من وطأة إشراكي في مشاكلها خاصة مع حازم، وبعد إذاعة الحلقة، كان لابد من ترجمتها لاستيعاب هذا الأمر، فقامت بزيارتي في بيتي

لم يكن أمامي فرصة لرفض زيارتها، مُدْ دَخَلْتُ أَصَابَتِهَا الدَّهْشَةُ،
أَبَدْتُ إِعْجَابَهَا فِي تَرْتِيبِ الْأَثَاثِ، وَفِي تَوْزِيعِ اللُّوْحَاتِ الْفَنِيةِ عَلَى جِدْرَانِ
غُرْفِ الْبَيْتِ، فِي انْتِقَاءِ سِتَارَةِ غُرْفَةِ النَّوْمِ وَمَلَاءَاتِ السَّرِيرِ، فِي صُورَتِي الَّتِي
تَتَصَدَّرُ غُرْفَةَ الْجُلُوسِ، وَإِلَى جَانِبِهَا لَوْحَةٌ كُتِبَ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ كَتَبْتُهَا يَوْمًا وَلَمْ
أَدْعُهَا لِرَحْمَةِ النَّسِيَانِ :

” مَنْ يُخْرِجُكَ مِنْ بَيْتِ الْبِرَاءَةِ الْعَمِيقِ .. لَنْ يُقَدِّمَ لَكَ مَاءَ الْحَيَاةِ
الصَّافِيَةِ ”

اسْتَوْفَقْتُهَا الْعِبَارَةَ طَوِيلًا، رَأَيْتُهَا تَذْهَبُ بَعِيدًا فِي تَحْلِيْقِهَا، وَبَعْدَ لِحْظَاتٍ
أَتَى سَوْأَلِي لِيعِيدَهَا إِلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ .

- هل أعجبتك ؟
- من هو الفيلسوف الذي كتب هذه العبارة ؟
- أنا .. لكنني لست فيلسوفاً .
- أحقاً ما تقول ؟
- أجل .. هل أعجبتك ؟
- رائعة .. رائعاااااا .
- شكراً .
- لكن .. لماذا اخترت للبراءة البئر لا الفضاء ؟

• لأننا من تراب .. وإلى التراب نعود، والبرُّ في جوف الأرض وفيه الماء، ماء الحياة، ما يجب أن يحافظ عليه الإنسان : الماء والبراءة، وإلا فقد خسر حياته .

• أنت رائع قيصر .. لكن اسمح لي أن أُثني على ذوق زوجتك في انتقاء أثاث البيت وترتيبه واختيار ما يناسب كل غرفة وكل زاوية .. يبدو أنها فنانة، لكن أين صورتكما معاً ؟ .

ابتسمتُ ساخرًا .. ولوحتُ بكفي بإشارة وداع قائلاً :

• أخفيئها، بل مرَّقتها ولم أبق عليها، والبيت .. بكل موجوداته، أنا من ربَّته وأسسّه واختار كل ما ترينه أمامك، روزالين مثلما أتت .. غادرت، لم تترك بصمة ولم أدع لها أي أثر .

دنت مني .. ضممتني، قبَلتني على صدري، وقفتُ على رؤوس أصابعها وشرعتُ تقصُّ لشفتي حديثاً تتوق إليه، شدتُ يديها عليّ كأنها لا تريد أن تفلتَ منها اللحظة .. وأنا .

غمرتها بإحساسٍ مشوبٍ بالحنين، استسلمتُ لحدِرٍ لذيذٍ فأغمضتُ عينيّ وسُقْتُ قطعانَ النشوةِ في مفاوز اللذة وعُذرانها، لن أترك اللحظة تفكُرْ دوماً إمضاءً على تضاريسِ جسدٍ يعشقني، وإن لم أعشقه .

تناهى إلى سمعي طرقةً خفيفاً على الباب، أدركتُ أنه شهيد، امتعضتُ ألماً كعادتها، وانتبذتُ مكاناً لها في الشرفة، رمقني شهيد فور فتحي للباب،

مُتسائلاً عما إذا كان حضوره أزعجني، همستُ له :

- لا .. أبداً، سنشرب القهوة فهل تشاركنا ؟ .
- ” أزعر ” .. هب فجالسها وأنا سأعدُّ القهوة .

حملتُ بيدي تفاحة شهية، واتجهتُ لأجالس أماً، رمقتني بنظرة ثاقبة

وهي تقول :

- تناولها أنت وشهيد .. تفاحتي لم تنضج بعد .
- إذن سأتي إليك بعصير التفاح لأحرق المراحل .
- ” غليظ ” .. دعني أذهب الآن .
- نشرب القهوة ومن ثم تغادرين .
- لا .. لا أريد أن أشربها مع شهيد .
- كما تريدن .. سأوصلك إلى سيارتك .

في صباح اليوم التالي، اتصلتُ بي أماً لتخبرني بما أسرَّ لها صديق لها

دون أن تسميه لي، باح لها أنه مثلي الجنس، فبادرتُ أسألها :

- ولِمَ أفصحَ لكِ عن مثليته ؟ ما الذي يريده من إعلامك بهذا الشأن الخاص به ؟

- لا أدري .. استغربتُ الأمر .

- وما رأيك أنت ؟
- هذا شأن خاص به، ما دام لا يؤدي أحداً بمثليته .
- جميل .. لم أتوقع منك ذلك .
- أحترمه كصديق، وأقدّر له صراحته .
- الإفصاح عن الأمر ليس هيناً، ولا أتوقع أن يكون بتصريحه لك عن مثليته خالي الوفاض من هدف ما
- لا أعتقد ذلك، لأنه طلب رأيي بالأمر وناقشته بعدة نقاط تخصّه في هذا الموضوع .
- لا بأس .. تبقى هذه التفاصيل بينك وبينه ولا أريد التعليق أو التدخّل، ربما في وقتٍ لاحقٍ، أطلبُ منكِ التعرّف إليه .
- لماذا ؟ أظن أن ذلك سيخرجه إن أحسّ أنني أفشيتُ سرّه لأحد
- إذن .. لماذا تخبريني الآن ؟
- لا أدري .. إنس أنني أخبرتك بأمره، هل أنت مشغول ؟ .
- سأنام قليلاً .. لماذا ؟
- سأزورك بعد قليل، أريد أن أكل تفاحتي .
- راحت عليكِ .. التهمها شهيد .

- اوووف من شهيد .. سأجلب معي بعض التفاح .
- ألما ..
- ماذا ؟
- لا شيء .. لا شيء .
- إذن .. سأكون معك بعد ساعة من الآن .

لماذا امتنعتُ عما أردتُ الحديث عنه ؟

لستُ مرتاحاً من زيارتها السابقة، ولا أريد أن تتعلّق بي أكثر، يبدو أنها ماضية فيما تريد الوصول إليه، ولن يثنيها فراغ ثلاثتي من التفاح ما دامت ستجلب معها التفاح الناضج .

كانت حائرة مستسلمة لموج الحيرة حين همست لي بعد لحظات من لقائنا :

- ما الذي يمنعك عني ؟ ألا تشعر بانجذاب إلي ؟ إلام سألني أنتظر مبادرتك في اقتحام عالمي المجنون ؟
- سبق أن أخبرتك ألما، أحبُّ روحك ولا أريد الاستغراق معك في تفاصيل حسيّة بعيدة عن مساري معك، إن لم يرق لك ذلك، أفصّل أن نبتعد .
- ألا ترى في امرأة ناضجة ومثيرة ؟ ألا تعنيك أنوثتي ؟

• لم يسبق أن دخلت بيتي امرأة متزوجة، ولولا احترامي وتقديري لك لما كنت مضطراً لاستقبالك ولست ممن يجامل في أمر لا يريده .

• قيصر .. ما الذي تريد إقناعي به ؟ هل تريد أن أصدق أنك لا تقيم علاقات مع الفتيات بغياب روزالين عنك ؟ .

• هذا شأن خاص بي وحدي، فرودس .. لم لا تُقيم وزناً لما يرسمه الآخر من حدود، نتطقل ونقتحم مساحات ليست لنا، ونتجرأ على الآخر دون أدنى احترام لخصوصياته ؟ .

أحسست ألماً بحرج شديد كنت أقصد رميها فيه، تلفتت حولها كأنما لتهرب، بادرت تقول :

• صحيح لم تخبرني بما قررته بشأن زوجتك، آه نسيت، يجب ألا أتدخل بشؤونك بعد الآن ؟

• وكلت محامياً لينهي إجراءات المخالعة، سأدفع المؤخر وأنتظر صدور قرار القاضي الشرعي لينهي زواجنا

• وأنا .. متى يحين موعد دخولي غرفة نومك من دون أن يفاجئنا شهيد ؟ .

• ربما حين تنتهي أزمة سورية .

• كم أنت متعقل يا رجل !!

• أتحكّم بمفردات حياتي، وأصوغ الهوى كما أريد لا كما يريد قلبي،
وحين أقول لك إنني أهواك بروحي، فالأمر مُحدّد سلفاً .

• لم تقنعني .

• لا بد أن يحين الوقت لذلك .

انفرجت أساريها وضحكة من عينيها لاحت فبرقتا :

• رائع .. أنا بالانتظار .

• الوقت الذي أقصده هو ما يلزمك للقناعة وليس لما توّدّين الوصول
إليه، أخبريني الآن .. ألا تريدين فتح آفاقٍ جديدة مع حازم ؟ .

قَطَّبْتُ ما بين حاجبيها، بدوّْتُ كمن اغتالَ فرحتها، حاولتُ كَبَنْتُ
ضحكتي فما استطعت، وجَّهْتُ ألما قبضتها إلى كتفي وأجابت بلؤم :

• ما الذي يدعوك لتذكيري به الآن ؟

• ” غلاظة ” ...

دنتُ مني تقرصني وتدغدغي محاولة إثارتي بلامسة جسدي :

• أنصحك ألا تحاول إقصائي عنك، بي رغبة جامحة فيك ؟ هل
تظن أنك تُحسِنُ صنْعاً إن حاولتَ تذكيري بحازم ؟

أدخلتُ صوتي في بيت نار الضحك لأُخرج قهقهاتٍ سريعة :

• يبدو أنك تتأثرين بوجودي في حياتك فيما يتعلق بعلاقتك مع زوجك، ولن تستوعبي الأمر الآن .

• زوجي؟! .. قل أخي يا رجل ولا تتردد .

• ذكّرني بروزالين .

قهقهت ألما فبانَت اللثة مُتراجِعة إلى حدِّ كبير .. قالت :

• أكانت أختك أيضًا ؟ .

• ها .. لا .. لم أقصد ذلك أبدًا . ” زعرا يا هالسمرا ” .

أطلق جوالي أغنية ” عندي ثقة فيك ” كانت هبة الله، وحين حدّثتها برقة امتنع وجه ألما، أومأت لي بضرورة خروجنا .

obeikandi.com

مر أسبوع لم أر ألما خلاله لانشغالي بالإعداد لبرنامجي الجديد .
 اتصلت تعاتيني، تذرعت بالنسيان، أتبعث حجتي بانشغالها أيضاً بشأن
 انفصالها عن زوجها ومراجعتها لعدد من المحامين لكي يبدأ أحدهم باتخاذ
 الإجراءات القانونية اللازمة للانفصال عنه .

اتفقنا على اللقاء في مكان قريب من مقر الإذاعة لنحضر معاً أمسية
 موسيقية دُعيت إليها، اقترحتُ على شهيد أن يوافيني إلى دار الأوبرا في
 ساحة الأمويين، اتصل بي قبيل موعد الأمسية بدقائق ليخبرني أنه خرج
 من البيت وقد نسي جواز سفره، اتصلتُ بـألما وأخبرتها أنني سأتأخر قليلاً
 لأتمكّن من الذهاب إلى بيتي لأحضر جواز السفر لشهيد، فما كان منها إلا
 أن ثارت عليّ وحلفت يميناً معظماً ألا أفعل ذلك :

- إن رغبَ بالقدوم فليأتِ بلا جواز سفر، اقترب الموعد وإن
 توجهت الآن إلى البيت ستفتك الأمسية .
- سأعود الاتصال به إذن وأخبره أن يحضر حالاً ويتجنّب المرور
 على الحواجز كيلا يوقفونه أو يحدث مكروه معه .

• ولماذا أنت حريص على حضوره معنا وتخشى عليه ؟ دعه وشأنه .

• ألما .. لا تنسي أنه صديقي كما أنت صديقتي .

• هل تقارن بيني وبينه ؟

• لستُ أنا من يقارن .. لكنك تُصِرِّين على مناقشتي بأمر يعنيني وحدي، لم أهمل يوماً شؤون صديق لكي أهمل الآن شهيد، استوعبي هذا الأمر .

• حاضر .. أنا آسفة .

كانت أمسية جميلة، مرَّث وألما طوال الوقت مُمسِكةً بكفي، تحتضنها .

كنتُ مُصِرّاً بعد انتهاء الأمسية على توصيل شهيد إلى بيتي، إذ ليس من المقبول أن أدعه في الشارع عِزْضةً للتوقيف من قبل الحواجز المنتشرة في دمشق، ومن ثمَّ توجَّهْتُ إلى مقرِّ الإذاعة لتسجيل بعض فقرات الحلقة القادمة من برنامجي و Promotion جديد خاص بالإذاعة، كانت برفقتي ألما الثائرة .

حين سمعتُ صوتي أثناء التسجيل راقتُ بشكل تدريجي، وقد انخفضتُ نسبة الأدرينالين إلى المستوى الأدنى .

في ظهيرة اليوم التالي، اتصلتُ بي ألما بعد خروجي من الاستوديو، وقد

أصرتُ على رؤيتي في البيت وليس في مكان آخر، فما تريد التحدث فيه لا يمكن أن يكون خارج المنزل، أخبرتها أن شهيد في المنزل ولا أستطيع أن أطلب منه الخروج إن لم يكن لديه موعداً أو عملاً، أصرتُ على طلبها وأكدت على عدم وجود شهيد .

دخلتُ البيت وأخبرتُ شهيد بما طلبته ألماً، همَّ بالخروج فوراً فاستوقفته مؤكداً على ضرورة وجوده، حيث أنني أتوقع ما تريد طرحه عليّ، وبثُّ متأكداً من جنون ما تُفكّر فيه، أراد شهيد أن يعلم ما أتوقعه، رفضتُ ذلك وطلبتُ منه أن ينتظر لأرى ما يجعبتها .

جلستُ ألماً وقد غصتُ بدمعها، بدتُ متوترة، زائغة العينين، كأن ما يشغل فكرها مازال يحثُّ الطمأنينة في روحها، بادرتُ فوراً بسؤالِي عن شهيد ..

• إنه في الداخل .. في غرفة النوم، لم أستطع أن أطلب منه الخروج من المنزل .

رمقتني بنظرة كادتُ تمرّقني بنصْلِها :

- أكّدتُ عليك أن تكون وحيداً في المنزل .
- لا عليك .. أعلمته بحضورك وطلبتُ منه ألا يغادر غرفة النوم، بك ؟ أخبريني ما الأمر ؟ تبدين قلقة ولستِ على ما يرام .
- لم أنم الليلة .. هل أنت متأكد أن صوتنا لن يصل لشهيد ؟

• قطعاً لا .. أنت تعرفين أن غرفة النوم تبعد عن مكان جلستنا هذه سبعة أمتار وهناك ثلاثة أبواب مُغلقة بيننا وبينه .. أخبريني ما الأمر ؟ .

أطرقتُ هنيئة .. ثم أتبعْتُ والحيرة باب لا تريد الولوج منه :

• أنا متردّدة جداً فيما سأقوله لك .. لكن لا بد لي من الحديث معك بالموضوع .

كاد صبري ينفد .. زفرتُ بعمق وقلت :

• أي موضوع ؟ ولماذا تمهّدين له ؟ قولي ما الأمر .

توترها بادٍ في حركة أصابعها، وانغماسها في تأليبٍ وجعٍ يكاد يقتلها، لكنني فجأة قرأتُ تأكيد عزمها على الإفصاح عما تريد قوله :

• ما العلاقة التي تربطك بشهيد ؟

تجاوزتُ بسؤالها ما كنتُ أتوقع سبب حرصها على وجودنا وحيدين في المنزل، كما حدّثتُ شهيد، فاق ما تفوّهتُ به تصوّراتي، رنوتُ إليها مُندهشاً وبتُّ أبحث عن حروفٍ أركّبُ الكلمات بها وكأن الثمانية والعشرين حرفاً ولتْ هاربةً أمام فجور الفكرة التي طرحتها ألما ...

• ماذا ؟!! ما الذي تقصدينه ؟

• كما سمعت .. ما طبيعة علاقتك بشهيد ؟

• هل تدركين ما معنى سؤالك ؟

بدت مُتيقّنة ما طرحه عليّ، واثقة من حقيقة تراها وحدها غير مشوبة
بظن أو خطأ :

• أدركُ جيداً، وإن كان بينكما علاقة ما .. فلماذا أردت أن أكون
بينكما ؟

سؤالها .. أعفى اندهاشي من شرك التخمين، وأمنى رقصتها على جمرٍ
ما كانت تتحسّب من قذفه في وجهي :

• هل جُننتِ ألما ؟ إن أخذتُ كلامك الآن على محمل الجدّ فهذا
يعني أنني مثليّ الجنس .

• هذا ما أخشاه .

• وكيف فكرتِ بالأمر ؟ ما الذي رأيته لكي تظنّين بي هذا الظن ؟

• ليس ظناً .. بل حقيقة، إحساس الأنثى لا يُخطئ .

رمقّتها بنظرة استهزاء ..

• وهل حسّك الأنتوي دفعك نحو هذا التفكير ؟ هل تعتبرين أن
تهمّة كهذه من الممكن أن أتقبّلها منك وأناقشها معك ؟

بدت مُترنّحةً في رقصتها على جمر البوح، ودمعها على حافة السقوط :

• قيصر أرجوك افهمني .. أنا أعشقتك، هل تدرك ما معنى أن تعشق امرأة رجلاً ما ولا تستطيع أن تقترب منه لمراوغته في التواصل معها كما أي رجل يكون مع امرأة ؟

• وهل أقبل بفكرتك تلك لمجرد أنني لم أعمل مسحاً لتضاريس جسدك كما ترغبين ؟ انظري إلي .. قلتُ لك مراراً إنني أعشق روحك ولا أريد لعلاقتنا أن تتطور لتغدو الشهوة هدفاً لها وغاية، لكن يبدو أنك لم تستطعي مجارتي في الأمر لاختلاف هدفك عما أبغيه منك، والآن تحضرين لكي تتشددقين بثرهات سخيفة، انظري .. لم أعتد أن أكون كغيري من الرجال في تعاملهم مع النساء، لم يكن الجسد هدفاً لي في يوم ما، كما لم تكن الشهوة غايتي من الأنتى، يبدو أن لغتك الخاصة لم تتمازج مع لغتي، لن أثور عليك، وسأعتبر أنك لم تنطقي بحرف، وما جئت الآن لتلقينه على مسمعي سأعتبره كأن لم يكن، سوف أنسى ما حملته لي بزيارتك الآن من تفاح عَفِنٍ، ولن أكون بحاجة للاستماع إلى المزيد من كلامك هذا ولا بمبررات ما دفعك لقوله .

كان دمعها قد شوه كحل عينها حين فرغت مما قلت :

• قيصر .. افهمني أرجوك، كل الإشارات تدفعني إلى التفكير في هذا الاتجاه، اهتمامك بشهيد المبالغ فيه، خوفك عليه، حرصك على رضاه، كرمك الزائد معه، ردة فعلك حين خرج من بيتك ولم يأخذ معه جواز سفره واضطرابك من أجله حين وصوله إلى دار الأوبرا .. وبالمقابل إهمالك لي وتذرُعك الدائم بانشغالك، مرّ

أسبوع لم تفكر خلاله بالتحدث إلي والاطمئنان عني أو سؤالني
عن سبب غيابي عنك، هل تظن أن انشغالي كان عائقاً حاداً من
إمكانية لقاءنا معاً؟ لا .. أنت تعلم أنني أهبط مسرعةً إليك في
كل مرة وأنت لا تسأل عني، وكأني آخر من تهتم لأمره، كل هذا
ألا يكفي لدفعي نحو التفكير فيما قلته الآن برأيك؟

شبكة أصابعي، رانياً إليها، مُسلماً أمري لحقيقة بثتْها عيناى، وفي لغة
العيون إشارات أدق من حروف الأبجدية حين أريد :

• كفى يا ألما .. لا أريد سماع المزيد لكيلا تشوّهين صورتك لدي، لو
انك فهمت قيصر وعرفته حق المعرفة لما انجرت لهذا الدرك من
الظن بالسوء، ولا يوجد أي مبرر لطرحك هذا، وإن سلّمْتُ معك
بظنك فأين قناعتك باعتبار هذا الأمر حرية شخصية كما أوهمتني
حين تحدّثت عن صديقك المثلي؟ أم أن حكايته تلك من نسج
خيالك لكي تكون مُقدّمة لما تطرحينه الآن؟

• لا لم تكن من نسج الخيال .. (قهقهت ثم أتبعث) وأنت أردت
التعرّف إليه، سأجمعك به، ربما يروق لك .

تأكّدت أنها لن تستوعب ما أريد تأكيده لها، سيل ظنونها جرفها بعيداً
عني، ولا أتوقّع أن ثمة تلاقٍ بيننا في الفكرة، وفي أمور أخرى بعد الآن،
كنت قد وصلتُ إلى شاطئ الراحة والسكينة التي حاولت إبعادي عنه
لأخسرهما، قلتُ :

• لقد تجاوزت الحدَّ المقبول في مناقشة الأمر معي، وها أنتِ تشوّهين صورتك التي أحببت، ما عدتُ براغبٍ في سماع المزيد من جنونك وعبثية تفكيرك وظنِّك الأحمق بي ..

• ألما .. فلتصمتي الآن لا أريد سماع المزيد، وتأكدي تماماً أن رجلاً آخر مكاني الآن لما ناقشك بأي تفصيل في الأمر واكتفى بفتح الباب لك ..

وثقتُ من خطورة ما أنا عازمٌ عليه، عادتُ لتركب موج المخاتلة
فهمست :

• جئتُ إليك لكي أرتاح من عبء التفكير بالموضوع لا لزيادة إرهابي به .

• يبدو أن مشكلاتك مع حازم قد أثرتُ عليكِ حتى في علاقتنا معاً، أنصحك بالسفر أو بمعالجة نفسك بنفسك، لن أقول لك بمراجعة الطبيب، يبدو أنك استنفذتِ مشاجراتك مع زوجك وتبحثين الآن عن مشاكل أخرى مع من تدعين محبتك له .

• هل تريد أن تُفهمني أنّ لا علاقة بينك وبين شهيد؟ هل لي أن أفهم لماذا التجأ إليك دون غيرك من أصدقائه؟

• افهمي يا امرأة .. أي عاقل حين يعلم أن شهيد إنسان تعرّض للخطف، وبقي مُحْتَجِزاً ثلاثة أيام بلياليها في خِصَمٍ ما نشهده من أحداث وويلات، يدرك أنه من الطبيعي أن يجد من يقف إلى

جانبه يخشى عليه ويحرص على تقديم كل عون ومساعدة له، لستُ مسؤولاً فيما إذا كنتِ لا تفهمين هذه اللغة، لغة الإنسانية التي تجعلني أقفُ إلى جانب صديقي، وإن كان هناك ثمة جنون فيما أتيت لتلقيه على مسمعي فهو أنتِ بكيانك وتفكيرك ومجون فكرتك ومبرر طرحها، يبدو أنني كنتُ مخدوعاً باعتبارك مختلفة ومتميزة عن غيرك من النساء في طريقة التفكير، ويبدو أن حازم ليس مريضاً كما صوّرتِه لي، أنتِ المريضة ..

انهارتُ ألما تبكي بحرقة، لم أشعر نحوها بالشفقة، فما من عاقل يرضى بما تتهمني به، فجأة .. حدّقتُ بي ونظرة التحدي ت برق في عينيها .. قالت :

• هل تنكر أن يم مثلي الجنس وهو صديقك ؟ هل تنكر أن عبد الله الذي التصق بك في دار الأوبرا مثلي أيضاً ؟ لماذا يتواجد المثليون من حولك ؟ وبعد كل هذا تريدني أن أقتنع بأنك لست مثلياً، أحضر إلى بيتك فلا تلمسني، وإن حدث فبدافع مني وتحريض، ولا يتعدى بضع قبلات باردة .

• أو تقولين بضع قبلات باردة ؟!! ثم من قال لك إن يم مثلي الجنس ؟

• صديقي الذي أسرَّ إلي بتمليلته ؟

• أها .. وما شأني بصديقك و-يم، وإن يكن، فهم فئة موجودة في المجتمع شيئاً أم أبينا، وعبد الله الذي ذكرتِ، رأيتَه بالصدفة لأنني سبق واستقبلته في برنامجي بُعيد حصوله على لقب عالمي وهذا من

ضمن فقرات ما أقدمه في الإذاعة .

رمقتني وابتسامه صفراء تلوح على محياها رغماً عنها قائلة :

• لا تبدو مُقنعاً لي ..

صوّبتُ نحوها نظرةً كادَتْ تقسمها نصفين .. ولأول مرة أصرخ في وجهها :

• هل تريدني مني أن أكشف لك سبب عدم اقترابي منك لترتاحي وتكفّي عن هذيانك وجنونك ؟

لحظتُ .. بدتُ ألما في محاولةٍ جدّيةٍ لِمَسِّكَ دَفَّةَ الخشب التي تقرب منها في لُجَّةِ البحر التي رمثت نفسها فيه .. صلبة وقوية ومُستنجدة بذات الوقت بطغيان الرحمة في قلبي :

• أجل .. أخبرني بالله عليك سوف أُجنُّ إذا لم تقل لي .

ضربتُ كَفّاً بكف، وقد أزلتُ غبار الخشبية على مشاعرها نحوي فقلتُ الحقيقة التي أخفيها عنها وها هي تدفعني لأنطق بها :

• لأنك لا تُغريني .. لستِ المرأة التي أهوى مشاركتها السرير، هل فهمتِ الآن ؟ جسدي ليس للبيع ولا للمتاجرة وأنتِ تدركين كم يوجد حولي من نساء وفتيات عاشقات، أحببتُ فيك الروح فلم تقبلي، عشقتُ فيك ما أكذتُ على ضرورة نقائه وبعده عن الجانب الحسي لدى البشر فما اقتنعتِ، لأنك من الداخل مختلفة

عني، لكنك أوهمتني أن روحك طفلٌ يعيش النقاء ولا يعرف لغة سواه يحاكي بها الطبيعة وبعض البشر .. هل فهمت الآن واستوعبت سبب عدم رغبتى بجسدك ؟

فَغرتِ فاها .. تقوَّسَ ظهر غوايتها، تحشج صوتها وهي تقول :

• لم أكن أتصوّرُ أني بهذا القبح في نظرك .. أو أنك مُدعٍ للشرف إلى هذا الحد !! .

• لستِ قبيحة .. لكنك الآن قَبَّحتِ روحك قبل كيائك وجسدك

• لو انك تستمعين جيداً إلى برنامجي وما أقدمه، لو انك تجيدين قراءة ما بين السطور في علاقتي معك .. لكنّ استوعبتِ، وليس في الأمر ادعاء ... ” انتهى الدرس يا غبي ” .

• لو لم أكن أحبك لما أفرغْتُ بما أفكر فيه، لو لم أعشق الأرض التي تمشي عليها لما تجرأتُ وُحْتُ لك بما يعدّني .

• هذا ليس حباً، هذه ذروة الأنانية، ما اهتمتِ إلا بنفسك وما تهوى، لم تلتفتي إلا لإشباع نهمك وشهوتك من جسدي لترتوي بما حرمتِ منه مع حازم، سأقولها لك أيتها العاشقة : كنت أحضّرُ لبرنامج جديد أردتُ من خلاله أن أسلِّطَ الضوء على هذه الفئة التي لم تعد تشكل ظاهرة في مجتمعنا بل تجاوزت حد المقبول وباتت تمثل شريحة واسعة من المجتمع الراض لها، وهو نفسه يرتكب في السر ما يعاديه في العلن في أغلب شرائح المجتمع كما

أنتك تعرفين أن بالمقابل يوجد فتيات ونساء يمارسن المثلية، وربما أستفيد منك في هذا الجانب فما رأيك ؟

• أنا ؟!!

• لِمَ تستنكرين عليّ ما أتفوّه به الآن ؟ ألم يكن لديك مبررات سخيفة وتافهة للظن بي ؟ ثم لماذا تُبدين تناقضات عجيبة في هذا الأمر ما دمّت تقبّلتِ صديقك المثلي الذي يساعدني صديقه يم في كشف خفايا هذا العالم ومعرفة أسراره ليؤدي برنامجي الهدف الذي أطمح لتحقيقه ؟

انفلتت ضحكة هستيرية من ألما .. وسارعت بالقول :

• دكّرتني بإحداهن، من الممكن أن أحديثك عنها، ولستُ أنا الأنانية أيها الإعلامي الجميل النرجسي .

• ألما .. أرجوك، ليس لدي المزيد من الوقت لكي أضيقه أكثر من ذلك معك، كما أنني أحرص على ألا تغيبني عن بيتك وأولادك وزوجك وهم أولى بك مني .

• ما معنى كلامك هذا ؟ هل تطردني ؟ .

• معاذ الله .. أحرص عليك لا أكثر، ولن أقول للحديث تتمة، فلا أريد أن نفتح الموضوع مرة أخرى، كما أنني قلت ما لديّ، تقي تماماً أنني لو كنتُ مثلياً لأخبرتكُ مُدّ تعارفنا، ولا تنسي أنني

كنت متزوجاً رغم معرفتي بالكثيرين من المتزوجين ومع ذلك ينفرد
الرجل بالرجل، وتكتفي الأنثى بالأنثى .. إلى اللقاء أماً .

obeikandi.com

مُحَرِّكُ السَّيَّارَةِ يَهْدُرُ كَمَا الرَّعْدُ فِي كَانُونٍ، يَثِيرُ أَشْجَانِي وَيَذَكِّرُنِي بِصَوْتِ
 أَنِينِي فِي آخِرِ عَهْدِي لِي بِالنُّوْمِ، أَهْوَى اللَّيْلَ لِلسَّهْرِ لَا لِنَوْمٍ أُجْبِرُ عَلَيْهِ فَيَتْرَكُ
 ثَقُوباً تَنْسَرِبُ مِنْهُ أَوْجَاعُ الزَّمَنِ السَّحِيقِ، لِأَسْتَيْقِظَ كُلَّ صَبَاحٍ مُرْغَمًا لِلتَّوْجِهَةِ
 إِلَى عَمَلِي، شَغَلْتُ الْمَذْيَاعَ لِأَسْتَمَعَ إِلَى فَيْرُوزِيَّاتِ الصَّبَاحِ وَتَحِيَّةِ هَيَامِ حَمُوي
 لِمَنَاطِقِ سُورِيَّةِ وَمَحَافِظَاتِهَا ..

هيام : صباح الخير يا مزة .

كُنْتُ مَرَّأَةً لِحَظَّتُنِي مِنْ أَوْتَسْتِرَادِ الْمَزَّةِ حِينَ هَمَسْتُ هَيَامَ بِتَحِيَّتِهَا
 الْمَلَائِكِيَّةِ، أَصْوَاتُ الْقَذَائِفِ تَقْضُ مَسْمَعِي فَأَزِيدُ مِنَ السَّرْعَةِ، قَرِيبَةً مِنْ
 هَيَامِ، وَقَرِيبَةً أَيْضاً أَصْوَاتُ الْقَذَائِفِ الْمُتَزَامِنَةِ مَعَ تَحِيَّتِهَا .

أَرَى فِي مَرَّاةِ سَيَّارَتِي دَخَانًا كَثِيفًا يَتَصَاعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، رُبَّمَا كَانَ مِنَ
 الْمَعْضُمِيَّةِ أَوْ مِنْ مَفْرَقِ دَارِيَا .

” يَا رَيْتِ .. أَنْتِ وَأَنَا بِالْبَيْتِ .. شَيْءٌ بَيْتٌ أَبْعَدُ بَيْتِ .. مَمْحِي وَرَا حُدُودِ
 الْعَتَمِ وَالرِّيْحِ .. وَالتَّلِجِ نَازِلٍ بِالْدُنْيِ تَجْرِيحِ .. يَضِيْعُ طَرِيقُكَ مَا تَعُودُ تَقْلُ ..
 وَتَضَلُّ حُدَيْ تَضَلُّ .. وَيَزْهَرُ وَيَدْبَلُ أَلْفَ مَوْسَمٍ فَلَ .. وَتَضَلُّ حُدَيْ تَضَلُّ

حدّي تضلّ وما يضلّ بالقنديل نقطة زيت .. ياريت ” .

هيام : صباح الخير يا صالحة .

أجتاوز الحاجز المحاذي لمكتبة الأسد الوطنية بعد أن دَفَّقَ الجندي بطاقتي الشخصية وفنَّشَ صندوق سيارتي، مُشيراً إليّ بمتابعة السير .

طرقات دمشق وشوارعها تغيَّرتْ، بتنا بحاجة إلى خريطة يوميةٍ لنصل المكان الذي نقصد، الموت المجاني عَيَّرَ من ملامح المدينة الكثير وبقي هو الثابت الوحيد، تكاد لا تتعرَّف على دمشق بعدما عجَّتْ فيها السواتر الإسمنتية والحواجز وأكياس الرمل، وقد مُنِعَ السير في بعض شوارعها، حتى ساحاتها الرئيسة لم تبقَ على حالها، منها ما أُغلقَ أو قُتِدَ خشية استهدافها أو استهداف مقَرَّاتٍ حكوميةٍ تقع على أطرافها، حتى عبَّق الياسمين اختلطَ برائحة الدم والقذائف والبارود، وما عاد عطر دمشق الأوحده، تلاشي .. أو كاد، صدح صوت فيروز ليعانق الشام :

شام يا ذا السيف لم يَغِبِ يا كلامَ المجدِ في الكُتُبِ

قَبْلِكَ التَّاريخُ في ظُلْمَةٍ بَعْدَكَ استولى على الشُّهْبِ

وصلتُ مقر الإذاعة وأنا أرَدِّدُ :

تلتوي خصرأ فأومي إلى نعمةِ النايِ ألا انتحبي

أنا في ظلك يا هُدبها أحسب الأنجم في لعبي

كِدْتُ أبكي وأنا أترنم بما يُقيني في دمشق الساحرة حيًا:

أنا صوتي منك يا بردى مثلما نبغك من سحُب

فاجأني اتصال يم بي .. أين أنت يا يم ؟

كاد يبكي حين سمع صوتي، حدّثني عن حاجته لرؤيتي أو مُحادثتي مُطوّلاً على الهاتف، لأمرٍ يريد إعلامي به، وعدته أن أحادثه ليلاً وطلبت منه ألا يفكر بالسفر في الوقت الحالي .

أخبرني بموجز ما يريد قوله، تعرّف إلى شاب يحاول استغلاله، ويريد النصح مني، اختفى صوتي، لم أشأ أن أعكّر صباحي بما يزعجه، ويشير حنقي، خاصة أني سأكون على الهواء بعد دقائق، أقفلت جهازي والدهشة ترحح يم من موقعه لدي، احترت في أمره، أيمكن لعاقِل أن يهوى ثلاثة رجال في وقت واحد؟ هل هذا جنون أم فرط عاطفة وأحاسيس أضاعت دروبها في الحياة، فابتلى بالوهم مرضاً رئيساً يعاني منه؟ تساءلت كثيراً عما يربطه بهذا العالم وما يبقيه على تحمّل كل ما يعانيه، وما وجدته جواباً .

على عجلٍ كتبت ما أردت أن أفتتح به برنامجي اليوم، ناسفاً ما كنت قد أعدته :

” تُرتكبُ كل لحظة جريمة شرف بحق المجتمع، ولكن أي مجتمع هذا

الذي يريزح المتعافون فيه تحت وطأة الكبت، في حين يُسحقُ المرضى تحت عجلات ألسنة الكلام - النار التي يصوّبها نحوهم المتعافون، فيبدو هذا المجتمع في دنو مستمر من جُبِّ الرذيلة، ويتسّرُّ على جرائمه بالإفصاح عن رفضه عما يتمرّع فيه، جرائم الشرف في كل اعتداء على قيمة خُلُقِيَّة وُضِعَتْ لتكون البوصلة، جرائم الشرف تُرتكَبُ في كل ما يؤدي إلى اختراق الإنسان ”

ختمتُ برنامجي بما كتبتَه خلال الفاصل الإعلاني :

” لا تأخذ بأناقة الأقنعة وجمالها، ولا تُبهر بفتنة ما تراه في الظاهر، اكتفِ بإشاراتٍ ما تحمله سطور صفحات الوجوه التي تقابلها، أغضُ عينيك عن الأقنعة واجعلها صفحات تخفي إشاراتٍ مختلفة، احرص على رسم إشارة الاستفهام والتعجب في صفحة وجهك ” .

رغم أنني كنت أضيقُ في كل حلقة من برنامجي ما يعكس مجريات حيوات الكثيرين ممن هم حولي، وما يتعرّضون له أو يواجهونه من مصاعب أو آلام، إلا أنني وللمرة الأولى أفرد ما يربح كفة الذاتية على كفة هموم الناس فجعلتُ الحلقة بعنوان ” رسائل ذاتية إلى البحر ” بدأتها بما وصفتُ به قهقهة ألما :

” لو انك تُدركُ أنّ القهقهة لغةٌ فريدةٌ لا حروفَ تحملها دونما غاية، لكنك استوعبتَ درسَ الزمنِ بدورته التي جعلتَ لتدور الدوائر وتوقعكُ بما لستَ تمتلكه من فرادةٍ تظنُّ نفسك مُتخماً بها .

تراكيبك تمنع الندى عن السراب لإيمانها المُطلق برحلتها الكونية
الثابتة، ونعومة ملمس الحرير تجاوزَ الأثير وحطَّ على جناح شهوةٍ مُتَحِيلَةٍ
ففاضَ الصدى حُنقاً بصوتِ أثير .

روحٌ تتأمسُّ تجاعيدَ حروفك لتنفقاً عينَ المصاب، وينزُّ الدمعُ ليملاً
بُور الحية فيك ..

تجلّد لما هو آتٍ .. فالقادم سيهزم عَضفاً موتورا ” .

كنتُ حزيناً، مسافرٌ صوتي عبر أثير الإذاعة ليلتقي بموجه الحبيب، وقد
دعوتُ المستمعين للسفر نحو الساحل للتنعم بذيّك الموج ورمي أحمالهم
عليه، فإن استوعبَ ثَقَل ما يرمى إليه، خَفَّف المرءُ من الحزن فاستبدله
بالرضا، وإن رجع مُتجاوزاً ما كان يثقله، كانت الريح أولى بعواء اللعنة .

ترافقتُ الحلقة مع خبر استشهاد الإعلامية يارا عباس في الإخبارية
السورية التي كانت ترافق الجيش في منطقة القصير لنقل ما يحققه من
إنجازات في سحق المجموعات الإرهابية، تابعتُ مع أغنية وطني لفيروز،
ومن ثم أغنية ” يارا الجدائلها شقر ” .

كان الصباح طفلاً يُناشدُ يارا بأن تعود، اختنقَ الحزنُ في صدرِ الوطن،
بات رسمنا لفسيفساء الوطن الجريح لوحة من نور و نار، نور من إيماننا بهذا
التراب وبقديسته، و نار على أعدائه وقاتلي أبنائه .

أُسبغَ صوتي بالحزن على ما يجري في الوطن، وتراخت الروح في بثِّ

أوجاعها عبر البرنامج :

” سأقف صباحاً على شرفة منزلي لأقطف ياسمينه دموية وأقدّمها لحبيبتى، سأزرع بذور الحبق وأسقيها من دمعى، لأحصد بعد حين شظايا الإرهاب المنغمس بالدم وبالشيطان، دماء .. دماء .. دماء، تُسْفِكُ على قارعة الوطن الشهيد، والإرهابيون يُقهقون، يُكَبِّرون، يدبكون على جلد شعبي الباكي، على نعوش وأضرحة الأطفال وهم أحياء أموات، نسوا عيدهم في غمرة الحزن، والناهبون الأمن يرقصون على فئات الحياة، يرتكبون جرائمهم باسم الله وترى مَنْ عَارِضٌ يُقْبَهُهُ وَيُصَفِّقُ، وفي النهاية، ستترف راية الوطن وعلمه، يرفعها جندي الجيش العربي السوري، واليد الأخرى مرفوعة لتتولى سبابته والوسطى رسم شارة النصر ” .

ما إن فرغتُ من قراءة كلماتي، وقبل أن أنهي حلقة اليوم من برنامجي، استدعاني مدير الإذاعة، بدا مُتَجَهِّماً، غاضباً على غير عادته، قال مُحْتَدّاً :

• قيصر .. أنت تدرك كم أثق بك، وأترك لك الهواء دونما قيد أو شرط، لا رقابة على ما تُعدُّه وتقدِّمه، لكنك تعرف سياسة الإذاعة والخط الذي رسمته منذ بداية الأحداث في سورية، تدرك أنني لا أريد أن أحسبَ على طرفٍ مقابل طرفٍ آخر، سمعتُ ما تحدّثت به منذ قليل، لا أريد منذ الآن وصاعداً أن ترتجّل حرفاً واحداً على الهواء .

• على رسلك .. لِمَ كُلُّ هذا الكلام ؟ وما الذي قلته أنا ويخالف

سياسة الإذاعة ؟ راجع لو سمحت كل كلمة تفوّهتُ بها وستجد أنني لم أخالف سياستك يا أستاذ، وكما أن لك سياسة فيما تقدّمه عبر أثير إذاعتك، فإن لي خطأ تعلمه وقناعة تدركها ونهجاً أسير عليه، وما قلته لا يخرج عن معرفتك بي وبآرائي، وبعد .. فإن الوطن كما تعلم لا يقبل بالرمادية بعد كل هذه الفترة وما عانى فيها شعب سورية .

• تفضل الآن .. وللحديث تنمة .

obeikandi.com

قدّر شهيد ما بداخلي حين استمع إليّ عقب إعلان استشهاد يارا عباس، فسارع لملاقاتي .

في الطريق، حاول جاهداً أن يُخرِجني من أجواء الحزن الذي غلّف روحي فشرع يُحدّثني عن وصلته الغنائية وعن حنينه إلى الفن واشتياقه إلى الطرب العراقي الذي يفتقد سماعه في سورية .

ساء دمشق حزينة، كقلبي، سأتلو قلبها نشيداً لوطني، لن يسقطوني من تكوينها، النهار يتلوني آيةً بياض في روحها لأنطق بما تُحِبُّ مني، دمشق ياسمين الوجود، وعشقها في روحي يسود ويسود .

في البيت، أخبرتُ شهيد بما دار بيني وبين ألما الليلة الماضية، جلجلتُ ضحكته في أرجاء المنزل، أتبعها بأنشودته الواثبة فوق سخافة ما أبدته ألما من حماقةٍ تجاوزت المعقول، شردتُ، لم أعد أسمع صوت شهيد ولم أتبيّن حركته أمامي، تعطلّت حواسي عنه، شيءٌ ما انتشلي من المكان، بعد لحظات، تنبّهتُ إليه يُحدّثني مُستغرباً ما آلتُ إليه أحوالنا : ” .. على الرغم

من سطوة الموت على الحياة وَتَفَنُّنِهِ بصياغة المقولة الكبرى الأكثر تأثيراً على الأحياء أو من شابههم، إلا أنكم سرعان ما تديرون له ظهوركم وبالكاد تستمعون إلى مقولته، تتأثرون للحظات ومن ثم تشغلون بمتابعة ثرثرتك بصخب يُضجِرُ الحياة فتدعوه للحضور .

لم أستطع النطق لأقول لشهيد إن الموت الذي أعرف، مجللاً يبدو بسلامٍ داخلي لمن يرحل والشهادة مقولته الأخيرة، هزَّ شهيد رأسه أسفاً، قرأ حروف صمتي فأدرك المعنى .

زين هاتفي المحمول أحياء الحروف، مكتوبة، حدَّق شهيد في شاشته ليجد اسم ألما يُلملمُ بأنينٍ باردٍ علاماتٍ موسيقية كنتُ خصصتها لاسمها المكتوم، لم أرد، فرضتُ عليه الصمت، تَبِعْتَهُ بعد لحظات صرخة من الهاتف الثابت بدتُ مُعْتَرِضَةً على التجاهل، دنوتُ منه لأقرأ رقم ألما يظهر في مناورةٍ جديدة، سحبتُ ” كابل ” الهاتف من موضعه، والصمتُ قفلاً على في .

همس شهيد قائلاً :

• ها قد أعلنتُ لك بعد صبرها عليك ما غايتها منك، فهل تريد الاستمرار معها في العلاقة ؟

بصعوبة، رددتُ قائلاً :

• سأدعها الآن، لقد تجرأتُ عليّ ويجب أن أعاقبها، الأمر تجاوز

الصراحة إلى وقاحة لا تطاق .

- الأمر لك، لكنها ستزعجك كثيراً كما ترى ريثما تستوعب أنك تُلقنها درساً قاسياً .
- لن أردّ .

كم هو مريح ذلك الإحساس، حين تعبر ببضع كلمات عن موقف، تكون حروفك بمثابة خلع القناع عن وجه من كان يتفنن في إيدائك ولو بكلمة، يكون الحرف .. كالرصاصة لمن يفهم ما وراء الحرف ويقراً ما بين السطور، أحياناً، تكون بحاجة لحروف صامته وإن شَبَّهتَها برصاص فلن تكون ظالماً أو قاتلاً، فقط .. احرص على أن تكون حروفك مُنتقاة بعناية ويستحق من توجهها له .. أن يُحسِّنَ قراءتها .

رفع شهيد حاجبيه وزمَّ شفثيه، ضربَ كفاً بكفٍ ونهض مُتَّجهاً إلى الحمام، وهو يرِدُّ بصوتٍ خفيضٍ وبحزنٍ عراقي أصيل أغنية حميد منصور "سلامات" بينما كنت أَلْبُ صوتي التي التقطها لي يم على شاطئ البحر في اللاذقية، استوقفتني صورة محددة، رأيتُ فيها البحر وقد أشاح بنظره عني، تذكَّرتُ يم، أمسكتُ الهاتف لأحادثه، لكن فكرة استوقفتني فأردتُ كتابتها قبل أن تفرَّ مني :

" لا شكرك على حضورك، حين تُغيِّبكَ الخيانة، تعودُ مُبتلياً بالإثم لكي تثبتَ الحضور، لا بد من الوفاء، لا عتب على اختفائك في سوادِ الهامش

الذي اخترت، لأنك عُبارُ الحماقة التي ارتديت، حأمك اخضرا، لا شك في الياس، الشُكْرُ لمن خَلَعَ عنك هذا القناع .

كان صوت يم يَصْخُ شوقاً كعادته، أخبرني أنه بعث برسالة عبر البريد الإلكتروني حين وجدني لم أتصل به، يم لا يزال مُصراً على الضياع فيما يرتكبه من حماقات، أغلقتُ سماعه الهاتف وشرعتُ أقرأ رسالته :

” عبر أحد المواقع الإلكترونية الخاصة بالمثلين، تواصلتُ مع خالد، شاب يطفح بالرجولة، ويدرس في كلية الحقوق بدمشق، زارني وتعارفنا، دون أن نمارس الجنس .

بعد أيام قليلة أتى برفقة صديقه مجد، في العقد الثالث من عمره، همس لي خالد برغبته أن نكون ثلاثتنا في غرفة النوم، وجهُ مجد يشي بطفل مُحْتَبَى في داخله وبروح طيبة تسكنه، بعد قليل ناديتُ خالد ليوافيني إلى المطبخ، أخبرته بأني لا أمارس الجنس مع أكثر من شخص، ودعوته للدخول إلى غرفة نومي إن أراد ممارسة الجنس مع مجد، ضمّني إلى صدره وهو يقول : أنت طيب القلب .. حبيبي .

انسحب الاثنان ليدخلا غرفة النوم، في حين بقيتُ جالسا أدرُدشُ مع أصدقائي على موقع Facebook .

بقي خالد ومجد في بيتي بضعة أيام، دون دعوة مني، طلب مني خالد أن أعرفه على أحد المثليين من أصدقائي على موقع Facebook وعلى

الفور بدأتُ باستعراض قائمة الأصدقاء، استوقفتني خالد عند رؤيته صورة صديق لبناني :

- من الواضح أنه مثلي، هل اجتمعتَ به ؟ أيمكنني إضافته ؟
- ما حالك يا رجل؟! لا لم ألتقِ به لكنه تحدّث إليّ في الموضوع .
- سوف أرسل له طلب صداقة .
- كما تريد، بالمناسبة إنه Gentleman..هل تحرّكتَ شهوتك تجاهه ؟
- ” منمرّقو ولا يهملك ” .
- انتبه يا خالد، إنه شاب لطيف ولا أريد أن أخسره بسببك، لا تخبره أنك صديقي
- لن أخبره، لا تشغل بالك حبيبي .

خالد ومجد في بيتي لأسبوعين متتاليين، كان الوقت يمضي بهما ما بين المحادثات على الشابكة وممارسة الجنس، أحاديث جانبية بيننا تمر كسحابة صيف كل مساء، كنتُ مندهشًا من طول فترة إقامتهما، لم أظهر لهما أي ضيق، بثُ مُهتمًا بمعرفة تفاصيل أكثر عن مجد والشخصيات التي مارس معها الجنس لكي أُحدّثك عنها فيما بعد، لم أخفِ عن مجد توقي للقائهما بعدما أخبرني بتفاصيل مُثيرة وأسرار مُلغّية عنها، كان لمجد أصدقاء كُثُر من الوسط الفني، بالمناسبة .. مجد دكتور في الجامعة، طلق زوجته منذ مدة

قصيرة بعد زواج استمر أكثر من سنتين، أخبرها بحقيقة ميوله الجنسية وبأنه سيظل يمارس ما تهواه نفسه، وحين لم تستطع تحمّل الأمر .. افترقا .

قويث علاقة خالد بالشاب اللبناني خلال تلك الفترة، كما استمرّ بالتعرّف على المثليين عبر المواقع الإلكترونية الخاصة بهم، أعجبتني صورة أحدهم، طلبت من خالد أن يخبره عني، كان طبيباً نسائياً، تعرّفت إليه وبدأنا بتشغيل الكاميرا معه، خالد وأنا من طرف، وفي الطرف الآخر الطبيب ماهر، كانت نظرته لخالد مُفعمّة بالولّه والشهوة على الدوام، أمام ابتسامته يضحك الكون، وحينما كنتُ أراه وحيداً، يبدو غير مكترث بي، يتحدّجّ بانشغاله في أمر ما ويمضي، مما أثار حنقي، وعند مصارحتي له بالأمر، أسرّ لي بأنه يهوى خالد ويشتهيّه إلا أنه يعانده في كيفية ممارسة الجنس معه، فكلاهما Top Only .

استغربتُ تواصلهما الدائم في مشروع علاقة جنسية بدتُ مستحيلة إن لم يخضع أحدهما للآخر، ما تسبّب بشرْحٍ بينهما انتهى بشجارٍ عنيف على الشابكة والهاتف، اتصل بي ماهر ليخبرني بأنه يودُّ الاستمرارَ معي لكن دون أن يعلم خالد بذلك، وافقتُ بشرط ألا يتعرّض لخالد في أي قولٍ مُسيءٍ له أمامي، وعدني ماهر بذلك وتأكّدتُ تبعاً أن غايته من التواصل معي أن يعرف أخبار خالد .

اتصل بي ماهر بعد أيام من سفر خالد إلى بيروت لزيارة الشاب اللبناني، طلب مني أن أحضر حالاً إلى مقهى ” العرزال ” حيث كان

بمهمة عمل في اللاذقية وسيغادر بعد ساعة، فور مجالستي له، حدّثني عن خالد، عن ولده به، وعن زيارته له في بيت أهله وانفردهما في غرفته ومارستهما الجنس معاً Soft بثّ لي غيرته على خالد الذي لم يبادله الهوى يوماً ولم يهتم لأمره، أعلمني بتفاصيل ما أخبره به خالد عني، وهنا كانت الطامة الكبرى، ذهشتُ حين أدركتُ أيُّ كاذب هو خالد، صمّتُ لبرهة ومن ثم قلتُ لماهر :

• إن كان ما حدّثك به خالد صحيحاً فما الذي اضطرّهُ للبقاء عندي مع صديقه أكثر من أسبوعين ؟

• لا أعلم، رغبتُ أن أخبرك بذلك لكي تتّقي خالد فهو لا يؤمن جانبه، ولن أراه بعد الآن إلا لممارسة الجنس فهو مثير بالنسبة لي .

خطر لي أن ماهر يكذب عليّ ليعدني عن خالد الذي يهواه، وأن انزعاجه من محبة خالد لي يدفعه للكذب، لكن بالمقابل ما تحدّث به ماهر عن تفاصيل يومية لم يكن ليعلمها لو أن خالد لم يخبره بها .

ودّعتُ ماهر بعد ساعة من جلستنا، وقررت أن أنهي علاقتي بخالد .

اتصل خالد عدة مرات بعد عودته من بيروت، ثم وجّه لي الرسائل عبر Facebook والبريد الإلكتروني مستفسراً عن سبب تجاهلي له، ولما بدا حائقاً مني أجبته برسالة نوهتُ له فيها بأنني لا أقبل الإساءة ممن استقبلته في بيتي، عاد ليخبرني بأنه مذهولٌ ولم يفهم ما أقصده، وحين

عاود الاتصال، حدّثته بالأمر، نفى بشدة أن يكون قد أساء إليّ بكلمة، كما استغرب تصوّف ماهر، ولم يجد تفسيراً له إلا غيرته عليه وعشقه له، موضحاً أن ماهر يدرك محبة خالد لي، وبأنه حالياً يهوى الشاب اللبناني ولن يكثرث لأموار المثليين بعدما تملكه هواه مجرّداً عن أية شهوة جسدية .

قمت بحظر خالد، لم يتقبّل فكرة رفضي له، حاول مجدداً التواصل معي دونما نتيجة، ولأنني أدرك طباع خالد، أتوقع منه إساءة أشدّ وقعاً علي لا اعتبره أن حظري هزيمة كبرى له، ورفضاً صارخاً لشخصه، أقول لك أخيراً يا قيصر : ” هذا هو مجتمع المثليين الذي ترغب بمعرفته، ومن ثم طرحه، لكنني الآن أخشى خالد، لن يقبل بالهزيمة ” .

انتهت رسالة يم .

حين دخلت إلى Facebook صُعِقْتُ لما نشره أحدهم في صفحة يم
منذ ساعة :

” أكثر ما خبرته في حياتي .. جسدك، أُتِقِنُ التعاملَ معه، أدركُ
احتياجاته وما يهوى، أَقَدِّرُ روعةَ جماله حَدَّ التعلُّقِ والوله، حفظتُ
تضاريسَهُ بتفصيلٍ مُورِقٍ وحرار، أهوى النظرَ إليه، كُما مَرَرْتُ من أمامي
أو جالسْتُكَ أو استلقيتُ مُتَعَباً بعد ليلةٍ حُبِّ عاصفة، عشقتُ لِمَسِّ
سهوله وهضابه، تَنَشُّقُ راحَتِهِ، تَذوُّقُ طعمه واحتضانه، لا يُقَدِّرُ جسدَ
الرَّجُلِ إلا الرجل، لذا تعلمتُ فنونَ التعاملِ معه، فهو الحبيب الذي لا
يُفارقني وإن غبت عني، وإن طَوَّتْكَ المسافات، أُسرِعُ إليك لكي تَسْتَسامَ
لي وتخضعَ لسلطاني، أحبُّ خضوعَكَ لي، والاستسلامَ لفحولتي، والتحليقَ
بضحيتي، عانتُك كيف تفكُّ أَسْرَ الجسدِ لنحليقَ معاً في فضاءاتِ الشهوةِ
ونكتشفُ رائحةَ الرغبةِ المتشَبِّهةِ في النفس، كثيراً ما رويتُ لجسدِكَ قِصَّةَ
عشقي بامساتٍ تكشفُ له تفاصيلَ التفاصيلِ، أكتشفُ أسرارَ غوايته من
خلالك، أُسدِلُ فوقهُ ستارةَ وردٍ وأغفو قربه، أبتسمُ وأبتسمُ ... وأحلمُ ” .

يم .. أيُّ مجنون أنت ؟!!

اتصلتُ به على الفور، رياحُ سُخْطِي وِغْضَبِي مَزَّقَتْهُ لِيَنْتَثِرَ بَقَعُ زَيْتِ فَوْقَ زَبَدِ الْبَحْرِ الَّذِي يَجْلِسُ إِلَى صَخُورِ شَاطِئِهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْشُرُ أَحَدَهُمْ فِي صَفْحَتِهِ فَضِيحَةً سَتَكُونُ مَدْوِيَّةً خِلَالَ لِحْظَاتٍ .

• أيُّ معنوه أنت يا يم !! أين أنت ؟ ألم تقرأ ما نشره أحدهم في صفحتك على Facebook ؟

• لا لم أفتح صفحتي هذا اليوم بعد، ما الذي نُشِرَ في صفحتي ؟ ما اسم من قام بالنشر ؟

• يدعى Dado Big من يكون هذا المأفون ؟

• إنه خالد .. هذا حساب آخر له، ” و راس أُمِّي ” نسيْتُ أن أحظره، اقرأ لي ما كتب أرجوك .

حضر شهيد أثناء قراءتي لما نشره خالد في صفحة يم، ضرب جبهته بعنف، وخرج غاضباً ليقف على الشرفة، شتمتُ يم دون إرادة مني، فقد افْتُضِحَ أمره، وسيكون منذ الآن حديث الناس، أي أحق أنت يا يم !! .

أنهيتُ اتصالي به، بعدما طلبتُ منه أن يعود إلى البيت حالاً ويحدِّثني على الهاتف الأرضي .

وقفْتُ إلى جانب شهيد، تساءلتُ بحنق : أي نهاية يصنعها لنفسه ذلك

الأبله؟!!!

قال شهيد متذمراً :

- اقطع علاقتك فوراً به واحظره على Facebook .
- يم صديقي يا شهيد، هل أتخلى عنه الآن ؟
- لقد افتضح أمره، وربما أصبت بشظايا فضيحتة .
- شهيد .. اسمع : ” في مجتمع نضفه عاطل عن العمل والنصف الآخر مكبوث جنسياً ماذا تتوقع منه ؟
- بالله عليك أخبرني، حتى لو كان المجتمع متواطئاً لكي يبيح خلسة محظورات ما يرفضه في العلن، هل يقبل هذا المجتمع أن يكون الرجل مثلي الجنس ؟ .
- شهيد .. إنه صديقي، هل أتخلى عنه في هذه المحنة ؟
- محنة؟!!! قل فضيحة مدوية يا رجل، كم مضى من الوقت على معرفتك بـيم ؟ هل تعتبر حقاً أن ما بينكما صداقة ؟ وهل أحطت بكل ما يخضه لتفخر بصداقته ؟ لا تقل لي إنه حَقَّق الكثير في حياته .

يبدو شهيد منطقياً في أسئلته، ربما انبهرتُ بدايةً بـيم، لكن ما تكشف لاحقاً يستدعي إعادة النظر بالكثير من التفاصيل، وما كنت أنبه منه،

استطاع أن يجعله وراء ظهري، الخط البياني آخذ في الانحدار، وأنا أهتُ
وراء هدف واحد : أن أستقي المعلومات من يم ، ما يعني أنني قدّمتُ
المصلحة على أي اعتبار آخر، أطرقتُ هنيئة ثم قلت :

• نحن ملوثون بالفردية والأنا العظمى يا شهيد، ننتهزُ من الخارج
بانفصامنا الفاضح، ونلَوْنُ وجوهنا بما يُعزّيها ظناً منا أننا نُجملها
ونُخفي قُبْحها .

• ما معنى هذا ؟ ولماذا تصرُّ على فلسفة الأشياء بمواضع تتطلّب
اتخاذ موقف حيالها ؟ هل ستستمر في صداقتك له ؟ .

• ألوّم نفسي يا شهيد، أدركُ أن الوهم الذي يسكن رأس المثلي يدفعهُ
إلى تفسير كل تصرفٍ نحوه على أنه سعيٌّ للتقربِ إليه، وها هو يم
وقع في مصيدة خالد، لكن لا بد من إيجاد سبيلٍ لكي يخرج من
هذا المأزق .

بدا شهيد حازماً في موقفه تجاه يم، رافضاً لما أتفوّه به :

• فليجده يم بنفسه، لا علاقة لكّ بالأمر وإلا اتهمتُ بالمثلية أنتُ
أيضاً ولا تقلُّ لي إنَّ برنامجك يستدعي تدخلك بأمره .

• لن يكون برنامجي دفاعاً عنهم، أو هجوماً عليهم، ما أسعى إليه هو
كشْفُ أمورهم التي يتعامى عنها المجتمع لأنه غارقٌ فيها، يجب
أن يحدّد المجتمع موقفاً واضحاً من الأمر، بمعزل عن انخراطه في
تَشْطيمهم وعذاباتهم، إنهم حقيقة يا شهيد، وجودهم فاق التصور،

وما اطَّلعتُ عليه من خلال يمِ أذهلني، يكاد يصيبني بالجنون،
وليس فيهم من هو كائنٌ أتى من كوكبٍ آخر، جميعهم نتعامل
معهم، منهم من دخل هذا العالم على سبيل التجربة، ليس بدافع
الشهوة أو الشذوذ أو الهوى والميل الفطري، وقد راق له الأمر،
فكيف بمن كانتِ المثلية مُتأصِّلةً في داخله ؟ يجب أن نواجه هذا
الأمر .

طغى الاشمئزاز على وجه شهيد، بدا صبره ينفد، انتفخت أوداجه حين

قال :

• أي فئة تهتمُّ بها يا قيصر ؟ ما الذي سيقدمه لهم برنامجك ؟ ألم
تسأل نفسك ما الذي قدّموه هم لمجتمعهم ؟ فكيف لهم أن يطالبونه
بالاعتراف بوجودهم واحترامهم، ويتباكون على ما يكرهون من
المحيطين بهم من نظرات الاشمئزاز والكره والاحتقار، ويرفضون
نعتهم بالشذوذ أو الانحراف، وهم أنفسهم يصفون بعضهم بالدونية
والفجور، يكذبون بعضهم البعض، وهم أنفسهم من جعل كلمة
مثلي الجنس مُرادفة للفسق والانحطاط، وكل همهم غريزتهم
وشهواتهم وفجورهم الفعلي؟! .

• يا رجل، ألم أخبرك بأنهم ينتمون إلى كافة الشرائح الاجتماعية
والكثير منهم حقّق نجاحاتٍ جمة على مستوى التحصيل العلمي
والأكاديمي وفي أغلب الاختصاصات؟! .

صمتٌ لبرهة .. ثم أردفت :

- حالة الملل التي تدهم الرغبة ألا تزيد من إشعالها بفتنةٍ وشَبَقٍ ؟
- زفر شهيد بعمق، ضرب كفاً بكف .. رنا نحوي و صبره يتلاشى :
- هل عدنا إلى فلسفة الأشياء؟! ربما يا قيصر، ربما .
- اسمعني جيداً يا شهيد، أنت .. ألم تحادث البعض منهم على Facebook ؟
- ربما، لكن سبق أن قلت لك : جميع من أحادثهم على Facebook هم في عالم افتراضي لا يمتُّ إلى الواقع بصلة .
- وحين أدخلُ إلى صفحتك وأجدُ أنَّ أكثرَ من خمسين مثلياً يتابعها، وأنتَ لستَ بمثلي، ما معنى هذا ؟
- لا يعني شيئاً، هم أحرار ولن أمنعهم عن متابعة صفحتي، لكن لا أصادقهم في الحياة .
- أحدهم قال لي : ” جميع الرجال مثليون حتى يثبت العكس ” فما رأيك في وجهة النظر هذه ؟
- لا أتفق معه .

• الأمر نسبي .. و ربما كنتَ أحدهم ؟

• فقهه شهيد مُستنكراً ما تفوَّهتُ به .

• ما الذي تقوله يا رجل؟! .

- لماذا تستنكر عليّ أن أقف إلى جانب يم إذن، ربما تتعرّض أنت مثل هذه التهمة من أحد أصدقائك الذين يراقبون صفحتك مثلاً ليفسّر متابعة المثليين لك بأنك منهم ؟
- لا شأن لي في تفسيرات الآخرين، سلوكي في حياتي هو ما يحدّد وجهتي في هذا الأمر .
- أنتِ عرفتِ يم قليلاً، وقد حدّثتكَ عن إنجازاته في مجال عمله واختصاصه فكيف لي أن أرفضه كإنسان لمجرد أنه مثليّ الجنس ؟ أنا لا أَدافع عنه الآن، لكن يجدر بي أن أقف إلى جانبه ليتجاوز أزمته الحالية، أما كونه مثليّ الجنس فهذا أمرٌ يخصُّه ولا يعنيني في شيء ما دام لا يتسبّب لي بضرر .
- هذه قناعتك، وأنا أختلف عنك فيها .
- إذن لا تُعارضني فيما أنوي القيام به .
- ما الذي يُمكنك فعله بعدما افتضح أمر يم ؟
- إنَّ نَشْرَ خالد لنصّه على صفحته لا يعني فضيحة له، يجب أن يتصرّف يم بشكل طبيعي ولا يهتم بالموضوع، هناك مجانين كُثُر في العالم وخالد أحدهم، يجب أن يتصرّف يم بهدوء وكأنَّ شيئاً لم يكن، ومن جهة أخرى .. يم يجب أن يتزوج وقد حادثته في هذا الأمر .

أطلق شهيد ضحكةً ساخرةً قائلاً :

• يم !! يم .. سيتزوج !! وهل سيرضى المجتمع عن مثليته إن كان متزوجاً؟

• أنت تدرك تماماً أن من بين العظماء في التاريخ كان هناك مثليو الجنس الذين أمضوا حياتهم وقد فرضت مجتمعاتهم حُكْمها وعاداتها عليهم، ورغم ذلك قَدِّموا للإنسانية أروع الأعمال وفي مختلف المجالات، فهل نَسْفهم التاريخ وحطّم إنجازاتهم أو أتلفها لمجرد أنهم كانوا مثليين؟ لو اندثرث أعمالهم وما تركوه للبشرية من بعدهم لما سمعنا عنهم أبداً .

• هم كانوا موجودين في غابر الزمان، ومضوا كما مضى، الآن نحن في هذا المجتمع الذي لا يزال يحاكمهم اجتماعياً وقانونياً وإنسانياً، ولا أعتقد أن ثمة عظماء من بين مثليي هذا العصر ..

قهقهة شهيد وهو يخطط كفاً بكفٍ ويدير برأسه يئنة ويُسرة .. ثم تابع :

• هم هياكل عظمية تهوى الجسد وتُفتن به لا أكثر، والله لا أشبههم إلا بالتبوس المخصية، ثم .. ثم ما بالك تدافع عنهم؟ هل نسيت اتهام ألمانك؟ رغم سخافة تفكيرها إلا أنها اتهمتكَ وتجَرأت عليك لمجرد اهتمامك بي وإقامتي في بيتك، هل نسيت؟! .

• لم أنس .. وأنت تدرك تماماً ما غايتها في اتهامي، ولسنا الآن بمعرض مناقشة أمرها .

• لكنها أظهرت لك قبولها بمثلية زميلها الذي كشف سرُّه لها، وحين

- واجهت الأمر معك بظنونها السوداء .. رفضت القبول به وبك .
- لأنها تريد الوصول إلي لا أكثر، عشقت جسدي وأرادت إطفاء شهوتها .
- كما تريد يا قيصر، كُنْ على ثقةٍ أنّ برنامجك هذا لن يجلب لك إلا وجع الرأس والثرثرة والفضائح، نحن في مجتمع أكثر ما يهتم به هو الفضائح ونشر الغسيل الوسخ، أودُّ أن أطمئنك أخيراً، لست مُصاباً بـ " الهومو فوبيا " .

ضحك شهيد بشدة، في حين كان الصمت يُسربلني، وقراري الآني أن أعادَ التفكير ملياً في برنامجي .

مر يومان، لم أدرِ ما حلّ بـ يم لانقطاعه عني وانشغالي بعلمي، وفي صباح اليوم التالي أطلق هاتفني المحمول الرنة المخصصة لهبة الله، أخبرتني أن يم أُصيب بانهيار عصبي استلزم نقله إلى المستشفى وبقي يومين فيها للعلاج والمراقبة.

قررتُ السفر إلى اللاذقية لأكون إلى جانب يم، وقرر شهيد السفر إلى بغداد .

obeikandi.com

بعد انطلاق الحافلة بساعة، وصلتني رسالة من أماً، كتبت فيها :

” ظننتُ أنَّ الصوتَ الحَيِّ قادم، اصطدمتُ بشوكِ الدَّربِ، والعَلَقُ
كان في تفاصيل الوهم .. لا في القلب ” .

لم أكن أرغب بالردِّ على رسالتها، لولا فكرة اقتحمتُ رأسي، فأفرغتها
في فراغ الرد :

” لا تلعبِ معي دورَ الشيطان، يكفني القبائل التي تلعبُ في رأسي،
خُذِي قَطِيعَكَ وامشي، رؤوسها نافرةٌ حدَّ الجحيم، إيماءةٌ تكفي لمطري ” .

عطلتُ خدمةَ استقبالِ الرسائل، والتفتُ لأرى اليابسة من حولي وقد
تضرَّجتْ بالتصحُّر، لا شجر ولا مطر ولا بشر، ليس هناك إلا السراب، ريحُ
الإرهابِ امتدَّتْ وتمتدُّ لتحرِّقَ صدى الحكايات الحُضر، أصواتُ القذائفِ
تُرهِقُ فضاءَ الكون، في أوقاتِ الحرب، وعند أبعد نقطة من الحياة، نرى
الموتَ يعيشُ على الخوف، وعلى إطفاءِ الومضة في عينِ الحياة، بصبرٍ
نَتَقَبَّلُ إستراتيجية المسافات، نَتَّبُ لنتجاهل الحقيقة، ونُتَابِعُ المسير .

استغرقت في نوم عميق، ولم أفق إلا حين علا صراخ طفلٍ رضيعٍ
جهدتُ أمه تُهددُ له دون جدوى، رنوتٌ من نافذةِ الحافلة لأرى الشمسَ
تُقْبِلُ البحر، كانت مشاعري حينئذٍ مُتناقضةً، فمن فرحي بلقاء البحر، إلى
خشيتي على يم، لما سيقززه مدير الإذاعة بشأن برنامجي الجديد بعد أن
حصل بيننا ما حصل .

هنا .. سورية كما نعرفها ونعشقها، لكن الجديد هنا هو اللافات الكبيرة
التي تغطى بها الشوارع، حاملة صور الشهداء وما أكثر ممن ينتمون إلى
هذه البقعة من الوطن ممن ضحوا في سبيله، هنا .. تُروى الكثير من قصص
البطولة في مصنع الأبطال، سرعان ما استرعى انتباهي اللون الأسود لفاقدي
أحبائهم، يُعْلَفه ويطغى عليه كبرياء الحياة، وعزة النفوس الأبية التي ما
ارتضت يوماً الهوان أو الذل فبذلت ما بوسعها لصون الوطن من كل آثم
عريد .

كان يم نائماً حينما وصلتُ إلى بيته .

طلبتُ هبة الله ممن حوله ألا يُحدثوا جلبةً تزججه، ولما لم يستجيبوا
استأذنتهم بضرورة تركه بعيداً عن أي تأثير سلبي حتى يتماثل للشفاء
ويتجاوز الأزمة .

حين فرغ البيت من زائريه، باستثناء هبة، نهضتُ لأختار موسيقى
هادئةً من مكتبة يم، استدرتُ نحوها، كانت قد رجعت إلى ما كانت عليه،
تُشكّل صممتها من حروفٍ ما تقرأ، دنوتُ منها لأعرف ما يشغلها، كانت

رواية ” سدهارتا ” لهيرمان هيسه، التفتُ مُتَّجِهاً صوب المطبخ لأعدَّ فنجانين من القهوة، تبعثني فوراً لتحديثي بهمسٍ رقيقٍ عن يم وتخبُّطه في عمله وعدم استقراره بعد فسخ خطبته من وداد، عجبْتُ من إخفاء يم هذا الأمر عني، سارعتُ أسألها عن سبب فشلها وما الظروف التي أحاطتْ به عندما كان خاطباً .. زفرْتُ بعمق وهمستُ لي قائلة :

- لا أعلم السبب الحقيقي، في كل مرة كان يم يتذرَّعُ بسبب جديد، ربما لكي يخفي سبباً لا أحد يعلمه سواه .
- وخطيبته .. ما كان موقفها وقولها ؟
- لا أدري، لم ألتقِ بها أبداً بعد فسخِ الخطبة، كان ذلك قبل أيام من موعد الزفاف .
- بالمناسبة، أريد نسخة من مجموعتك الشعرية لمدير الإذاعة، هناك من يريد إلقاء بعض القصائد منها .
- نَدَّتْ عن هبة الله ابتساماً ماكرة، سألت :
- ومن يريد إلقاء القصائد، ألا يرغب بإجراء حوار مع صاحبها ؟
- ربما .. سأدعوه للتفكير في الأمر .

انعطفْتُ هبة خارجة من المطبخ، كانت عيني الثالثة تخترق المرئيِّ باحثَةً عَمَّا يُظْمِئُهَا، عندما ولجْتُ و هبة الله غرفة يم، أفاق، انهمرتْ دموعه حين رأني، بدا وجهه شاحباً مُكَدَّرًا، عيناه زائغتانٍ من تأثير النِّومِ،

جذب يدي واحتضن كفي والدمع ينساب من عينيه مُغازلاً الألم والندم،
يهدأ تارةً ويُعاودُ البكاء تارةً أخرى، بدا كأنه يَسترجعُ آخرَ ما حدثَ معه
قُبيل تعرُّضه للانهييار العصبي، رَبَّتْ على كتفه مُهدِّئاً من روعه، وطلبتُ
منه ألا يفكر الآن بشيء .

استأذنتُ هبة وغادرتُ بعد أن اطمأنتُ على يَم، لم أرغب بالتحدُّثِ
معه في الأمر حتى اليوم التالي، لكنه في آخر الليل نهضَ من فراشه،
جلس إلى جانبي وشرع يتحدث فيما يثقل كاهله :

- هل فُضِّحتُ يا قيصر ؟
- لا .. هَدَيْتُ من روعك، المهم الآن أن تتماثلَ للشفاء ومن ثم
تتحدث في الأمر .
- أتظنُّ أن خالد قد أخبرَ أحداً بالأمر ؟
- كُنْ على ثقة أنه لا يستطيع ارتكابَ حماقة، الفضيحةُ سوف تطاله
أيضاً إنْ أشاعَ أي خبر عنك .
- ربما أوكلَ إلى أحدهم تويي الأمر عنه، أخشى أن يصل الخبر إلى
أهلي أو أصدقائي .
- يم .. لن يحدث شي مما تخشاه، المهم أن تَقَرَّرَ أنت ما تريده لأجل
حياتك .
- ماذا تقصد ؟

- إما أن تبقى كما أنت مع احتمال معرفة الآخرين بك، أو أن تسعى بشكل جدّي للزواج .
- لا .. لن أتحمّل قسوة المجتمع، سوف تتعرّض عائلتي للشتيمة والشماتة، وهذا ما لا أطيقُ حدوثه لها .
- إذن .. فالزواج هو الحل .
- ولماذا أتزوج الآن ؟ إما أن أكون مثلياً ويُفتضح أمرى أو أن أتزوج فوراً ؟
- ربما بزواجك، تحدُّ من إفشاء سرِّك .
- ألا تعلم أن هناك الكثير من تزوّج وحافظ على مثليته ؟
- أدرك ذلك، لكن المجتمع يطالبك بأن تكون رجلاً، كُن كما تهوى أن تكون، بعيداً عن أعين الناس، أنت تدرك بأنه لا يُصانُ سرٌّ في جوِّ المثليين القميء .
- أتعلم .. أرغب الآن أن أمشي معك على الكورنيش وأسمع هدير الموج .
- سنخرج غداً إن شاء الله ..
- أشعر بتحسُّنٍ ولا أريد البقاء في السرير .
- طيب، حاول أن تنهض الآن وتغسل وجهك .

• سأفعل .

نهض يم بتناقل، أمسكتُ بيده وطلبتُ منه التحرك ببطء .

رَنَ هاتفي لحظتيئذٍ، المحامي الذي نظمتُ له وكالة قانونيةً لياشر بإجراءاتِ المخالعة مع روزالين، طلب مني تحويل مبلغ المؤخَّر إليه ليتمكن من إتمام الإجراءات، أخبرته أني سأقوم بإرسال حوالة مالية بالمبلغ من حسابي المصرفي وسيكون في حوزته صباح الغد، أكَّدتُ عليه ألا يدفع المبلغ قبل أن يوقَّع محاميا على المخالعة .

هل حقاً سوف تحينُ لحظةَ إخراجِ روزالين من خانتِي ؟ سؤالٌ ما توقعتُ من روعي أن تطرحهُ في خِصَمِّ ما أحياء :

” وهل ستخرج من قلبك، إن أخرجتها من خانتك ؟ ”

يا إلهي .. أيمن أن يكون لروزالين بقية باقية لدي لذا تبادر إليّ هذا السؤال الآن ؟ إن كان الضميرُ من تكلم فهو مرتاح ويُدرك أني لم أدخر جُهداً في سبيل إنعاشِ زواجنا، وما حديثه الآن سوى النبض الأخير قُبيل إعلان الوفاة، وثقتُ ما يحمله قلبي .. وكان السؤالُ نضلاً أراق الدَمَ من عُنقِ المحال .

في مساء اليوم التالي، هدأتُ روحُ يم واستقرَّ وضعه، توجَّهنا معاً نحو الشاطئ وكنتُ حريصاً ألا نقابل أحداً من معارفه أو أصدقائه، اخترتُ مكاناً بعيداً من الكورنيش وبقينا في السيارة نسمع الموسيقى مع هدير الموج،

كان البحر رقيقاً، يختزنُ حباً لا يشبه الحب الذي نعرف، أمام البحر موجٌ بشريٌّ كثيفٌ هربَ من فجور الإرهابيين الذين عاثوا خراباً ووزعوا الموت على مَنْ كان آمناً مُستقراً في محافظته، وسعتِ اليابسة المحاذية للبحر قوافل المُبعدين عن ديارهم، وهم ممن التصق بأرض وطنه فلم يهرب إلى الخارج، كانوا يأتون إلى البحر مُصطافين فرحين لاهين بموج البحر، لكنهم الآن يلوذونَ به هرباً من موتٍ مُحقق، رغم ذلك فحضورهم أرهق شاطئ البحر بما يقذفون إليه من قاذورات، حدّثني يم بما يُقلق في الأمر، حيث بقي الكثير من الرجال في محافظاتهم وأرسلوا زوجاتهم وأولادهم الصغار وتفرّغوا هم للجهاد كما يعتبرونه، علم بذلك حين أخبره صديقه الطبيب عن امرأة كانت تلدُ في المستشفى، وحين سُئلت عن زوجها، أجابت بأنه يجاهد !! .

خيّم الصمتُ بيننا للحظات، استرقتُ النظرَ إلى يم، أحسستُ كم هو بحاجة إلى اليقين في حياته والثقة بنفسه على أنه قادرٌ على إيجاد الحب الحقيقي مع فتاة تخصُّه وحده بمشاعرها، تؤمن بقلبه وبجدوى حبه له، لينتشل روحه من نوازع نفسه وأوهامها، ولينهي الريبة لديه بأنه عاجزٌ عن جذبها إليه وارتباطها به، ليؤكد لنفسه أنه لا يفتقد للحب، لكنّ تشبُّتهُ يُجهضُ إحساسه الحقيقي بالحياة وبمن يجب .

كنتُ واثقاً أن يم بحاجة إلى إعادة بناءٍ ما بعثره وهماً من فسيفساء روحه، وما حرَّبه استهتاراً من سكينته نفسه، فعلمه الداخلي يَضجُ على

الدوام بما لا يحقُّ له استقراراً بالطلق، ما يجعله مُتخبطاً حتى في فهم أبسط الأشياء في الحياة، وهذا ما يتسبَّب له بشعور دائم بالتقص والفراغ العاطفي الذي يُوهِمُ به نفسه، فيثنيه عن المحاولة، ويُبقيه مُقيّداً بأوهامه، أسيراً لنوازع نفسه وأخطائها المترامية .

حاورتهُ في ذلك، وبَسَطْتُ له الأمر قدر استطاعتي، لكي لا يرى فيه المحال، لكنه التفتَ إلى العُقْدِ الصغيرة التي تجعله في حالة شلل فيستسلم لوهمه فيها قبل أن يرضخ لها، رغم ذلك، فككْتُ العُقْدَ وحلَّلْتُها له .

آنَ ليم أن يستوعبَ خطورة ما يرمي نفسه فيه، لكي يتجاوز ما يصنعه بيديه .. حين يَرِدُ المرءُ حُفَرَ أوهامه المفتوحة على عواصف الظنون المتشبِّثة بقناعاته، يُفْلِحُ في إيجادِ مفاتيح الحلول، وما إنُ يستخدم أول المفاتيح ويتطابق مع قفلِ الظنِّ الأول حتى يدرك خارطة طريقه، يجتهدُ في معرفة الأبواب ليشعرها على الحياة الجميلة، يَستردُّ ما فقَّده، ويعزِّزُ نِقْتَهُ بأهمية وجوده، فيرتاح إلى مصيره كائناً ما كان .

أحسستُ بشبحِ التَّوتِرِ يَنسُلُ إلى يَم بعد حوارنا الأخير، أردتُ تهدئةَ روحه قليلاً فقرأتُ بعض ما كتبتَه أثناء سفري إلى اللاذقية، اقترب مني، احتضنَ كفي، أراد أن يقول كلاماً طازجاً في الحب، رجوته ألا يفعل، بقي يوجُّ برغبةِ الثرثرة التي لا طائل منها، ظنُّ ما كتبتَه وقرأته .. مُوجَّهاً له .

أيقنْتُ .. أن لا سبيل لمعالجة يم، سيبقى كما هو وكما أراه الآن .. أنثى .

تعافى يم بشكل كامل ما تعرّض له، وبات عليّ أن أعود إلى دمشق، كنتُ أخبرتُ مدير الإذاعة بسفري الطارئ، كيلا يظنّ أن الموقف الأخير كان وراء تغيّبي عن الإذاعة، لكن الأصدقاء في اللاذقية أصرّوا على بقائي يومين آخرين لأحضر حفل افتتاح مقهى ثقافي لأحدهم، وهذا ما كان ..

توجّهتُ برفقة يم و هبة الله لتناول الغداء في مطعم " نابولي " ظهيرة اليوم الأول، كانت فاتن وابنتيها يتناولن البيتزا الشهية، هبّ يم يُلقني عليهنّ التحية، وحين اقتربتُ وهبة الله منهن كان يهمس لها بما فعله خالد، فبادرتُ تقول له:

• كلامك الآن يشبه إلى حدّ كبير ما تتناقله النسوة فيما بينهن، لا تُعزّ خالد أو غيره أي اهتمام، كما أطلب منك ألا تتحدث فيما يروونه كذباً عنك، لا تلتفتُ لكلام الناس، نحن نعرفك جيداً فلا تقلق .

رميتُ يم بنظرة قاسية، هل من عاقلٍ يثرثر على نفسه بلا طائل ويحدّث من لم يسمع .. بما ائهم به ؟

حين اتخذنا مكاننا في " نابولي " وبعد أن طلب يم البيتزا، بادر

بالقول :

- ما بك يا قيصر؟ هل أخطأت؟
- لا أبدأ .. بل قلت الصواب والحقيقة .
- أيها المغفل، إنسان لم يسمع بما أئهمت به .. لماذا تخبره بالأمر؟
- لأن مدام فاتن تعرف حسان ويارا وهما تحدّثتا بالأمر عني بعد قراءتهما منشور خالد في صفحتي، فمن الطبيعي أن تعرف لاحقاً، أردتُ توضيح الأمر لا أكثر فهل أخطأت؟
- طيب، أيعقل أن تتكلم أنت وتوسّع دائرة العارفين بالأمر؟
- كادت هبة أن توجّه قبضتها نحوه من شدّة غضبها منه وهي تقول :
- يا مجنون .. أنت توكّد ما يُحكى عنك بهذا الشكل .
- لكن مدام فاتن تعرفني جيداً .
- من يعرفك لن يجهلك ... آآآآخ منك ماذا أفعل بك لكي تفهم؟
- لم أستطع كَبَحَ جماح غضبي منه، فقلت :
- حقاً تقول هبة، فمن يعرفك لن يجهل أمورك، اللاذقية كنيويورك مدينة كبيرة ومأهولة، والناس لا تعرف بعضها بعضاً، ومن يراك ويلحظ على الفور نعومتك سوف يستنكر التهمة الموجهة إليك ليراهها حقيقة ماثلة أمامه . ” انبسط يا عم ” .

• قيصر .. أرجوك افهمني، الأمر ليس كما تُفكّر فيه أنت وهبة، لابد لي من توضيح ما تسبّب به خالد، كيف أدعه يتهمني وأسكت له ؟

كانت هبة الله تجهل حقيقة يم، لذا كانت مُستنفِرة عليه أكثر مني فاتجهت بكليتها صوبه، زفرتُ بعمق وقالت :

• هل تريد أن تخسر جميع أصدقائك بسبب مُحْمَقك لا بسبب ما قيل عنك؟؟ إذن فلتثرثر ولا على بالك .. أنا أضمن لك النتائج .

احتقن وجه يم وبدا كأنه في جُبّ أفعى .. همس باستسلام :

• أنا آسف، لم أفكر بهذه الطريقة .

توجهتُ بالحديث إلى هبة الله قائلاً :

• هل حدّثك عن جوليا ؟

• رأيتها مرة واحدة في أمسية قصصية، ما بالها ؟

• في زيارتي السابقة اجتمعتُ بها في منزل يم، كانت برفقة والدتها وقد حضرتنا لتَهَيِّئانه بالعيد، أبدت الفتاة اهتماماً ملحوظاً بـ يم، دعوتُهُ للتفكير فيها والتواصل معها أكثر، والاهتمام بشؤونهما معاً، لكنه لم يفعل شيئاً ولم يتقدّم خطوة واحدة، جوليا مُهتمة به وقلتُ له مراراً لن تجد بسهولة فتاة تُبدي كل هذا الاهتمام وتظهر إعجابها من فراغ، فاستفد من اهتمامها بك وعيّق معرفتك بها، ربما تكون

مناسبة لك .

• ولماذا لم يفعل ؟

توجَّهت بكليتها نحوه، وقالت بتهكم :

• ما دامت قد اهتممت بك أيها الأحمق فهي مُعجبةٌ بك إن لم تكن تهواك ؟ لكن مضيّ الوقت من دون أن تحرك ساكناً ربما جعلها تياس منك وتتحوّل عنك لغيرك، لا تضيع الوقت، جس نبض قلبها فوراً فإن لم تكن قد ارتبطت عاطفياً بغيرك، سارع لمقابلتها، واطرح الموضوع عليها .

• لا أريد ذلك الآن، لسْتُ جاهزاً للخوض في هذا الموضوع .

• لماذا يا مجنون ؟ هل تتوقع أن تنتظر إن كانت معجبة بك ؟!!

التفتُ إلى هبة أحدثها :

• لا تُتعبني نفسك معه، البارحة سألته عن سبب عدم تواصله معها فأجابني بأنها طلبت منه ألا يتصل بها لسوء الشبكة حيث تسكن، وحين قلتُ له : أيعقل أن تطلب منك هذا الطلب ؟ أو تعرف هي متى تكون شبكة الاتصالات جيدة ومتى تسوء ؟ سكت ولم يُجر جواباً، جرّبتُ الاتصال بها على الفور، ردّت عليّ وكلمتني ومن ثم قلتُ لها سيتحدّث إليك يم فأشار لي أنه لا يريد، أجزبته على محادثتها وحين انتهى الاتصال، تأكّدت أنه

• أنه ماذا؟؟ قل بالله عليك .

• أنه كاذب ..

رنوتُ إلى يم وتحديتهُ بنظرة تُعزي كذبه وأتبعْتُ :

• أنتَ تكذب يا يم ولا تحلفُ برأسِ أمكِ وأختك كعادتك .

• لا لم أكذب و راس ...

انتفضتُ هبة و هبَّت تقول :

• ” يلعن راسك يم ” اصمت ولا تحلف، مهما أثيرَ حولك من كلام
بعد اليوم فلن أَدافع عنك .

أردتُ أن أحمقَ مِنَ التوتر الذي ساد بيننا، وأهدئ من انفعالِ هبة
الله .. فقلتُ :

• يم .. لن تكونَ ضيفَ برنامجي القادم، حتى لو تمكَّن مهندس الصوت
من تغيير صوتك، فإنَّ ” راس أمك وأختك ” سيكشفانك .

لملمتُ هبة الله أشياءها المتراخية على الطاولة، وهي ترنو نحو يم المتكور
بمضض، وأردفتُ :

• سأتهي جلستي معك بعبارة كتبتها يوماً لأحدهم علَّها تنفعك أكثر
من وجبة البيتزا التي بردت بسببك ولم نلتهمها :

” لا تَسْتَصْغِرْ أَحَدًا، ربما كنتَ أصغرَ مَنْ أن تَرَكَ ذُبَابَةَ، لكنْ جُلَّ مَنْ هُمْ حولك، يُشْفِقُونَ عَلَيْكَ ”

استقامتُ هبةً لتتجه صوب بابِ المطعم .

أطبق الصمت لحظات، بقيتُ البيتزا أمامنا تُحْمَلِقُ في وجه يم .
تزامنَ خروج هبة مع دخول شابٍ مُلتحٍ برفقته فتاة بهيئة الطلعة ملائكية الوجه، جالا ببصرهما أرجاء المطعم وحين شاهدا يم، كنتُ أفرغُ كأس الماء في جوفي وأنا أناظرهما يتسلمان ليم مُقبلين نحونا، حين ارتويتُ كانا قد انتبيا من إلقاء التحية عليه، دعاهما لمجالستنا بعد أن عرّفنا جميعًا على بعضنا، جهاد يعمل مدرّس لغة عربية ويكتب القصة، وله عدة مشاركات في أمسيات أدبية باللاذقية، أما زوجته هالة فتُعَدُّ رسالة ماجستير في الأدب العربي .

بدا التآلف بين الزوجين باسِطاً راحتيه، ما أضفى السكينة والهدوء على جلستنا فوراً، تحدّثنا قليلاً عن حال الثقافة في خِصَمِ الحرب التي تشهدها سورية وأوضاع المثقفين فيها، خاصة أولئك الذين سافروا إلى الدول المجاورة ليَتَّخِذُوا مواقفَ معارضة وليندمجوا ضمن صفوف المعارضة الخارجية، وهم من المفسدين والمنتهفين بحكم وظائفهم والمناصب التي كانوا يشغلونها، وغيرهم الكثير ممن ارتدّوا على أعقابهم ليمارسوا الإرهاب الفكري بعُهرٍ بيّن، عبر فضائيات كان لها الدور الأكبر في شين الحرب الإعلامية التي تعرّضت لها سورية .

بدا لي جهاد شخصية قيادية سلطوية، مُتأثراً إلى حدٍ بعيدٍ بطبيعة مهنته التي أضافت إلى شخصيته الكثير من الجدّية والالتزام بالمبادئ والقيم الإنسانية والأخلاقية .

سرعان ما أتى جهاد على ذكر وداد حين تمتّ لي ليم أن يُفكّر مُجدّداً بالارتباط من فتاة، وأن يتجاوز كل ما مضى، خاصة أن خطبته لوداد كانت في الفترة الأولى لقدمه إلى اللاذقية ولم يكن بعدُ مُستقراً، امتنع وجه يم فور ذكر اسمها محاولاً تغيير الموضوع، وهو يرمقني بنظرة مُتفحّصة ليرى وَقَع ما أخفاه عني سابقاً، بدوُّه طبيعياً كأنّ الأمر لا يعنيني بشيء، استأذَن جهاد ليجلس إلى طاولة أخرى مع زوجته، أخبره يم بموعد افتتاح المقهى الثقافي ودعاه ليكون حاضراً، همس جهاد في أذنه بضع كلمات ومضى .

التقت عيناوي بعيني يم، سارع إلى التبرير بعدم توفّر مناسبة استدعت ذكر الموضوع، قلتُ له مُتحدّياً :

• لا بأس، ما فاتني من الماضي أعرفه الآن منك، ولكن قل لي الآن كيف حال صديقك أسامة؟ لماذا لم تعد تخبرني عنه شيئاً .

• لا أدري ما سبب انقطاعه عني، حاولتُ الاتصال به مراراً لكن خَطَّه موقوف، يبدو أنه غير رقه، نحن نُغيّر أرقام هواتفنا كثيراً، ولم يخطر ببالي أن أبعث له رسالة عبر البريد الإلكتروني، سأراسله وأخبرك .

- اترك لي عنوان بريده الإلكتروني، وزوّده بعنوان بريدي الإلكتروني وبرقم هاتفي، سوف أحجّاه حين أبدأ بتقديم برنامجي .
- كما تريد قيصر، لكن أريد الآن أن أُحدّثك بشأن خطوبتي السابقة، لا أريد أن تفهمني بشكل خاطئ، بدا لي أن الأمر طبيعي جداً ويمكن حدوثه مع أي شاب حين لا يجد الفتاة التي يخطب مناسبة له فيفسخ خطوبته منها، ولم أتعهد إخفاء الأمر عنك .
- هذا صحيح، لا ألومك فلم التبرير في أمر يخصّك ؟ لكن هذا لا يمنع من رغبتني بمعرفة السبب الحقيقي لفسخ الخطبة والذي لم تقله لأحد .
- الخوف من الزواج، هذا هو السبب الحقيقي، الخوف من معايشرة امرأة ليست ككل النساء، التعامل مع امرأة تشاركك كل اللحظات أمر صعب، الخشية من عدم القدرة على التحمّل أو الإخفاق بواجبات الرجل أياً كانت، وضعتُ العراقيل في طريق تفاهمنا وبدوتُ مُصرّاً على تحقيق السعادة وكأني أحلم بالمدينة الفاضلة لا بالزوجة الفاضلة .
- ما معنى أن تكون امرأة ليست ككل النساء، ثم .. ألم تخشى أن تكشفك ودااد ؟
- بالطبع .. لكنني رجل كامل الرجولة على خلاف ما تراني أنت .
- قهقهتُ مُتندِّراً من قوله، نطقتُ وقد ابتلعتُ القهقهة نصفَ حروفي :

- المشكلة ليست فيما أعتبره أنا، بل باعتبار وداد لك !!
- كانت شخصيتها قوية ومُتسلِّطة، عدا عن محاولة أهلها التدخُّل بشؤوننا في كل صغيرة وكبيرة، أحسستُ وكأني سأتزوج العائلة بأكملها، صبرتُ في البداية وقلتُ ربما يريدون تأمين حق ابنتهم، لكن الأمر تجاوز المعقول، رفضتُ وأبيتُ الخضوع لهم ولها، مُستغلاً الأحداث اليومية بيننا لأعمق الشَّرْح بعد كل مشكلة تقع فيما بيننا لأصل بهم إلى المطالبة بفسخ الخطبة .
- كيف تعرَّفتَ إلى وداد ؟
- عن طريق الشابكة مُدُكنتُ في حلب .
- لماذا لم تفكِّر بالارتباط من فتاة أخرى بعد وداد ؟
- رغبتُ أن تهدئ الأمور بعد أن ..
- بعد ماذا ؟
- بعد أن ارتابثُ وداد بأمرى .
- بهتُّ لما تلفَّظَ به يم .. وتساءلتُ :
- هل عامتُ أنك مثلي ؟
- قلتُ لك إنها قوية ومُتسلِّطة، وكانت حادَّة الذكاء، ارتابثُ بأمرى، وكنتُ على علاقة مع ابن خالتها .

• يم .. أي أحق أنت !! هل كنت تعرف ابن خالتها قبل التقدّم لخطبتها؟

• لا .. تعرّفْتُ عليه أثناء حفل الخطبة ومن ثم التقينا مراراً .

• يم .. فَمُ لنغادر المطعم، ولا تنسى أن تُمهَرَّ قصصك بالشمع الأحمر

في المقهى الثقافي، الباذخ في أمهته ورونقه، المعجم بالدفء والشاعرية، والمكتسبي من خلال ديكوراته الجميلة الصبغة الفنية والثقافية العالية، تَوَزَّعت الرفوف في صدر المكان وقد سَطَّرَتْ عليها الكتب والقواميس والتحف الفنية الأنيقة، وعُلِّقَتْ اللوحات التشكيلية لكبار الفنانين السوريين، أسماءٌ نسجت في تاريخ الفن التشكيلي المعاصر ديمومة الحياة وأصالة الأرض والإنسان، لؤي كيالي، فاتح المدرس، هيشون، أحمد معلا، عمر حمدي مالفا، نذير نبعة، وغيرهم ممن لم أستطع قراءة أسماءهم، وقد وُضِعَتْ عِدَّةُ آلاَتِ موسيقية شرقية على رفوف أخرى أضفت على المكان سحراً خاصاً، اللوحة التي سُحِبَتْ الستارة عنها وكان لوجودها الأثر الطيب والصدى العميق كانت لفيروز وفي خلفيتها بدوا " الرحابنة " الأسرة العريقة في تاريخ الفن الغنائي العربي .

كان يم في هذه الأمسية ينوي محادثة جوليا بموضوع ارتباطهما، استطعت إقناعه أخيراً بأنَّ الوقت مُناسِبٌ لذلك، لم يغب أحد من الأصدقاء، بدا الجو مُفَعِّماً بالودِّ، والاحتفال ناجحاً لا يُعَكِّرُ صَفوه شيء .. إلى أن دخل المقهى شابٌ في العقد الثاني من عمره، بدا غريباً عن المكان إذ لم يكلمه

أحد ولم يقترب من أحد، انزوى بعيداً عن الجميع يراقب ويهزُّ برجله في توهُّرٍ واضح، كأنه ينتظر مرور بعض الوقت ليقدمَ عِزْضاً أو ليؤدِّي دوراً ما .

لحظة انتباه يم إلى وجوده، احتقنَ وجهُهُ، ارتعدتْ أوصاله، كأنَّ الشابَّ كان ينتظر التفاتةً من يم لكي يدنو منه، حين أمسك بيده واستدار ليقابل كل من هو داخل المقهى تَنَبُّهً أغلب من كان موجوداً إلى حركة غير طبيعية، هَمْسٌ تَوَاتَرَ مُبْعِداً الأحاديث الدائرة ومُلفتاً الأنظار بعد تَوَجُّه البعض للنظر نحو يم والشاب المسك بيده .

بدا الشاب واثقاً ما يفعله، مُعتدداً بنفسه، طلب من الحضور الإنصات له، اصفرَّ وجه يم لحظتئذ، كأنه أدرك ما سيقع، بادر الشاب بالقول :

لن أعطِّلكم عن حَفْلِكُم هذا، سأخبركم عن صديقكم الموقر يم وأغادر المكان .

تقصَّد الشاب الصمت بضع ثوانٍ لشدِّ انتباه الحاضرين أكثر، وليتنبَّت قدميه بحركة لم تُخْفِ توتره، ثم تابع :

هذا الذي ترونه أمامكم Patrona لم يدع أحداً من مثليّ اللادقية في شأنه مُدَّ حَلٍّ فيها، الجميع يعرفونه ويشهدون له بالخبرة والمعرفة في كل ما يخصُّهم .

تعالتِ الشَّهقاتُ هنا وهناك، لم ينبس يم بحرف، بدا الجو مُكفِّراً، اللَّغَطُ والهَمْسُ يحومان في المكان كالغُربانِ الكريمة، الوجوه ألبستْ كُزْهاً

أقنعة سوداء لا تقوب لها لترى من خلالها العيون، الأفواه فاعرة والآهات تتعالى حُنقاً مما سمعته الأذان من كلام، أكمل الشاب ما بدأ به : ” يم .. مثلي الجنس، سأترك لكم هذا ” .

رفع يده وألقى CD كأنه يقذف بمندبل قدر، بدت عضلات وجه يم تنحرف يساراً، شفتاه مالتا، عيناه زاغتا كأنه لم يعد يرى أمامه، تحرك فجأة، أفلت يده من يد مُمسكه، ليفر هارباً بسرعة رهيبية، لم يستطع أحد اللحاق به، اختفى فوراً في أزقة الحي .

انقضَّ البعض على الشاب مُسكين به، في حين ركض آخرون ليتبعوا أثر يم، استوقفني جهاد حين أردتُ الخروج للبحث عن يم مع من خرج .. قال لي : تعال معي .

كنا مُضطربين للركض سريعاً عبر الأزقة، فقد ركنتُ سيارتي في الشارع العام، أخبرني جهاد بأن يم قال له منذ فترة بأنه إن فكر يوماً بالانتحار فسيكون ذلك من فوق صخرة الموت .

توجَّهنا مباشرة نحو الكورنيش، لفتتُ سرعتي في قيادة السيارة بعض عناصر شرطة المرور فلحقوا بي، حاولوا إيقافي، لم أستجب لهم، تبعوني وهم يُطلقون صفارة امتدَّت على خط سيرى المجنون، لم أتوقَّف حتى وصلتُ الكورنيش حيث صخرة الموت تقفُ مُشربَّة تتحدَّى الأحياء وتُغازلُ الأموات في الحياة، رجال الشرطة يحاولون ثني عن التوجُّه نحو صخرة الموت ظناً منهم أنني أريد الانتحار، صرختُ بهم لكي يُسرعوا ويُتقدوا من

يريد الانتحار .. صديقي يم .

استدعوا عناصر النجدة والإنقاذ فوراً، هبّوا جميعاً للوصول إلى أسفل الصخرة الممتدة حتى جذور القهر، رسموا بتناثرهم في المكان لوحةً من يأس، الصرخةُ تتناثرُ أشلاء يُسمَعُ في الأرجاء دويُّ تحطُّمها ليحملها زبدُ البحر الرابضِ فوق دمعِ الصمت والأنين ويقذف بها على رمل الشاطئ .

كان هناك .. مُلقَى على الصخور الجانبية المحاذية للصخرة الأم، صخرة الموت، انتشلوه، كان معطف الباشمينا الأزرق الذي كان يرتديه مُمرِّقاً ومُضرباً بدمه، كنتُ وجميع من كان في المقهى حاضرين، الشاب المأفون في قبضة الشرطة، ونحيبُ النوارس الحزينة في قبضة السماء .. كان البحرُ لوحده صامداً أمام لوثةِ الإنسان .

على ما بقي من الحياة، بكى الموت، انتشتُ وردةً في أصقاعِ الرُّوح، حَصَّرتُ الضميرُ نداءً الدمع .

إحساسُك بالحياة .. يتيِّمُ يتيِّم، تحصَّرتُ .. لا تتركُ للغبارِ فرصةَ التَّمادي، ثمة كفنٌ يَنْتظرُ دَمْعَ الموتِ الحزين .

تَبَعْنَا سِيَارَةَ الْإِسْعَافِ فِي طَرِيقِهَا نَحْوَ الْمَسْتَشْفَى الْوَطْنِيِّ، بَدَأَ خَالِدٌ فِي
حَالَةٍ هَسْتِيرِيَا وَاضِحَةً لِحِظَةِ سَوْفِهِ أَمَامَنَا إِلَى مَخْفَرِ الشَّرْطَةِ .

أَيُّ مَوْتٍ اخْتَرْتَ يَا يَمُّ؟!!

كَانَ حَرِيٍّ بِكَ أَنْ تَتْرَكَ لِمَوْتٍ صَوَّغَ رَحِيلَكَ بِنَفْسِهِ، رِمَا كَانَ أَكْثَرَ رَافَةً
مِنْكَ بِنَفْسِكَ .

لِمَاذَا اخْتَرْتَ الْبَحْرَ لِيَكُونَ الْحَاضِنَ لِحَسَدِكَ يَا يَلَامُ؟ لَيْتَكَ تَرَكْتَ
لِلْمَوْجِ حِكَايَاتِهِ دُونَكَ، انْكَسَرَ مَاؤُكَ أَنْ عَجَّثَ بِهِ فُجَوَاتُ الصَّخْرِ، نَزِيفُ
ظِلِّكَ رَسْمٌ وَجْهَكَ عَلَى دَفْتَرِ الْبَحْرِ، غَبَارُ الْخَطْوَةِ الْأَخِيرَةِ يُوسِّعُ الْمَدَى ..
نَافِذَةٌ عَلَى قَلْبِي، وَابْتِسَامَتُكَ .. بَجَعَةٌ تَهْوَى الرِّيحَ، حَمَلَتْ الْقَمَرَ كُرَّاسَ
الذُّنُوبِ، وَغَبَّتْ وَرَاءَ الشَّمْسِ بَعْدَ تَصَدِّيهَا لِعَوَايَةِ الرِّيحِ، تَرَكْتَ لِلْكَوْنِ
صِمْتًا لِتَجَاعِيدِ الضَّحِكَاتِ وَلَوْنًا لَصَحْبِ الذِّكْرِيَّاتِ، يَمُّ .. قَاسِمَتُكَ رَغِيْفَ
حُزْنِكَ، فَأَحْرَقْتَهُ وَعَجَّلْتَ الرَّحِيلَ

أَهَذَا مَا يُرَادُ لِمَثَلِيَيْنِ إِنْ حَدَّثْتَ وَافْتَضِحَ أَمْرَ أَحَدِهِمْ؟!! .

دنت مني هبة الله، ترنو إليّ بعيني الخطيئة، وتُغرقني بأنين الفجيرة،
حاولت عبثاً مواساتها ووقفتُ كمن يرجو القويّ ليساندي بمواساتي،
احتضنتها فاختلطَ دمي بعبراتها، اقتربَ منا أدونيس وتحدّثَ بصوتِ
مجروح :

• أرجوكا .. تماسكا ولا تبكيا، يجب أن تهديّ روحِ يم في العُلا، أراها
ساجحةً تُصارع دموعكم جميعاً لتنال من سكينتها .

حاولتُ التماسكَ قدر استطاعتي، غالبتُ امهيارَ الدمع كيلا يتّجه
صوب صخرة يم، تبعثرتُ حروفي بنشيج حزين
• فلنذهب إلى بيت يم .

كاد النحيب يُفقدُ جوليا قدرتها على الكلام، تحلّق عدد من الأصدقاء
حولنا، بدا صوتها آتٍ من نبض يم :

• أرجوكم، قولوا لي إن يم يمازحنا ولم يمث، من رآه منكم بعد إخراجه
من جوف البحر؟

• لم يخرجوه من جوف البحر، كان ..

قاطعُتُ جهاد قائلاً :

• فلنذهب الآن إلى بيته، تعالي معي يا جوليا .

أمسك أدونيس بيد جوليا وقال لي :

- سأتي معكم، إن لم يكن لديك مانع .
- أوأمتُ له ولهبة الله بإشارة لينضمّا إلينا .

خَيَّم الصمتُ على الجميع، نصفُ ساعةٍ مرَّت بعد وصولنا إلى بيت
يم، والدمع يتناثرُ ليشكِّل صورتهُ الحيَّة بيننا، بدتِ الجدران كئيبةً وهي
تغصُّ بصورتنا جميعاً، ضاحكين، مُنطلقين في الحياة .. ومعنا يم، كان مُحبباً
للجميع، والآن .. نجتمع في بيته وهو الغائب الحاضر .

قطع أدونيس حبل الصمت بقوله :

- أخبرتُ أهله، سوف يتدبّرون أمرهم بتأمين وسيلة نقل تُقلِّهم إلى
اللاذقية .

كأنَّ المجتمعين كانوا بانتظار صوتٍ ينبعثُ من أحدهم، انسكبت كثير
من العبارات التي انسلتْ شاحبة من الأفواه :

- هل يمكن لي أن آخذ صورة ليم ؟
- كانت الدماء تغطي وجهه .
- رأيتُ شَبْحاً يظهر ويختفي لحظة إخراجهِ من بين الصخور .
- لو أنه انتظر حتى ينهي ذاك المأفون كلامه لنقول له إننا جميعاً نحبهِ
ولن نتخلَّى عنه .
- الموتُ لا ينتظر أحداً .

- من فضلك .. أريد كأساً من الماء .
- متى سيكون الدفن ؟
- سأكتبُ قصيدةَ رثاءٍ لـ يم .
- طلب مني يوماً أن نسير بنعشه في المدينة قبل أن يُلجَّ المقبرة، كان يحب اللاذقية حُبّاً جمّاً .
- طلب مني أيضاً أن تُعرِّفَ لروحه الموسيقى .

ألمُ الفَقْدِ لم يدعُ لي مجالاً للإنصات أكثر، وما استطعتُ التُّنْقَ بحرف واحد، كانت ظلالُ الموتِ تُخَيِّمُ حتى اللحظة فوق رأسي، وضحكاتُ يم تملأ البيت، صدى صوته يتردّدُ في أذني، هالةٌ من النُّورِ أحسستُ بها تضيء المكان، غَبَشُ في عينيّ النازفتينِ دَمَعِ الرَّفِضِ يجعلُ من رأسي ثقيلًا كصخرة الموت اللعينة ..

لماذا كان قرارك الأكثر حَزْماً في حياتك هو قرارُ موتك يا يم ؟

لم أسافر حتى مضت أيام العزاء، كانت علاقتي بهبة الله وجوليا وأدونيس قد قويث وتعمقت، أمضيتُ جُلَّ الوقت برفقتهم، وقُبيل سفري ببضع ساعات، توجَّهتُ إلى الكورنيش بطلبٍ من جوليا، فور وصولنا إلى المكان الذي جمعني بـ يم أول مرة، عند صحرة الموت، رنوتُ إلى السماء، كان الماضي يتدلَّى من سقفا، ثمة طريقٌ نحوها يتثاءبُ، ليخطو فيها طيفُ جسد، يبعد مسافة الذكريات عنا، بدت المُرُنُ مَحْنِيَّةَ الظهر من ثقل الأسرار التي تحمل، تَعَثَّرْتُ ببقعةِ الظلِّ التي تركها يم لحظة مغادرته المكان في ذلك اليوم، أهي الشمس من أهدانها الآن؟! تَشَبَّثْتُ بالذكرى، طفرث دمعهُ مني أثارث شجونَ جوليا فعاجلث تبوح لي بما أخفته طويلاً، كانت تعلم أنَّ يم مثلي الجنس، ولم تكن ترفض الزواج منه لو أنه حدَّثها بالأمر، لأنها مثلية الجنس أيضاً .

لم أعجب مما قالته لي، لم يعد هناك ما يدعو للدهشة، لكن ما استفزني لطرحة أسئلة كبيرة كان أشد تأثيراً مما مرَّ بي وما سمعته حتى اللحظة :

هل الحرب الدائرة في سورية حرَّضتُ بذات الوقت على قيام حروبٍ

أشد وطأة وأكثر عنفاً داخل النفس البشرية ما جعل التغيُّر بيِّناً واضحاً أكثر من ذي قبل، وهذا ما استدعى تفسُّي كل هذا القُبْح الذي كان المجتمع يبرع في إخفائه ؟ وإذا ما نحينا القُبْح جانباً، نجد النور الهبي لدى الأنقياء ينبعث من أرواحهم الحية أبداً ليغلف الكون بهالة من نور يعبرون بلورها بحب صافٍ للحياة كما يحلمون أن تكون، فتخلق فيهم أحاسيس تؤمن استمرارهم دون أن يشوب إنسانيتهم ما يشوهها، ويصون وجودهم من مغبّة الوقوع في مستنقعات آسنّة تحاول جرّهم نحوها فيأبون الانجراف متمسكين بأصالة الإنسان ومُتَشَبِّهين بما يحفظ جذورهم، زادهم الأمل وعتادهم الصبر وقوتهم حب الحياة، مؤمنين أنّ بعد العُسر يُسرّاً، وبأنّ النقاء لا بد يوماً أن يطغى ويحيل كل مكروه أو قُبْح إلى رماذ .

جوليا تتحدث إلي .. وأنا أمعن النظر في الأشجار العملاقة المنتشرة بحديقة المتحف الوطني في اللاذقية، فأرى فيها أصل الإنسان السوري في وطنه الحقيقي، تربة أرضه الغنيّة عبر الأزمنة الممتدة حتى آخر رَمَقٍ للإنسان في الحياة، ليتأكّد لي أن الأشجار تحافظ على وجودنا أفضل مما نهتمّ نحن بأنفسنا وبها، في حين نمعن نحن بإيذاءها وبسحق الجمال فيها، وبأنها تمدّنا بأسباب الحياة ونحن نزهق أنفسنا بما يؤكد حضور الموت في داخلنا فنقتل الملائكة لنمدّ من عمر الشياطين وإن أعطيناها من أعمارنا نحن باختلاق أسباب سطوتها علينا لنتباكي بعد حين، وفي كل أوان لا خاسر إلا نحن .

كانت جوليا تلومُ نفسها على سكوتها، حينما هبطتُ روعي بعد تحليقي لطيفٍ في فضاءها الرَّجَب، ومن ثم قالت وهي تكفكفُ دمعها وتحاول جاهدة إخماد نَشيجٍ يختلج بصدرها :

- لو تحدّثتُ إليه، ربما كنتُ جَنَّبْتُه قَتَلَ نفسه .
- لا تلومي نفسك .. هذا قَدْرُه .
- كنتُ أنتظره ليتكلّم معي فأنا لستُ على ما يرام .
- رحل يم يا جوليا، وإن كنتِ تَرين أنّ في زواجك حلٌّ لمشكلتك فاسعي في الأمر .
- نظرتُ نحويّ بحنوّ كأنها تلتمسُ مني أنّ أمدّ لها حبلَ نِجاةٍ يُبعدها عن شبح الوحدة وما تقاسيه :
- هل يمكنني أن أجد شاباً يقبل بالزواج بشرط أن لا يمسنني ؟
- هل أنتِ جاّدة فيما تقولينه ؟
- أجل .. وهل تتوقع مني المزاح في أمر كهذا ؟
- أعرفُ شخصاً ربما يوافق على ما تشرطينه . هل أكلمه ؟
- أمسكتُ بما ألقيته لها من طرف حبل، تشبّثتُ بأملٍ يُنجيها من براثن اليأس وعاجلتُ بالسؤال :

- من هو؟ هل هو مثلي؟
- أجل هو مثلي الجنس، ولن أذكر اسمه الآن حتى أكلمه في الموضوع .

استنفرث لمعرفة المزيد، مَنَحَتِ الحياةُ لعينها بَرِيقاً خُلِقَ للتوّ :

- كيف تعرّفت إليه؟
- لا تنسي أنني كنتُ صديقاً لـيم، علمتُ بمثلية ذلك الشاب منه، هو من اعترف لي بذلك .

قطّبتُ ما بين حاجبيها، تلبّد وجهها بغميمٍ عقيمٍ لا مطرَ فيه، أشاحت بوجهها عني وهي تستصرخُ إجابتي :

- ولماذا تقول ” اعترف لي ” أهو ذنّبٌ وأنت الرّب؟
- آسف لم أقصد ذلك .. معاذ الله .

أبعثُ بحزمٍ كأنها قاضيةٌ تتلو قرارَ حُكْمٍ مُبرمٍ لا سبيلَ للطعن فيه :

- قيصِر إنسَ الموضوع .. لا أريدُ منك شيئاً .
- هل أزعجتُك جوليا؟ أرجو أن تفهمي ما أقصده ولا تأخذي للكلمات أبعاداً أخرى .

رنثُ مُشفقةً عليّ، وسرعان ما انبثقَ الاستخفافُ مُسيطرًا عليها :

• لا بأس .. حصل خير .

• سأتحَدَّثُ إلى الشاب وأخبرك فيما بعد .

• كما تريد، شكرًا .

حدَّثْتُ أدونيس بالأمر، حين اجتمعتُ به لوداعه، وعرضتُ عليه فكرة الزواج من جوليا .

وافق على الفور، طلب مني أن أتحدَّثَ إليها ليكلمها، فهو لا يريد أن يتعرَّضَ لما تعرَّضَ له يم، على الرغم من اختلافه عنه شكلاً ومضموناً وسلوكاً

حين تفوَّه أدونيس بكلمة سلوك، شردتُ قليلاً وغبثتُ عنه أفكر، أيعقل أنَّ يم كان يتصرَّفُ على هذا النحو فيجمع بين الشريكين إنَّ كانا رجلين أو شاب مثلي وفتاة مثلية لذا وصمه خالد بـ Patrona ؟

نهضتُ على الفور وأنا أقول لأدونيس بصوتٍ مُتهدِّجٍ :

• يجب أن أسافر حالاً .. لن أنتظر هنا أكثر من ذلك .

• ما بالك يا رجل ؟ ما الذي خطر ببالك فجأة ؟ ألم تكن تسمعي ؟

• لا عليك أدونيس .. سأحدِّثُ جوليا عنك وأخبرك متى تتكلم معها .

• هل قررتَ السفر الآن بحق أم أنك تُمازحيني ؟

. لا .. لا ، سأسافر حالاً .

حين اقتربتُ من سيارتي لأستقلّها، وجدتُ وردة جورية حمراء على
زجاجها الأمامي، رفعتها لأتنشّق عطرها، ورقة صغيرة تحيط بالجزء العلوي
من ساقها، بسطتُ الورقة لأجد خطَّ هبة الله يزيّنُ بياضها وقد كتبتُ : ”
أستودعك دَهشتي و... .. بعدما تورّطتُ بقلبك الطفل ” .

تلفتُ حولي، كان الشارع خاويًا إلا من عطر هبة الله، قبّلتُ الوردة
وانطلقت .

استقبلني مدير الإذاعة كأنَّ شيئاً لم يكن، اكتفى بتقديم العزاء لي بوفاة
 يم، مُشدّداً على الموعد المقرر للبدء بالبرنامج الجديد، دخلتُ الأستوديو
 لأقْدِمَ الحلقة الأخيرة من برنامجي، خصصتها لتكون عن الموت وفقدان
 الأحبة، تركتُ للمستمعين الهواءَ مَفْتُوحاً ليقولوا ما يشاءون، وختمتها
 بنصِّ صغير كنت قد حَضَّرته لأودِّع به مستمعي برنامجي :

” و .. تستمر الحياة، إنْ بحزنٍ أم بحبور، تستمر ربما بوهنٍ واهمٍ مرهون
 نحيا في أتون أحزان كثيرة، ربما كانت مُزُنُ السماء تتكدَّر حينما يُصابُ
 القلب بنَصْلِ حزنٍ ودمعها يؤذينا ولا يروينا بمطر، نحزن .. إما لحدث
 جديد أو لذكرى جرح .. فلنبحث عن الفرح، وإذا ما وجدنا طيفه يتراءى
 لنا، وبدتْ خيوط الخطوة تظهر على أديم حلم .. غَدَّيناها، ومن ثمَّ أهلناها،
 أو قسونا على أرواحنا فنسيناه، إذا ما التقينا بما يُشعرنا بوجوده وإنْ على
 ثغرٍ درب ... فلنُكْمِل .

لا تتوقفوا عن دربٍ جائعٍ لخطوة .. الحياة لا تحتمل أفراحاً مؤجلة أو
 انتظاراً متعمّداً ..

فإما أن تكون الحياة كما نريدها أن تكون .. أو لا تكون ” .

علمتُ فيما بعد أن خالد أحييل إلى النائب العام بأكثر من تهمة تَكشَّفَتْ خلال التحقيق معه، لكنه أثناء توقيفه في السجن، أعلمَ الحارس بأن لديه معلومات إضافية يريد الإدلاء بها فوراً، وأثناء سَوْقه مُكبَّلاً، كان الذئبُ في داخله يفترسُ القيدَ بشراسة، وبلحظةٍ شاردةٍ عن الزمنِ قَرَّرَ المناورةَ بما يمكِّنه من خَلْقِ فُرْصَةٍ تُسْنِخُ له بالهرب، وهذا ما كان له .

قَدِمَ أدونيس إلى دمشق للمشاركة في نشاط خاص بالشبكة، فاتصل بي ليعرض عليَّ فكرةَ المشاركة، لم أتردَّدَ بالقبول، واتفقنا على لقاءٍ يجتمعنا في أحد مطاعم باب توما لنتحدَّثَ في التفاصيل .

أثناء توجُّهي لملاقاته، سرَّتُ في حاراتِ دمشق القديمة، تَنَشَّقْتُ ما بقي من عبق الياسمين، تلمَّسْتُ وجعَ الأرصفة، وأنصتُ لأنين الجدران، أزقةٌ كثيرةٌ ارتدتْ عباءةَ الحزن بعدما كانت ترفُلُ بثوبِ الفرح وضحكات الأطفال فضاقَتْ .. وضيَّعتُ الخُطى اللاهثة وراء ابتسامة تبحث عن انفراج، وتهرب من موت ينمو سريعاً في مفاصلها، شوارع دمشق التي كانت تعجُّ بزوارها وعاشقيها، لتتنسَّم عبق التاريخ بأصالة فريدة، يدفعهم التوقُّ للقاء التراث الأصيل، أمسَّتْ كالأشجار حين تخلع عنها دمعا دون أن تبخلَ في احتضانِ عصفور، ورغم تشبُّثِ الناس بالحياة، وممارستهم لأعمالهم إلا أن هناك الكثير مما تعيَّرَ في أرواحهم فانعكس على مُدُنهم .

حين التقيتُ أدونيس، ارتسمَ البحر أمامي، رأيتُ وجوهَ الحزاني

وفاقدي الأُحبة، يصارعون الموت ويهزمون السواد الذي جَلَّل حياتهم بإحساسهم الحي بالحياة، كثيراً ما تحدّثتُ إلى أطفال البحر الذين خَبروا الحياة قبل أوانهم وبات حديثُ الوطن وما يتعرَّضُ له من ويلاتٍ على ألسنتهم، عرفوا الشهادة وأحبُّوها، الشهادةُ ببذلِ الرُّوح فداءً للوطن وليس الموت والقتل سبيلاً إلى تنفيذ فتاوى الشر والخيانة، أما ألعابهم فقد اختلطتْ بها أنواع الأسلحة وطرق استخدامها، أيُّ جيلٍ قادمٍ سيكون في المستقبل؟ وأيُّ لُعةٍ سيتوجَّهُ بها المجتمع للحدِّ من آثار الحرب الدائرة ليضمن للحياة أن تكون حياة؟ .

سرنا في حارات باب توما، حدّثتُ أدونيس بما كنت أفكّر فيه ليكون مدخلاً لما قررتُ مناقشته به فور اتفاقنا على اللقاء وقبل أن نتحدّث عن مشاركتي بنشاط الشبكة، قلتُ له :

• جهاد النكاح .. تمّ فيه إلغاء العدة والنسب وعقود الزواج، وبعيداً عن مخالفته الشرعية، هناك مشكلة كبيرة في تحديد الأنساب، وهذا ما سوف يشكّل خطراً على المجتمع مستقبلاً .

• هذا صحيح .. ولم يُطرح جهاد النكاح إلا في سورية على المستوى العربي .

• أتعلم لماذا يا أدونيس؟

• لترك جيل من الأطفال بعد الانتهاء من الحرب مجهول النسب، هذه الفتوى تسعى إلى ضرب الأنساب مستقبلاً في محاولة لإبقاء

العرق اليهودي هو العرق الصافي النسب .

• في كذبة أمام الأجيال القادمة التي سوف تتسبب في التشكيك بالهوية السورية، وهذا الجهاد في أصله هو فتوى صهيونية تعمل على فناء الدين وإفراغه من محتواه الحقيقي .

• وهذا ما يخالف ما جرى العمل عليه في فيتنام وحتى أفغانستان، ففي الأولى قامت القوات الأمريكية بإنشاء مواخير للجنود وتحت إشرافها، وهذا ما أطلق عليه في الجيش الأمريكي لقب القبعات الخضراء، أما في الثانية فقد كان أيتام الحرب ضد الروس يُؤخذون إلى مدارس دينية خاصة في باكستان إضافة إلى تربيتهم تربية عسكرية وقد عُرفوا فيما بعد بإسم طالبان .

• والآن .. أدونيس، هل فكرت فيما ستركه لوطنك من نسب أصيل يكون ثمرة لزواج صحيح ؟

• لا .. لم أفكر بذلك .

• أدعوك إلى التفكير إذن، وإن تزوجت جوليا، فلتحرص على إنضاج ثمرة صحيحة بينكما .

• سأفعل ..

كنا قد وصلنا إلى مطعم " حارتنا " اتخذنا مكاناً لنا بين رؤاده ليبدأ

أدونيس بعرض فكرة مشاركتي مع الشبكة :

• لاحظتُ في صفحتك على Facebook النَّفس الشعري، هل لديك القدرة على كتابة نشيد للشبكة يَمثلُها في المحافل الدولية في اشتراكها بالنشاطات الخارجية ويقدم بذات الوقت صورة جلية للعالم أجمع عن سورية وطن الحضارة والأبجدية ؟ .

• سيكون ذلك مُحققاً في وقت قريب، هذا شرفٌ لي .. لأجل سورية العظيمة ولأجل الشبكة .

• إذن سأحدِّثُ المسؤول ونتباحثُ معك خلال أيام حول النشيد
• ماذا ستفعل بخصوص جوليا ؟

• سأتفق معها لنجد طريقة مناسبة للتعامل فيما بيننا، جوليا فتاة جيدة ويبدو أنها مُتفهمة وتعرف ما تريد، وكذا أنا، أعرف ما أريد، لن أتوانى لحظة عن توفير أسباب الراحة لها، سأعرض عليها فكرتك التي تحدثنا بها منذ قليل، حتى لو كان هناك ما يباعد بيننا جسدياً فهذا لا يمنع من تحقيق هذا الأمر .

• أرجو أن تنالا السعادة التي تنشداها كليكما .

• أيمكنني أن أطرح عليك سؤالاً جريئاً ؟

• تفضل ..

• هل أنت مثلي الجنس ؟

• ما أستغربه هو طرح هذا السؤال منك، إن كنتُ أتحدِّثُ

بشؤونك أو بشأنِ يم فهذا لا يعني أنني مثلي، وحده يم كان يعلم سبب انخراطي في هذا الموضوع .

• هل لي أن أعرفه ؟

• أنا أعدُّ برنامجاً جديداً للإذاعة، موضوعه المثلية الجنسية، كان لابد لي من معرفة أجوائكم والاطلاع على حقيقة علاقاتكم وأسلوب حياتكم وممارساتكم أيضاً في الحياة ومع بعضكم بعضاً، وقد أفادني يم كثيراً

بُهت أدونيس حين التقطت أذناه كلماتي، مع ما رافقها من جلبلة مُفاجئة عمّت أرجاء المطعم إثر دخول أكثر من عائلة معاً ..

• هل نلّت موافقة الإذاعة على تقديم برنامجك ؟

• موافقة ورعاية، لو لم أنل الموافقة عليه لما كنتُ تعرّفتُ عليك .

• كيف ذلك ؟ هل تعرّفتَ إلى يم لأجل برنامجك أيضاً ؟

• لا .. التقيتُ بكم جميعاً ولم أكن أعرف يم، وكونه المنسق العام في الشبكة فقد تواصلتُ معه بشكل أكبر، في تلك الفترة كنتُ أحضِرُ لبرنامجي الجديد، وحين حدّثت يم عنه ومع تطوّر معرفتنا كشف لي عن مثليته وقد ساعدني كثيراً فيما كنتُ أجهله عن المثليين .

• بطرحك هذا الموضوع الساخن والجريء، وخوضك فيه عبر

وسيلة إعلامية، فأنت لغمّ حقيقي، هل تحضّرتَ لما يمكن أن يواجهك من عقبات أو اتهامات ؟

• لابد من الغوص عميقاً في هذا الموضوع، ولا بد من تَوْحّي الصدق والواقعية فيه، وإلا انقلب البرنامج لفضائح مجانية، وما اعتدت يوماً في عملي إلا الجدية، يجب علينا أن نُقدّم الحلول يا أدونيس وإلا كنا فارغين من الداخل .

• بعد أن اطلّعت على أجواء المثليين .. ما رأيك بكل صراحة ؟

• عالمٌ سافر، عالم اللا معقول، الخطيئة تسير جنباً إلى جنب مع كل فعل أو قول، والأسباب كثيرة في ذلك، وألها الصراع الذي يواجهه المثليّ مع نفسه، وإن استطاع تجاوز ذلك، اصطدم بمحيطه، عالم فيه من الجنون الكثير، هذا الجنون وبناء على ما شهدته، يحمل إبداعاً في بعض الأحيان، ويستتبع أمراضاً حين يُترك ويُهمل ليغدو كالزئبق الأزرق في أحيان كثيرة، كما فيه من الفُبح الكثير، تجدُ نتاج التربية والظروف التي لعبت دوراً بارزاً في تنامي هذه الظاهرة حتى غدا فيها الاستثناء قاعدة، لا أنكرُ أن هناك نماذج تحترمها ولا تُلقِي بالاً لميولها رُغمًا عنك، بعيداً عن نظرة المجتمع ورفضه لها، لكن بالمقارنة مع السوء المتفشّي في سويّة العلاقات المبنية على الشكّ والكذب والخداع فهي قليلة جداً، هناك الكثير من العلاقات السرية تبعاً لالتزامها قسراً بقيود المجتمع الذي لم يسمح بإظهارها أو حتى مناقشتها، وهنا يأتي دور البرنامج لا ليحرّض المجتمع على تقبّلها بل ليدعوه لمواجهتها وحصرها

والاعتراف بوجودها، ليدرك أسباب تفشيها، ويقع عليه وحده مسؤولية الاعتراف بها أو الاستمرار بمكابرته الظاهرية واستنكاره الكاذب لها .

• أنا على ثقة تامة بأن ما تلفظت به الآن ستعبر عنه خير تعبير إذا مُنحتِ القدر الكافي من الحرية في مناقشة الموضوع، لاشك أن مجرد طرحه سيحرك الراكد، لكن بشرط الاستمرارية فيه لا أن يُوقَف بعد بثّ الحلقة الأولى منه، نحن يا قيصر بشر، جئنا إلى هذه الدنيا عن ذات الطريق التي جاء منها كل البشر، وُلدنا بتكويننا الجسدي والحسي مثلهم، ولم يكن الأمر بيدنا ولم يخترنا أحد بأي حال نكون، نؤدّي وظائفنا وندمج بمجتمعاتنا كسائر الخلق، ومثنا الكثير قد حققوا لأنفسهم ولمجتمعاتهم أفضل ما يمكن أن يقدمه البشر، وفي التاريخ نماذج كثيرة عن شخصيات تركت بصمات ثابتة في الفن والجمال والعلم والإبداع .

• أجل .. لاشك في ذلك، هناك أسماء كثيرة كأوسكار وايلد، ليوناردو دافنشي، الإسكندر الأكبر، يوليوس قيصر الإمبراطور الروماني الشهير، والملك ريتشارد قلب الأسد، كما ذكر أن سقراط وأفلاطون كانا مثلين أيضاً .

• المثالية يا قيصر قديمة قدم التاريخ، وُجدت في كل العصور والمجتمعات، حوربث وأدينث بشكل صارخ كونها سلوك مخالف لمنهج السلوك العام في المجتمع، هناك من المفكرين من كان مُتسامحاً، ومنهم من كان رافضاً مُتعتتاً في رفضه، وبذا تأثر المجتمع

ككل فائْتَحَدُ جانب الرفض، وهم موجودون شاء من شاء وأبى من أبى، لدى المجتمع عيون، لكنها تأنف النظر إليهم، حارهم، في الوقت الذي يجب أن يكون حاضناً لهم لئلا تتلقفهم الأمراض التي تكاد تفتكُ بهم وتوردهم مَوْرَدَ المهالك، لتُصاغ حياة الكثيرين منهم ببؤس شديد !

• وهذه غاييتي يا أدونيس من طرح الموضوع، يجب أن يتقبَّلهم المجتمع ليبدأ بمعالجة من يحتاج منهم إلى العلاج، لاشك أنها مشكلة مستعصية لكن يجب أن نكفَّ عن الاختباء وراء الإصبع المزرق .

• أدونيس .. كم نحن بحاجة لأن نواجه المجتمع بما سيؤدي إلى نهايته إن بقينا صامتين، وإن بقي هو يتعامى عن مواجهة ما يجعل البشر في الدرك الأسفل وهو بظنّه أنه يتسامى .

• أجدت القول .. ما مصدر معلوماتك بالإضافة إلى اطلاعك على أجواء المثليين منهم أنفسهم ؟

• راجعتُ العديد من المراكز المتخصصة في الشؤون الاجتماعية، إضافة إلى مستشفى الأمراض النفسية، ووزارة الصحة، ومركز مكافحة مرض نقص المناعة المكتسب، كما أعددتُ استبياناً خاصاً بالموضوع سيجري توزيعه على شرائح مختلفة ومدروسة من المجتمع ومن ثم دراسته واستخلاص النتائج منه من قبل اختصاصيين في علم الاجتماع والطب النفسي وعلم النفس والإحصاء، وكل سؤال

له هدف من وراء طرحه ويستخلص منه نتيجة محددة، وسيتم نشر الاستبيان أيضاً في الموقع الإلكتروني للإذاعة مع تأمين قاعدة بيانات لتوحي الدقة في إجراء العملية .

• وما التُّقاط التي ستثيرها في الاستبيان ؟

• تتدرج الأسئلة وتتنوع بحيث يتم الكشف عن مدى مصداقية المجيب من خلال الأسئلة ذاتها واختلاف صياغتها مع وحدة الهدف فيما يتشابه من الأسئلة وبأسلوب بسيط غير مُعقّد كون الاستبيان مُوجّه إلى شرائح مختلفة من المجتمع، هل تؤدّ الاطلاع على الأسئلة ؟ الورقة معي .

• أتمنى ذلك .. شكراً لك قيصر .

أخرجتُ من الحقيبة الصغيرة بضع أوراقٍ من بينها الورقة الخاصة بالاستبيان، قدّمها لأدونيس وأتبعْتُ :

• كما تلاحظ الأسئلة تزداد عمقاً بالتدرج، تبدأ بسؤالٍ المجيب فيما إذا كان قد تعرّض خلال مرحلة الطفولة لتحرشٍ جنسي، وعن رأيه بالمتلية الجنسية وتقييمه لها مع وضع عدة خيارات للإجابة على كل سؤال، وفيما إذا كان في محيطه شخص مثلي إن كان شاباً أو فتاة ... وما إلى ذلك .

• أنت تطرح سؤالاً عن موقف المجيب في حال اكتشف أن أحد أصدقائه مثلي الجنس.. برأيك لو لم ينتحريم، أكان قاطعه جهاد ؟

- لماذا فكَّرتَ أن تسألني عن جهاد بشكل خاص ؟
- جهاد من أعزِّ أصدقائي، وأعلمُ مستوى تفكيره ونظرته لـ يم .
- تعرَّفْتُ على جهاد قبيل وفاة يم، ولن أستطيع إجابتك على سؤالك، كونه صديقك يمكنك معرفة ذلك .
- كانت لدى جهاد إشارات استفهام كثيرة وتحفُّطاتٍ محددة حول سلوكيات يم .
- هل كان يعلم بمثلية يم ؟
- لم يكن متأكِّداً، ولم يرغب الخوض في هذا الشأن، على الرغم من أن جهاد واقعٌ تحت سطوة المجتمع وأحكامه، ليس إيماناً منه بصواب وصحَّة كل تلك الأحكام، بل حفاظاً على رضاه، وصورته ضمن محيطه، لكنه حافظ طوال فترة صداقته مع يم على خيط رفيع لم يبادر إلى قطعه حين كانت شكوكه تزداد بـ يم، وبذات الوقت لم يترك الحبلى على الغارب حين كان يتعامل معه وفق الظاهر، ولو كان يم حيناً لحافظ جهاد على هذا الخيط واستبعد أن يكون مثلي الجنس، حتى بعد فضيحتة أمام أصدقائه، لأن إنساناً تربطك به صداقة تدوم عدَّة أشهر ليس من المقبول أن تكون جاهلاً عنه هذا الأمر، خاصة أمام ما كان يتبعه يم من سلوكيات مُريبة، لكن إن تمَّت مواجهة جهاد بالفرض المطلق من محيطه باستمرار صداقته مع يم لكننت رأيتَه يقطع أواصر تلك الصداقة، لذا أفببِرُ استمرارية جهاد في صداقته بـ يم كانت بمسك

العصا من الوسط .

• يبقى ما قلته يا أدونيس مجرد تكهن، ولا يمكن الجزم في هذا الأمر، لكن فيما يخصني .. أخشى أن يكون حال يم حين كان حياً أكثر تعقيداً مما كنت أظنُّ، ولا أودُّ التفكير بأنَّ ما خفي عني بشؤونه وبشبكة علاقاته كان أدهى وأعظم، بالمناسبة .. من ضمن الأسئلة في الاستبيان سؤال خاص بالمحيب في حال كان مثلياً فهل يجرؤ على الإفصاح بمثلته، هل لديك الجرأة أدونيس بالإفصاح عن نفسك ؟

• لست مُضطراً لذلك، المجتمع ليس رحيماً بنا، ولم يكن هذا الموضوع في يوم ليشغلني عما أريد تحقيقه في الحياة، هناك أمور كثيرة يجب أن أهتم بها أيضاً، هل تعلم أن الكثير من المثليين سوف يشكرونك وربما أصبحت معشوقاً لهم ؟

• لن ألتفت إلى ذمِّ أو مدح، أدرك أنني سأتعرَّضُ للكثير من المواقف المحرجة، لكن الإعلامي يجب أن يكون جريئاً بما يطرحه، وإلا خلا عمله من البُلبُل وما يهتم إليه الناس لجعل حياتهم أكثر جمالاً، يكفي ما يعترضنا من فُبح يا رجل، فلنجعل المستور ظاهراً، وإن كان سلبياً فلنساهم جميعاً في التخفيف من بشاعته أو مواجهته ومواجهة أنفسنا به لكي نُصلح من ذاتنا .

• أين دور الرقابة من برنامجك ؟ ما موقفك إن أوقفوه بحجة ملامسته الخطوط الحمراء وجرأته غير المعتادة في مجتمعنا ؟

• أمل ألا يُساء فَهَمَّ الهدف من البرنامج، الهدف نبيل، ولأجل الإنسان، كما قلت أنت المثليّ إنسانٌ كباقي خَلْقِ الله، هذه قناعتي أيضاً، لن أقترّب من موضوع الشذوذ الجنسي حتى بالألفاظ، هناك الكثير ممن يعتبر أن المثلية شأن خاص وحرية شخصية، فليكن البرنامج دعوة إلى ترجمة هذا الوعي بشكل عملي في واقعنا، لسْتُ بصددِ الدفاع عن هذه الفئة كما أني لسْتُ ضدّها، لكن ما تعانيه يجب إبرازه وما ترتكبه يجب أن يُقوّم، إنها فئة مسحوقة في المجتمع، وأرى المجتمع غارقاً فيها حتى أذنيه، وكما هي تعجُّ بالمتناقضات، فالمجتمع أيضاً اعتبره سبباً لهذه المتناقضات وخالفها لها ومُرتسخها، والرقابة ليست من كوكب آخر، بل ربما تجد منهم من هو مثليّ أيضاً، فكيف أفهم من كان مثلياً ويرفض طرح الموضوع بصدق وهو حامل لهدف نبيل؟! .

• أشكرك قيصر على صدقك وتوضيحاتك لي بشأن برنامجك، ليتمهم يُدركون أنّ من ضمن أسباب وجودنا هم أنفسهم، ولكن أخبرني .. ما هو عنوان برنامجك ؟

• ستريتش .

نخبة .. تراءى لي طيف يم، وقد رفع إبهامه وضمّ أصابعه الأخرى في إشارة لتأييدي، أتكون روح يم حاضرة؟! كان أدونيس يلوح بأصابعه أمام وجهي وهو يقول مُبتسماً :

• أين غبت ؟ أسألك فيما إذا كنت تتابع نشاطات الشبكة ؟

ردّني أدونيس إليه .. طلبتُ منه أن يعيد ما قال، وحين استجاب،
كانت روح يم توّدّعني مُطمئنّةً فأجبتُ أدونيس :

- كان يم يُطّلعني على تفاصيل عملكم ونشاطاتكم .
- الآن حان دوري إذن لأطّلعك عليها أولاً بأول .
- هذا ما أنتظره منك أدونيس العزيز ..

بعد سفر أدونيس، تقدّم لخطبة جوليا، وجرتِ المراسمُ ضمن نطاق
الأهل فقط مراعاة لذوي الشهداء من أقارب الطرفين واحتراماً لأرواحهم،
بعدهما عَجَّتْ بيوت الساحل السوري بصور الشهداء، وانحصر لباس أغلب
نساء البحر باللون الأسود .

أسامة .. من جديد

بريدي الإلكتروني يكاد ينفجر من كثرة الرسائل الواردة إلي لانقطاعي عن مراجعته مُدَّ سافرتُ إلى اللاذقية قبيل موت يم، لكن ما إن وقعتُ عيناَيَ على رسالة أسامة حتى سارعتُ بفتحها وقد استعادتُ ذاكرتي فوراً جلستنا حين جاء برفقة يم بعد الحفل الذي أُقيم بمناسبة ارتباطِ مثلين .

انهمر دموعي لحظة رأيتُ صورةً مُرفقةً برسالة أسامة، التقطتها لنا يم، وأخرى جمعنا ثلاثتنا أثناء خروجهما من بيتي، كان جاري يصعد نحو شقته، فطلبْتُ منه أن يلتقطَ صورةً تجمعنا ثلاثتنا أمام باب البيت .

أتراها ذاكرة الموتِ بمنأى عن الموت نفسه، وتمنح من يعيشها مدى للقادم من الأيام ؟ أترى رماده يُخفي جمرها النائم فلا موت يُفقدُها رَجَعِ الصدى والأنين ؟ إنه الحنين .. يَأبَى أن يُفقدَها القُدرةَ على مُعاندةِ ولوجِ الحزنِ في الطين، هي بَوْحٌ .. يَرِفضُهُ الوعي، فتراهُ يُعلِقُ منافذَ السُّمِ الموضوعِ على ثَغْرِ الصخرة والقنبلة والسكين، هي تذكرةُ سفرٍ .. مُولعة بالانتظار، يحرقها شغفُ قلبٍ في آخر لحظة من عُمرِ السنين .

مسحتُ دمعي، وشرعتُ أقرأ رسالة أسامة، راجياً أن تحمل الأخبار
الجيدة والمفرحة .

” أستاذ قيصر .. تحية طيبة :

ستكون رسالتي طويلة، أرجو ألا أسبّب لك الملل وأرهق عينيك،
لكنني بحاجة لأن أحدث إليك .

لقد وردتني رسالة يم منذ فترة، طالباً مني أن أرسلك، كنتُ مُنشغلاً
ولم يتسنَّ لي قراءتها إلا البارحة، ومنذ تلك اللحظة وأنا أفكر، هل أخبرك
بما حدثتُ معي لأجل برنامجك أم لأجلي أنا؟! عقدت العزم على الكتابة
إليك بصرف النظر عن الهدف، فلقد لمستُ فيض إنسانيتك منذ التقيتُ
بك، وهذا ما يعينيني الآن، أما برنامجك .. فلا أدري إن كان ما سأخبرك
به مُثمراً أم لا .

أستاذ قيصر .. هل تذكر عندما أخبرتُ يم وكنتُ حاضراً عن اليافعين
الذين قَدما إلى بيتي وطلبا مني ممارسة الجنس معهما؟ أخبرتُ بذلك يم
قبيل انصرافنا من بيتك .

كل ما جرى بعد ذلك لم أخبر به أحداً من أصدقائي حتى هذه اللحظة،
باستثناء صديقي الحميم باسم، الذي ساندني ووقف إلى جانبي في كل ما مرَّ
بي، لم أشأ إخبار يم بأموري ولم أكن أستطيع إخباره بكل الأحوال، باسم لم
يتركني وحيداً بكل ما جرى بعدها .

في اليوم التالي لمجيء الشائبين إلى بيتي، حضرتُ دوريةً من مخفر الشرطة الموجود في الحي وساقوني كنعجة مصابة بجرب، كان أحد اليافعين اللذين قدما قبل يوم (وتبيّن أنه قاصر) قد ائتمني بمحاولة الاعتداء عليه، علمتُ فيما بعد أنه الشاب الذي كان خائفاً ومتردداً، حضر مع والده إلى المخفر وتقدّم بشكوى ضدّي، ومن ثم أُحيلتُ الشكوى إلى قاضي التحقيق، لكن الزمن الذي مرّ إلى أن مثلتُ أمامه كان مريراً وصعباً للغاية، تَذَوَّقْتُ مُرَّ الدُّلِّ والمهانة بكل أشكالها، ضُربٌ وسبابٌ وشتائم، مُنِعَ عني الطعام، حاول أحد الحراس إغوائي لممارسة الجنس معه، التوقيف في مكان قذر لا يمكن للإنسان أن يتحمّل تواجده فيه لحظة، بقيتُ أسبوعاً كاملاً إلى أن وقفتُ مُكبّلاً أمام قاضي التحقيق .

تابع باسم أموري أولاً بأول، دفع الرشاوى لكي يتسنى له رؤيتي بضع لحظات، مرّر لي رسالة صغيرة في ”سندويشة“ جلبها لي في اليوم التالي من توقيفي، كتب لي فيها ما يجب عليّ قوله، لكن رسالته وصلتني متأخرة، إذ كنتُ قد اعترفتُ لرئيس المخفر بمثليتي، لكنني أنكرتُ ما ائتمتُ به من قبل الشاب اليافع، أقسمتُ لهم إنني لم أعتد على أحد منهما ولا أعرفهما، لم يُصدّقوني، سارعوا بعرضي على الطبيب الشرعي الذي أكّد في تقريره مثليتي، وقد قال لي بعد إجراء الفحص المُهين :

” أنت مثليّ و واضح أنّ أحدهم مارس معك يوم أمس، سأكتب ذلك في التقرير لكن لن أشير إلى تاريخ آخر ممارسة تمت معك، لكي لا يلحق

بك ضرر أكبر .. ”

وبدأت الصفعاتُ تنهالُ عليَّ من كل من يمر بي، نادوني بـ ”اللوطي“ و ”الشاذ“ ومنهم من كان يقول لي ”طبيجي ولاد“ .

المكان الذي جعلوني أنزوي به لا تتجاوز مساحته متراً مربعاً واحداً، تفوحُ فيه رائحةُ البول المقززة، لكن رغم ذلك أجبرْتُ نفسي على تقبُّلِ المكان، ولم تستطع جدرانُه القميئة والكئيبة منعي من التحليق، والتأمل، والتفكير، وبعد محاولات عديدة، نجحتُ في خَلْقِ حالة فصلٍ بين المكان الذي ضمَّ جسدي وما راقثُ له روحي من فضاء مفتوح .

استطاع باسم التواصل مع والد الشاب الذي تقدّم بالشكوى، أخبره الرجلُ بأنَّ شخصاً في الحي اسمه عماد هو من حرّضه على تقديمها بحقي والادعاء عليّ، لكن عماد هذا .. اختفى فيما بعد، علمتُ من باسم أنه استطاع إقناعَ والد الشاب بسحب شكواه، خاصة أن نتيجة فحص الطبيب الشرعي كانت تؤكد عدم وجود حالة اعتداء جنسي على الشاب أو أية محاولة من هذا النوع، احترتُ في الأمر، لماذا يستمرّون في توقيفي إذن؟! أُحيلتِ القضيةُ إلى المحكمة المختصة، أخبرني باسم فيما بعد أنه دفع مائة ألف ليرة ولا أعرف لِمَ دفع هذا المبلغ ولن، لكن ما أضربَ بي هو اعترافي بالمثلية وتقرير الطبيب الشرعي، فصدر الحكمُ ضديّ بتهمة ارتكاب الفعل المنافي للحيثمة وذلك بحبسي مدة ثلاثة أشهر، وتم ترحيلي إلى السجن المركزي بعدرا .

وهناك .. وُضِعَتْ في المهجع السابع المخصص لمرتكبي جرائم الاغتصاب والدعارة وكل ما يمتُّ إلى الجنس بصلة، فور دخولي المهجع حاول السجناء فرض أوامرهم عليّ، وحين علموا بجرمي ساقوني عنوةً إلى كبيرهم الذي يَتَحَكَّمُ بكل صغيرة وكبيرة، أخبرني أنه يَتَوَجَّبُ عليّ الاختيار، إما الخضوع له وممارسة الجنس معه أو دفع إتاوة له، رفضتُ أن أخضع لسلطانه، وبِتُّ أدفعُ المال الذي كان باسم يَدُّني به في كل زيارة لأرضي من هو في الداخل، كنتُ أنامُ على الأرض محشوراً بين الأسرّة الموجودة، إلى أن أخبرني أحدهم أنني في حال رغبتُ بالنوم على سرير، وَجَبَ عليّ دفع مبلغ من المال، إن أردتُ الاستحمام أدفع، إن أردتُ الأكل أدفع .

ثلاثة أشهر مرَّتْ حَسِبْتُهَا دَهْرًا، رغم قدرتي على التأقلم إلا أن الانفرادية في مخفر الشرطة كانت أفضل حالاً، حاولَ السجناء استمالي وإغوائي لممارسة الجنس، هناك .. ترى الشذوذ بعينه، من يختار أحد الرجال يكون زوجةً له بحق، حتى أن أحدهم كان يمنع زوجته (رجل) من رؤية أحد وهو من يجلب لها الطعام، زوجةً بكل معنى الكلمة ووقَّفَ عليه وحده .

كنتُ قبل أن أتعرَّضَ لهذه المحنة قد باشرتُ بمراسلة المنظمة العالمية لحقوق الإنسان بهدف الهجرة إلى أميركا، كلاجئ إنساني باعتباري مثلي الجنس، وقد أعلمتهم لاحقاً بما جرى عن طريق صديقي باسم الذي أخبرهم

بكل ما تعرّضُ له، كحالةٍ لتخليصي من هذا الشرِّ الذي وَقَعْتُ في جُبَّتِهِ،
وكانوا دائماً يقولون له : إن قانون الدولة أقوى من أحكامهم وسياساتهم
في التعامل مع هذه القضايا، إلى أن مضت الأشهر الثلاثة وحن موعد
ترحيلي إلى بلدي العراق، جاهدتُ كيلا يُعيدونني إلى هناك، وطالبتُ
المنظمةَ بترحيلي إلى أميركا، لكنهم أكّدوا على وجوب توجُّهي إلى العراق
أولاً ومن ثم إلى بيروت ومنها إلى أميركا، سارعَ باسم بدفع تكلفة السفر
بالطائرة لأن السفر البري يتطلب انتظاري في سورية حتى يكتمل العدد
لمن يتوجب ترحيلهم، سبعةً من البشريين يجب أن يُساقوا معي، وكيف لي
أن أنتظر أكثر ما أمضيته وتعرّضتُ له؟! سَدَّدَ باسم تكاليف السفر في
الطائرة وسافرت إلى أن وصلت أميركا ما رأيك أستاذ قيصر ؟

انتهت رسالة أسامة، لم أستطع الرد مباشرة على رسالته، أغلقتُ
صندوق بريدي، وغبتُ أطرق أبواب التأمل .

تلقيتُ اتصالاً من ألما صباح يوم عيد ميلادي، بعد رسالةٍ وردتني منها
ترجوني فيها بأن تسمع صوتي لتهنئني وتبارك لي باقتراب تقديم برنامجي
الجديد بعد بثّ الإعلان عنه .

لا أنكرُ أنني اشتقتُ لسماح صوتها أيضاً، على الرغم من انشغالي ومن
كثرة الأحداث التي مرّت فألمتني وقهرتني وتسببتُ بيُعددي عنها أيضاً،
فضلاً عن معاقبتها بالغياب، كان صوتها رخواً كعادته، وكانت روحها ترقصُ
فرحاً لحظة سماعها صوتي .

اتفقنا على اللقاء عصر اليوم نفسه بعدما أصرّت على الاحتفال بعيد
ميلادي، كانت روجي هائمةً في هَيولى الأرواح الباكية على سورية، الحزن
أحكم قبضتهُ على ابتسامَةِ الشمع، لهدية العيد غلافٌ من كفن أبيض .

اتصل بي جهاد ليخبرني بأن الشرطة ألقَت القبضَ مُجدِّداً على خالد
أثناء محاولته التسلُّل للهرب باتجاه بيروت .

أثلجَ صدري بهذا الخبر، ومن ثم زَفَّ إليّ خبر المولود القادم، أخيراً
وبعد سبعة أعوام مرّت على زواجه سيصبحُ جهاد أباً، باركتُ له والغبطة

تكاد تحلّق بي في الفضاء، مُحَقِّفَةً من ثِقَلِ الحزن في روحي .. قلتُ له :

• هلا والله بأبي قيصر .

ضحك جهاد كثيراً وسمعته يقول لزوجته بما سمّيتُ طفله القادم، سارع ليخبرني بما قالت زوجته :

• هالة تقول : سيكون قيصر، وإن كانت طفلة سوف نُسمّيها أوغاريت .. فما رأيك ؟

سررتُ من أعماق قلبي، قَبَلْتُ جهاد بكلماتٍ أرسلتها لتلامس روحه :

• مُباركٌ ما سيرزقكم الله به إن شاء وأراد، لقد أسعدتني والله بهذا الخبر يا جهاد .. عفواً يا أبا قيصر .

• وأنت ؟ متى سنفرح بك ؟

• قريباً إن شاء الله، ستكون أول من أخبره بالأمر، ولوووو يجب أن يعلم قيصر الصغير بالفرحة الكبيرة

• بارك الله بك صديقي ..

كنتُ صفحةً بيضاءً أمام الما، لم أكذب عليها قط، ولم أمارس ضدّها الاستغلال العاطفي أو غيره .

ما تعرّضتُ له حينما كنتُ صغيراً لم يلوّث البياض، ولم أرده بسلوكي تجاه الآخرين، كنتُ اكتشفتُ من خلال مجريات الأحداث التي مرّت،

أنَّ القدرةَ على تقويم المرءِ لسلوكه كفيلاً بجعله بعيداً عمَّا لا يريدُ الغوصَ فيه، وأنَّ الإرادةَ الحيَّةَ في جعل ذلك النور الذي ينبضُ حيًّا في أبعِد نقطة من الرُّوح التي تشاركُ الجسد وجوده، قادرةٌ على إتمام الحياةِ بسلاَمٍ داخلي بعيداً عن التسليم الساذج بالقوانين الأساسية للطبيعة بل بالتفكُّر في محتواها دون السماح لأيِّ طاقةٍ سلبيةٍ من الولوج إلى النفس ومنها إلى الروح، ليكونَ الجسدُ أداةً طيِّعةً لا تعصى محرِّكه بأبسط حركةٍ وإلا كان المحرِّزُ يتقبُّ عينَ الرُّوح قبل أن يتجرَّأ على قيص الجسد، إن كان من ساتان أو باشمينا أو كشمير .

أيقنْتُ أن مُتطلباتِ الجسدِ لا يمكن استيعابها دونما إدراكٍ لذاك الوميض المشعّ وتنمية الإحساس به لتجاوز الحفقات المزوّرة التي تلجُ القلوب، لا بد من فكِّ الشيفرة الرقمية المحفورة على جسد الرغبة لتعقُّب المتغيّرات المستحدثة عبر السنين المنقضية من عمر الإنسان ومحوها وجعلها من ماضٍ سحيقٍ لا يمتُّ إلى اللحظة الراهنة بصلة، لضمان تعقُّبِ حي ومستمر لعمر اللحظة وجعلها بآمنٍ وحرزٍ من تشكُّل التصبُّغات الشكلية الكاشفة لمدى تأثير الوهم على النفس لتجنُّبِ اعتلالها ووقوعها ضحيةً لنوازع الذات البشرية نحو الشر وتفشّيه على امتداد الزمن المُعاش في جسد ما فُطر عليه الإنسان، ضمانٌ على تأكيدِ بعثِ الإنسان خالياً من شوائب الشهوة وأدران اللذة التي يُوهِمُ نفسه أنه وصل إليها وأوصلته بدورها إلى ذروة الإحساس بالمتعة، ليتأكَّد له أن الزيف منه هو إن تمكَّن واستطال، لا من ظروفٍ مُساعدةٍ أو مُحْرِضةٍ على اختراقِ العفلةِ لنفسٍ

صاحبها، أو أي سبب آخر يجعله حياً وإن اندثر .

الأبيض في صفحة حياتي لم يكن خالياً من حبر، طالما استخدمتُ الحبرَ لأرسمَ من الكلمات حياة، فيها اللغة قادرة على خلق ألوان واضحة المعالم، وإن كنتُ أكتبها بسوادِ صِرف، فالحياة فيها الكثير، لكن لا بد من توطين الروح في فضاء أبعد من كوكب الأرض وأقرب من نَسْج النبض .

اتصل بي المحامي ليخبرني أن إجراءات المخالعة مع روزالين تمَّت وانتهت، طلبتُ منه أن يكون حاضراً لدى استلام روزالين لمتاعها الشخصي .

كانت ألما قد أخبرتني برسالة خلال فترة انقطاعي عنها باتفاقها مع حازم على الاستمرار معه لقاء قبولها بعرضه المغربي كما وصفته لي، بشرائه مسكناً لها وقيده باسمها ضامناً لأي لوثة قد يُصاب بها مستقبلاً .

تحدّثتُ إلى ألما فور لقائنا، عن البياض، وما اختلط فيه، وما استدعى أفكاري بعدها، أثبتني على لغتي العصيّة على الفهم، مُندَهشة من مفرداتها، مُتسائلة عن القصد من نُطقها .

ضحكتُ .. ضحكتُ وقلتُ لها :

• لا أقصدُ شيئاً يا ألما .. ربما كنتُ أهذي .

• لا تقل لي ذلك، يجب أن أدرك قصدك .

• لا عليك، التفتي إلى حياتك مع حازم وإلى مشاريع أحلامك ربما تحققيها يوماً ما .

• ألم أخبرك بأني انتقلتُ إلى بيتي الذي اشتراه لي حازم ؟

• لا لم تخبريني .. متى انتقلتم ولماذا ؟

• منذ شهر تقريباً، بعدما دخل المسلحون المعضمية، واستولوا على بيوت فيها، خشيةً على أولادي، وبتنا في خطر مقيم، خرجتُ كما خرجتُ عائلات كثيرة من المنطقة وأقمْتُ في بيتي الجديد .

• الحمد لله أنكم بخير .

• فقدنا الكثير من أصحابنا وجيراننا خلال الفترة الماضية، منهم من قضى بتفجير، ومنهم من استُهدِفَ بقنصٍ أو تمَّ خطفه، منهم مَنْ هَجَرَ منزله لامتناعه عن مساعدة الإرهابيين الذين سَطوا على بيوت الهاربين من بطشهم مُحُولين جدرانها الداخلية إلى كَوَات مفتوحة على بعضها البعض لتهديب الأسلحة والذخائر وتحضير العبوات الناسفة والمتفجرات، ولينتقلوا بين البيوت بسهولة لاصطياد عناصر الجيش السوري، قيصر .. إلى متى سنبقى على هذا الحال ؟

• المشكلة في تَوَرُّط الكثيرين ممن اعتقدنا أنهم أبناء بلد، سواء من بقي منهم في الداخل أم هؤلاء الذين خرجوا منها ويمارسون الإرهاب الفكري والتحريض بكل صوره، تَوَرَّطوا في الخطاب

المتطرف بذرائع واهية، وهم في حالة فصام كبيرة أو تأثر شخصي دفعتم معظمهم إلى عدم التمييز بين النظام والبلد، المأساة كبيرة وأصابع الاتهام تتوجه بوضوح إلى الغرب والرجعية العربية والجماعات المتطرفة، ليس ثمة من يعلم يا ألما متى ستنتهي هذه الحرب وكيف .. رغم إيماننا وثقتنا بقوة الجيش السوري إلا أنهم كالشياطين يزدادون عدداً وعتاداً ولا أظن أن الأمور سوف تُحل بسهولة، بتنا خراباً في بلد منكوب ونحن قاب قوسين من الموت، ومن هو حي فقد مات أو كاد يموت من سطوة الخراب وآلة القتل الممجية .

• لا أصدّق أننا في سورية، كثيراً ما أحسب نفسي في أفغانستان أو في العراق، على ذكر العراق .. ما أخبار صديقك شهيد ؟

استغربتُ سؤالها عن شهيد، أحيث بسؤالها ما سبق أن استنكرتُ منها فابتعدتُ، أجبْتُ باختصار :

• سيهاجر إلى كندا .

لحظتُ .. تلقّيتُ اتصالاً من أدونيس، لم أتمكّن من سماعه جيداً فشبكة الاتصالات سيئة للغاية، بدا مُضطرباً وكأنه يبكي، أخبرته أنني سأعاهد الاتصال به فور وصولي إلى البيت .

حين هممنا بالخروج من الكافيتريا، كدثُ أصطدمُ بشابٍ لحظةً ولوجه المكان، رنوتُ إليه وأنا أعتذر، فعرفته، كان ينظرُ نحو ألما بكليته فلم يكثرثُ

لما تَلَفَّظْتُ به، بدا مَشْدوهاً بوجود ألما برفقتي، هل يعرفها ؟ إنه مثليّ
الجنس ويضعُ قِرطاً في أذنه اليمنى، كان يم قد حَدَّثني عنه، اضطربتُ
ألما لدى رؤيته، وقفا وجهاً لوجه، أدركتُ ما كان يشغلها أثناء مُعاقبتي لها
بالغياب، لكن لم أتوقع أنها ستختار من هو ذائع الصيت في المجتمع، أي
مصادفة رائعة تلك !! غادرتُ المكان تاركاً ورائي ناراً مُستعرة .

حين حَدَّثتُ أدونيس، صُعقتُ ببحر اختطاف جوليا، تم ذلك حينما
رافقتُ صديقتها إلى قريتها، هُوِجِمَت عدة قرى من ريف اللاذقية من
قبل الإرهابيين فقتلوا على رجالها قَتلاً وَذُبْحاً وَتَنكِيلاً وخطفوا نساءها
وأطفالها إلى تركيا .

أدونيس يبكي بكاءً مرّاً على جوليا، وليس بيده فعل شيء ..

لم أستطع تهدئته، فالْمُصاب أكبر من أن تخفف الكلمات منه .

ها هي ذي الحرية التي نادى بها من نادى، نتأجج الإرهاب تقضي على
السوريين أتّى كانوا، لا أحد بمنأى عن الخطر، والوطن يُذبح كل يوم بانتهاك
حرمة البشر فيه .

حدَّثتني القرى والغازُ عطر أرواح من غاب عنها، نادتني لكي ألممها من
بين الحطام، برضا حَدَّثتني كأنّ الألم زال، أجتو مُضْمَخاً بأقاصيص تُتلى
لتحيي ذاكرة الروح، تلوبُ نظراتي بحثاً عن زاويةٍ تمتصُّ فيها الدمع، لا
عزاء، لا حياة بعد الرحيل، وجوهٌ تسكنني، وتعود الذكريات لتلقي بي في

بيتٍ من دخان و نار، أين أنتم الآن؟ أين صباحاتكم النديّة؟ أين ضحكات
العيون .. وابتسامات الرضا أرهقت بتراتيل الرحيل؟

أفتح نافذة النهار لتسأل الروح قوافل الرحيل عودتهم، تسأل قوافي
الروح رجوعهم، والجمر محفوف بمخاطر المدى، أسيرُ وما من خطي ترسم
ملاحم اللقاء، أغلق باب الحياة على وداعهم وأمعن في تفاصيلهم، لأهتدي
لنور أرواحهم

استيقظت صبيحة اليوم التالي وخرجت قاصداً مقرّ الإذاعة، طيفُ
جوليا ما فارقتني لحظة مُدّ سمعتُ خبر اختطافها .

عندما اتخذت مكاني وراء المقود، وأدزته .. لم أدر ما حدث لحظتئذ .

دوي انفجار .. هذا آخر ما وعيتُ حدوثه .

استهدافٌ مباشرٌ بعبوةٍ ناسفةٍ وُضِعَتْ تحتَ السيارة .

خيالاتٌ تظهرُ وتغيبُ أمامي، أصواتٌ أسمعُها بضغ لحظاتٍ وتنقطع
عني، أكاد أفقدُ أي تواصلٍ مع المحيط، لم أُمُتْ .. ما زلتُ على قيد الوطن
الجريح روحاً تتوق إلى نصره .

لا أعرفُ كم مضى من الوقت وأنا طريح الفراش في المستشفى، من حولي
أهلي والأصدقاء، أستعيدُ وعيي للحظاتٍ لأقع من جديد في غيبوبةٍ مُضِنَّة،
فقدتُ سائقي إثر التفجير، هذا ما استطعت معرفته في حمأة أوجاعي،
موسيقى الوداع تتردّد في ساحة المستشفى حيث أرقد، لا أدري في أيّ
مستشفى أنا، ومن يتم تشييعه في هذه اللحظات، سيكون لديّ مُتَسَعٌ من
الوقت لأفكّر في أمور كثيرة، سوف أرْتَبُ حياتي وفقاً لما آل إليه جسدي،
ولن أفقدَ الأمل، لن أفقدَهُ فهذا ما يريدونه منا ولنا، ولن يُحَقِّقوا مُرادهم،
سوف أجعلُ الأملَ يَمِطُ ظِلَّهُ ليشكّل لي ساقين أسيرُ بهما، ربما أصبح
التحليق الآن أسهل .

أتماوجُ كنسمةٍ تعلو البحرَ بقليل بين اليقظة والمنام، تراءى لي سعد الله ونوس، الكاتب المسرحي الفدّ، عاُدْتُ بي الذاكرة إلى يوم وفاته، الخامس عشر من أيار سنة ١٩٩٧ أثناء تأديتي لدورة الاختصاص في الخدمة الإلزامية، أذكرُ ليلة وفاته تماماً، حيث كنتُ أمضي نوبتي في الحراسة، كنتُ أرنو إلى السماء فجرَ ذلك اليوم ودمشق ساحرة بهيئة كعادتها، تنبّهتُ إلى سقوط شهب من السماء، لا أدري حينها لِمَ انقضَّ عليّ إحساسٌ غريب دفعني للتساؤل عمّن مات لحظتها وفارق الحياة، وفي صبيحة اليوم نفسه سمعتُ خبر غياب سعد الله ونوس عن الحياة، كانت درجة الحرارة يومئذ مرتفعة وقد تم تشييعه إلى مثواه الأخير ظهيرة اليوم تحت شمس حارقة، تنبّهتُ إلى ذلك، حيث دوّنَ في كتابه ” عن الذاكرة والموت “ :

” وعلى كل كانت دائماً أبشع صور الموت بالنسبة لي، جنازة تتجه إلى المقبرة وقت الظهيرة، وفي يوم صيفي شديد القیظ ” .

لماذا حدث ما كرهَ حدوثه ؟

غاب طيفُ ونوس ليحضرني ممدوح عدوان، ومن ثم ليظهر بقوة طيف الفنان نضال سيجري، استعادت ذاكرتي لحظة وقفْتُ على قبره بعد تشييعه مباشرة وقد انهمر دمعي وكلماته تتردّد في أذني حتى أتت على صخب الكون فأنصت لها وانصاعت النجومُ لندائه :

” وطني مجروح وأنا أنزف، خاتنتي حنجرتي فاقتلعتها، أرجوكم لا تخونوا وطنكم ” .

تساءلتُ بحرقه : لماذا يهجم مرض السرطان على أولئك الذين لم يدعهم
القدر يكملون مشاريعهم ؟ .

شريط الذكريات يظهر أمامي، تُعادُ فيه أبهى لحظات عمري، تقتحمها
صور أخرى يتداخل فيها الدم، وفي تواتر الصور ومرورها .. رأيتُ أدونيس،
مرتدياً اللباس العسكري، ابتسمتُ .. ابتسمتُ وقلتُ مُطمئناً روجي :

ليس مهماً ما جرى، لن يحشروني في زاوية عههم، لن يهزموا جراتي
الزرقاء، سأنهض، لا بد أن أنهض، لأقتل جداول الشمس، وأرسم على
تجاعيد القمر تضاريس أحلامي، الفكرة وجود، وأنا في عمقها موجود،
اقترابي من الموت منحني بعداً آخر للحياة، لأحيها من جديد .

من بين الصور التي تتراءى أمامي، رأيتُ هبة الله، حاضرة إلى جانبي،
هالة من نورٍ تحيط بها، تبدو جليئة كالشمس، لم تكن طيفاً لحظة شعرتُ
بلمسة تنساب من أصابعها على جبيني، ابتسامتها رقيقة كالأزرق عندما كان
مَوْجُهُ يُغازلُ قلبي، عيناها لا تُخطئان الرؤية الآن، بدتُ كملك أمامي،
أسبلتُ ومن ثم دققتُ النظر، هبة الله .. إنها هي وعلى جيدها وشاح من
الباشمينا الزهري، ابتسمتُ لها حين أرختُ سبابتها فوق شفتي، قبلتها ..
وغفوت .

رقم الايداع / ١٠٨٠١ / ١٤٢٠١٤ ط١

الترقيم الدولى / ٤ - ٧٦ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨



مطبعة إبراهيم سالم

٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧ - ٠١٢٠٢٠٣٤٣٢٦ - ٠١٠١٧١٨٠٩٣٨